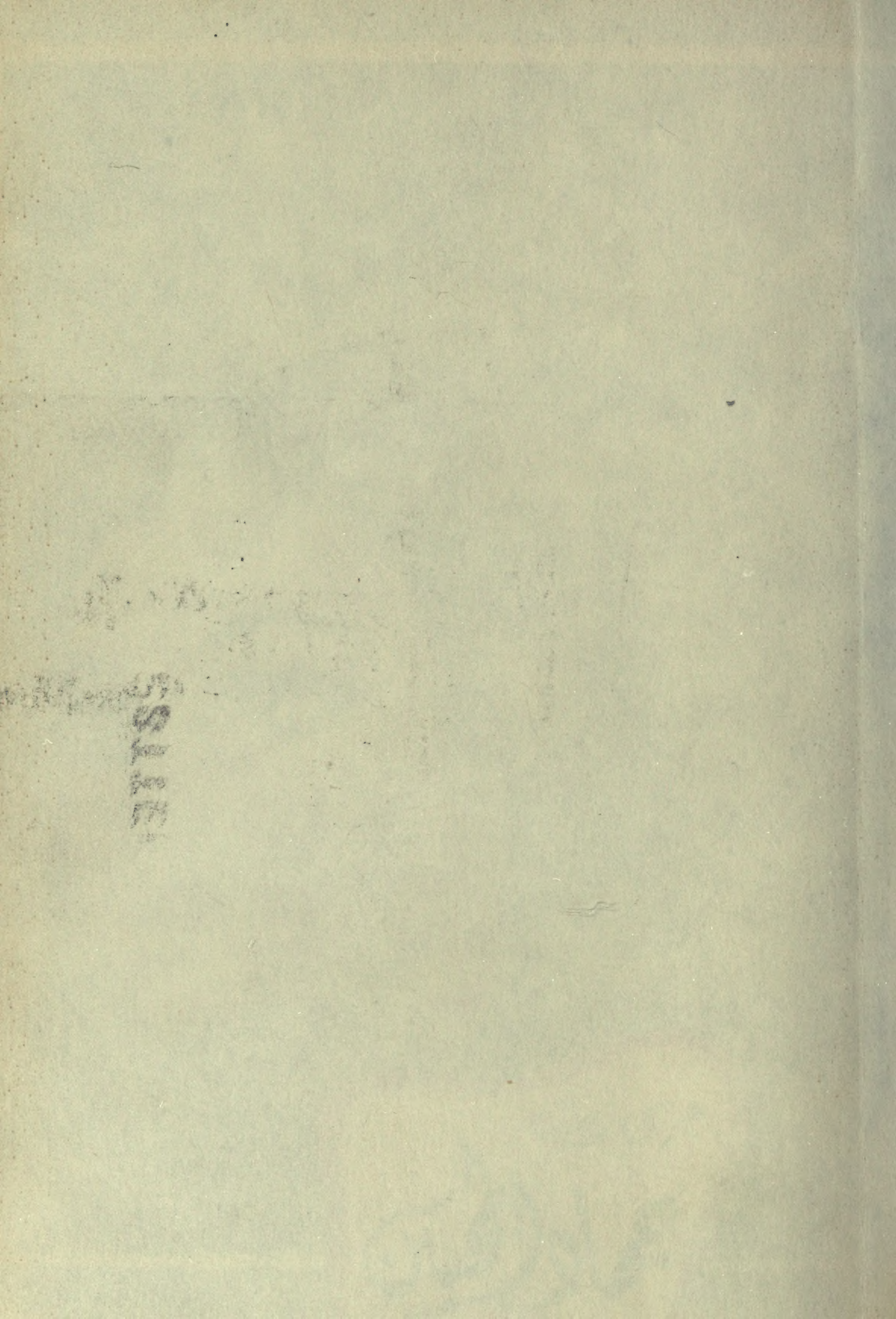
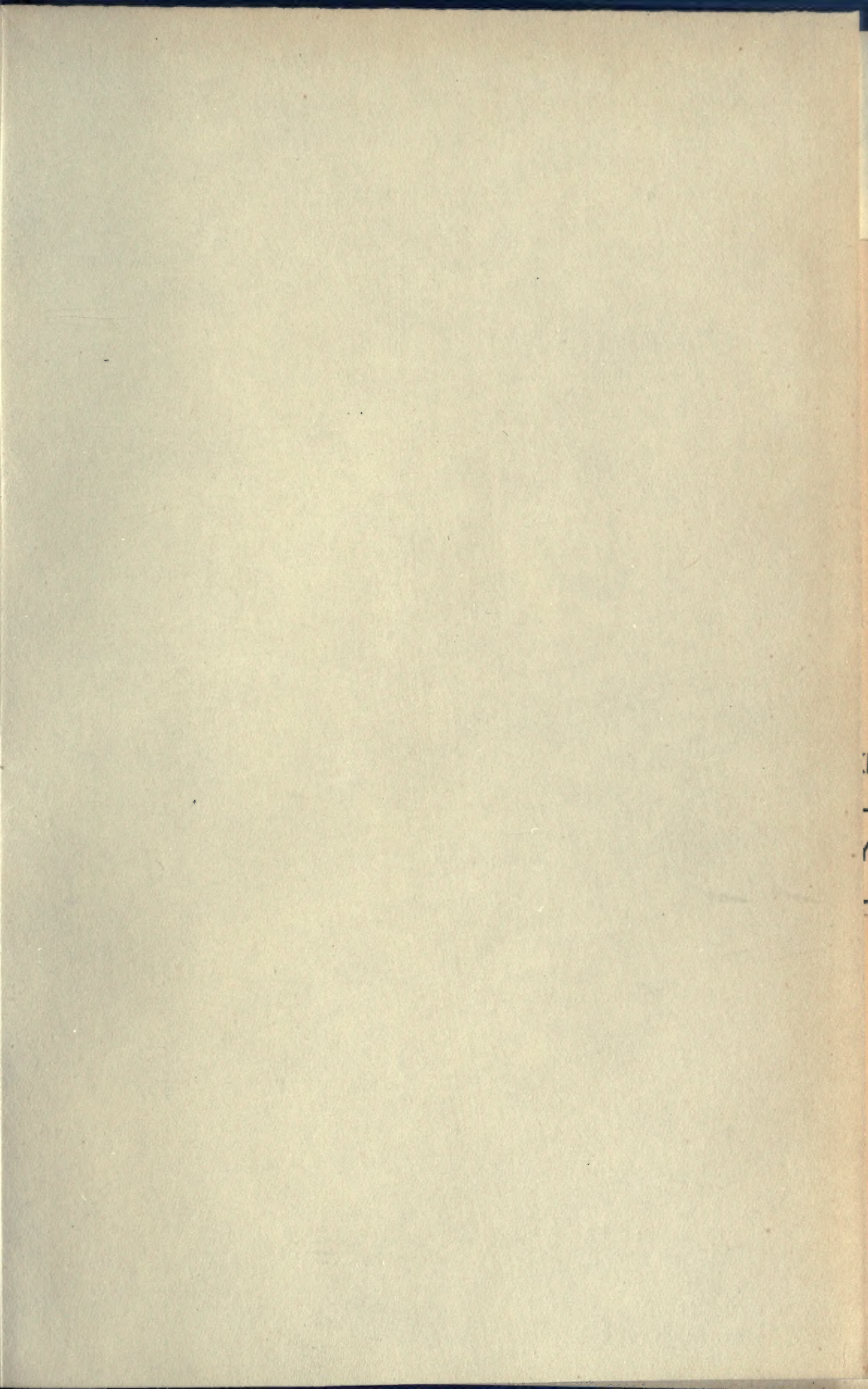
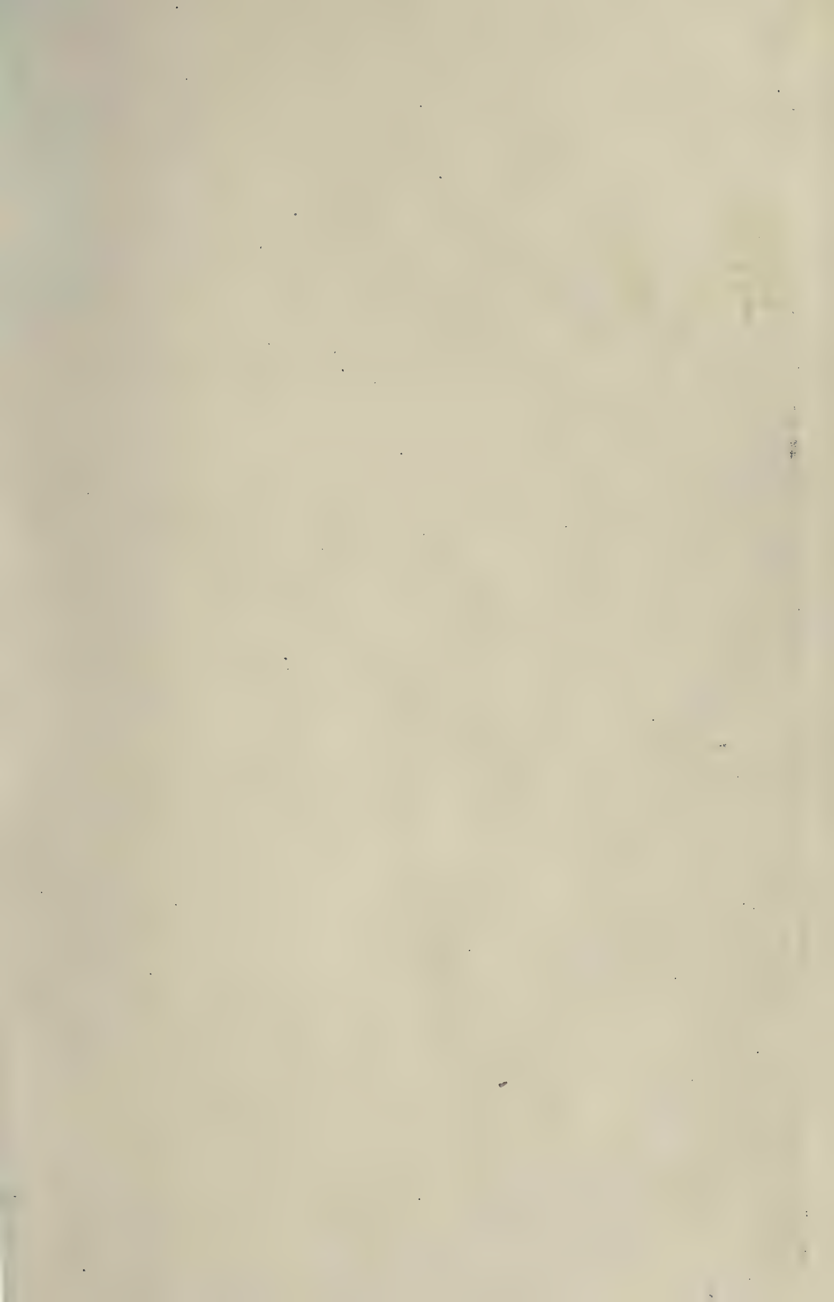






روايات تاريخ الإسلام





جهاد المحبّين

رواية غرامية أدبية

تصور مأساة من مآسى المحبين ، وما يقاسونه فى سبيل الحب ، ثم كيف يجزون على صبرهم ووفائهم ، وتدور الدوائر على أهل البغى والعدوان ...

تأليف
جرجى زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* **سليم** : موظف حكومى بالقاهرة ومقيم بحلوان
* **حبيب** : محام شاب بالقاهرة
* **سلمى** : خطيبة سليم
* **ادما** : خطيبة حبيب
* **سليمان** : والد سلمى
* **شفيقة** : أخت حبيب
* **سعيد** : والد ادما
* **فؤاد** : شقيق سليم ومقيم بالاسكندرية مع أمه
* **داود** : تاجر اسكندرى بالقاهرة
* **وردة** : أرملة غنية بالاسكندرية
* **اميلى** : ابنة وردة

— ١ —

حدبقة الأزبكية

احتفل سكان القاهرة فى ٢١ يونيو سنة ١٨٨٧ بمرور خمسين عاما على حكم فكتوريا ملكة الانجليز ، فزينوا حديقة الأزبكية بالأنوار ، وتقاطر الناس زرافات ووحدانا الى تلك الحديقة : نساء ، ورجالا ، وأولادا من سائر الطوائف والملل .. حتى غصت طرقاتها بهم ، وكلهم فرحون بما أعد فى تلك الليـلة من دواعى البهجة والسرور . وكان النـاس يخطرون جماعات فى طرقات الحديقة ، وحول بركتها ، والى جوانب الموسيقى التى كانت تصدح فى ساحتها ، ولم تكن ترى فيهم الا وجوها باسمة وقدودا مائسة : هـذا يخاطب صديقا له ويمازحه ، وذاك يداعب ولده ويلاعبه ، وتلك تنادى فتاتها لتسير الى جانبها خوفا عليها من أن تضلّ الطريق بين الجماهير.. وآخرون جالسون الى موائد صغيرة يسمعون عزف الموسيقى العسكرية ، وآخرون يتأملون جمـال الطبيعة ويعجبون لتزاحم الاقدام وتلألؤ الأنوار الغازية وتكاثرها

وكانت أبواب الحديقة غاصة بالداخلين والخارجين ، والحجاب يمنعون الناس من الدخول بغير تذاكر الدعوة .. ورجال الشرطة يهولون على الرعاع منعا لضوضائهم ، لئلا يكدروا صفو الناس بمزاحمتهم ..

فلما كانت الساعة التاسعة ، وصــل الى أحد أبواب الحديقة شاب بالملابس الافرنجية المعتادة ، جميــل الصورة ، ربع القامة رشيقها ، ولكن وجهه كان مقطبا عبوسا تلوح عليه ملامح الكآبة والاضطراب .. وكان ساعة وصوله غارقا فى بحار الهواجس ، فاعترضه ازدحام الناس هناك ، فانتبه بغتة كأنه هبَّ من نوم ، فمد يده الى جيبه وأخرج رقعة من رقاع الدعوة ، دفعها الى الحاجب ، فأذن له بالدخول ..

فدخل لايدرى الى أى جهة يسير ، فقادته السليقة الى جهة الازدحام الكثير حول مكان الموسيقى . وكان لارتباكه وهواجسه يرى وكأنه سائر فى خلاء قفر لا يستوقفه منظر .. حتى اذا وصل الى متكأ فى قهوة الى جانب الموسيقى عرج اليه ، وجلس الى كرسى وأشعل (سيجارته) وأخذ يدخن والناس يخطرون أمامه ذهابا وايابا بين رجــال ونســاء وأولاد على اختــلاف الأزياء والأشكال ، وهم يمرحون فى مظاهر السرور وامارات الفرح . أما هو فلم يكن يحس بهم أو ينتبه لحركاتهم ، كأنه فى غيبوبة لا شاغل له الا تدخين (سيجارته) وملاعبة عصاه فى يده بنقلها من يد الى أخرى .. واذا انتهت سيجارة أشعل غيرها حتى أصبح الدخان حوله أشبه شىء بدخان الاتون

ولم ينتبه من غيبوبته هذه ، حتى جاء غلام القهوة يسأله عما يريد ، ولم يكن يعلم ماذا يطلب لأنه لم يكن فى حاجة الى شىء يشربه أو يأكله .. ولكنه كان مضطرا لطلب شىء ، فجىء به

اليه ، ثم عاد الى هواجسه ..

وبينما هو فى ذلك ، شعر بيد لمسته على كتفه ، وصوت يناديه نداء التحية .. فالتفت كمن هبَّ من نوم ، فاذا بصديق له ينظر اليه مبتسما وقد مدَّ اليه يده مصافحا .. فانتصب للقائه وصافحه وقد شعر عند مشاهدته كأنه كان فى ضيق وأتاه الفرج ، فدعاه الى الجلوس قائلا : « أهلا وسهلا بك ياعزيزى .. تفضَّل .. »

فقال الصديق : « مالى أراكَ هنا الليلة ، وعهــدى بك انك مقيم فى حلوان ؟ » ..

قال : « جئت لتفريج كربتى بمشاهدة هذا الاحتفال .. لكننى لم أزدد الا ضيقا ، وقد أرسلك الله الىَّ فى ساعة الحاجة اليك ، انى يا سليم فى ارتباكٍ عظيم وقد بعث بك الله لتعزيتى ، ولا غرو فان الصديق الصادق من شاركك فى سرائك وعزاكَ فى مصابك »

فأجابه صديقه ، وقد جلس وأشعل سيجارته ، ونظر اليه نظرة الاخلاص : « لا أراكَ الله ضيقا ياصديقى .. انك وحقك لأعز من الصديق وأقرب من الأخ ، ولا تظن أخاكَ هذا الا مشاركا لك فى سرائك وضرائك، واذا لم يدفعنى الى معاونتك دافع الحب فعشرة الطفولة وحقوق التربية تتكفلان بذلك .. قل ما بدا لك »

- ٢ -

حال الموظفين

فأجابه حبيب ، وقد كادت تنقشع ظلمة الغضب والألم عن وجهه : « قضت عليَّ الظروف أن أنتظم فى سلك موظفى الحكومة المصرية كما تعلم ، وهى خدمة ما كان أسعدها لو لم يكن من أمرها فى هذه الأيام ، ما كان من الطرد لاقتصاد الحكومة فى نفقات دوائرها ، ولم يكن يخطر لى يوم انتظمت فى سلكها أن يكون هذا مصيرى ، وقد قضيت خمس سنوات أخدمها بهمة ونشاط حتى كانت الثورة العرابية ، ومهاجرتنا هذه الديار وتكبد النفقات مع والدتى وشقيقتى فى الأسفار الطوال حتى أنفقت ما كنت قد جمعته من فائض الراتب الشهرى .. وعدت فى أوائل السنة الماضية لا أملك قرشا واحدا ، ولكننى كنت لا أزال أؤمل أن أعود الى منصبى ، فعدت اليه وأديت واجباتى ، ولم أكد أنسى تلك المشـقات والأسـفار حتى داهمنى القـدر بما لم يكن فى الحسبان » . قال ذلك وتأوَّه ..

فتطاول صديقه بعنقه اليه ، وقد أظهر الاهتمام ، وسأله أن يكاشفه بحقيقة الأمر

فقـال : « قد علمت عن ثقة ان الحكومة لا تزال عاملة على الاقتصاد بالاستغناء عن المستخدمين ، وقد أخبرنى بعض الأصدقاء ان بعض رفاقنا سيفصلون من الخدمة ، وأنا فى جملتهم .. ولا

يخفى عليك ان بيتى مفتوح وجيبى خال للأسباب التى قدمتها »

فقال سليم : « ومن أنبأك بذلك يا حبيب ؟ » ..

قال حبيب : « أنبأنى به صديقنا ..... »

فقال سليم وقد هز رأسه مستهزئا : « ومن أخبره بذلك ؟.. ان الأمر على خلاف ما بلغك ، وما أظن صديقنا الا متعجل فيما قال ! »

قال حبيب : « لا تعزنى بهذا القول ، اذ لا أرى الخبر الا صحيحا ، لاريب فيه » ..

قال سليم : « كلا ياعزيزى .. انه خبر عار عن الصحة ، بل هو بعكس الواقع »

***

فأبرقت أسرة حبيب ، ونظر الى سليم بعين المستطلع ، وقال : « وكيف ذلك ؟.. لعلك تمزح » قال : « كلا .. ولكننى أقول الصواب .. ان ما بلغك محض اختلاق ، وما أخبرك به صاحبنا ليس الا لغرض فى نفسه تعلمه أنت .. والحقيقة انك ستنال مركزا أحسن مما أنت فيه .. »

فقطع حبيب عليه الكلام قائلا : «قل الحق ناشدتك الله ياسليم»

قال : « انى أقول الحق .. انك سترتقى الى مركز أحسن حالا وأرفع مقاما فى نظارة الداخلية ، وقد علمت ذلك عن ثقة فكن مطمئن البال .. »

فلم يصدق حبيب ذلك حتى أكده له صديقه ، وقال له : « ان

غدا لناظره قريب .. فلا تبتئس ولا تجزع .. وهب انك طردت ، فباب الرزق واسع .. والله يرزق من يشاء بغير حساب .. »

قال حبيب وقد انبسط وجهه : « حقق الله الآمال ياعزيزى ، والله انك لبشير السعادة .. ولولا مجيئك لكنت أصبت بمرض لشدة غيظى .. فعسى أن يصح قولك ، فأشكر صدق طويتك ، وأحمد الله على ذلك .. أما قولك انى اذا خرجت من خدمة الحكومة أمارس سواها .. فهذا لن يتحقق الا نادرا ، لأن من يخدم الحكومة تغل يداه عن سائر الأعمال ، فاذا خرج من خدمتها لا يجد له عملا يؤديه .. ليس لقلة الأعمال ، ولكن لتعوده الراحة وتقاعده عن اكتساب ما يؤهله لسواها ، ولقد مرّ بذاكرتى هذه الليلة مختلف مراحل حياتى ، فندمت ندما لا مزيد عليه ، لأنى لم أسمع مشورة والدى ــ رحمه الله ــ فى العمل بالتجارة معه ، فلو أطعته لكنت فى غنى عن هذا الارتباك ، ولكن هكذا شاءت الأقدار .. »

- ٣ -

محب مستتر

ولما تخلص حبيب من تردده وارتباكه ، أخذ يمتع نظره بما حوله من المناظر، وصديقه الى جانبه ، يتجاذبان أطراف الحديث ..

فقال حبيب : « ما الذى جاء بك هذه الليلة وكنت أظنك مشغولا فى بيت عمك تزور خطيبتك ، فكيف جئت الى هذه الحديقة ؟.. ألعلك تسر بمشاهدة هذه الأنوار وتأنس بهذا الازدحام أكثر من مشاهدة خطيبتك ؟ »

فعلا وجه سليم الاحمرار لتذكره خطيبته وما يقاسى من أجلها ، وانقبض وجهه ولكنه حاول اخفاء عواطفه وهواجسه ، فسكت برهة وحبيب يراقب حركاته كأنه يريد استطلاع مكنونات قلبه لعلمه بما عاناه فى الوصول الى تلك الخطيبة وما بينهما من روابط المحبة ..

فقال سليم ، محاولا اخفاء ما فى نفسه : « انى قضيت معها مدة قصيرة ، ثم رأيتها فى حاجة الى النوم .. فتركتها لتأوى الى مخدعها مبكرة ، وجئت أقضى بقية السهرة فى هذه الحديقة ، ثم أعود الى الفراش أيضا

فلم يصدق حبيب قوله ، ولكنه أظهر انه اكتفى به وهو يعتزم أن يستطلع حقيقة الأمر بنفسه فى الغد ، ولكنه أعاد نظره اليه

فاذا هو صامت لا يتكلم ، وقد انقبضت أسارير وجهه وخامره الاضطراب ..

فقال له مبتسما : « أرى أن صديقى قد وقع فيما كنت فيه ، ألعله أيضا يخشى أن يطرد من عمله ؟.. » وضحك

فعلا وجه سليم الاحمرار بغتة ، وأراد أن يتكلم ، فتلجلج وصمت ..

فأراد حبيب أن يستزيده فى السؤال ، ولكنه خشى أن يزيد ألمه ، وكان الموسيقيون قد فرغوا من عزف آخر مقطوعة ، فوقف وقال لصديقه : « ألا توافقنى على مغادرة هذا المكان لنمشى فى الحديقة وتتمتع بمناظرها » . فوقف سليم وهو يحاول اخفاء عواطفه ولا يستطيع ..

فتجاهل حبيب أمره ، وأمسك بيده ، وجعل يحدثه فى أمور مختلفة تتعلق بالزينة وبهرجها واشتغال الناس بها ، فكان سليم يجيبه ويجاذبه الحديث اخفاء لما به ، وحبيب يبالغ فى التجاهل تسكينا لما ثار فى نفسه .. ولكنه كان شديد الميل الى معرفة سبب انقباضه ..

ثم مشيا صامتين ، وكل منهما يفكر فى نفسه ، ونظرهما يتنقل للى المارة والجلوس، وما شعرا الا وهما عند باب الحديقة الشمالى فنظر حبيب الى ساعته : فاذا هى فى نحو الساعة التاسعة ، فاستشار رفيقه فى الخروج ، ثم قال : « هلم بنا نخرج الى مكتب البريد لأنى أنتظر بريدا من أوربا فى هذه الليلة » .. فخرجا حتى

وصلا الى شباك البريد فسألا : هل أتاهما كتب ، فمد موظف البريد يده وأعطى كلا منهما كتابا

***

فتناول حبيب كتابه وقرأ عنوانه ، فاذا هو بخط كأنه يعرفه ونظر الى طابع البريد على الغلاف ، فاذا هو طابع مصرى وعليه ختم مكتب القاهرة .. فعلم أنه صادر منها ، ففضه وأخذ يتلوه ، واذا فيه :

« يا سادتى هل يخطرن ببالكم   من ليس يخطر غيركم فى باله

« ياشقيق الرّوح ومالك الفؤاد

« أكتب اليك هذه الكلمات بغير امضاء ، والقلب يخفق واليد ترتعش ، فاذا كانت القلوب شواهد كما يزعمون خفق قلبك وارتعشت يداك ، وعرفت مالك فى قلب هذه المسكينة من المحبة التى كتمتها حتى تضاعف خطرها .. فلعلك اذا عرفتها أن ترثى لها ، والا فانها شكوى أبثها لمن ملك قلبى مع بقاء أمرى مكتوما فى ضميرى عنه ، وعن سواه ، الى أن يقضى الله ما يشاء .. »

فبغت عند مطالعته الخطاب ، وأخذ يتأمله ويكرر قراءته سرا عن صديقه ، ثم نظر اليه فاذا هو يتلو كتابه .. وقد بهت وامتقع لونه ، وأخذت الورقة تنتفض فى يده .. فطوى حبيب كتابه ، وخاطب صديقه قائلا : « خيرا ان شاء الله يا سليم »

قال سليم وقد تلجلج : « ليس فيه سوى الخير يا عزيزى » . قال ذلك وطوى الكتاب ووضعه فى جيبه ، ومشى يريد الخروج

من مكتب البريد ، فمشى حبيب الى جانبه يفكر تارة فى كتابه وطورا فى رفيقه ، وما ظهر عليه من مظاهر الاضطراب .. وأراد أن يستطلع حقيقة حاله فمنعه التأدب .. ولكنه اعتزم أن يحاول ذلك بالحيلة ..

فقال له : « سبحان الله .. كم تختلف الناس فى الأخلاق .. فانك تكاد لا ترى اثنين على خلق واحد ، وقد صدق من قال :

انما نحن فى اختـــلاف عقـــول   مثلما نحن فى اختلاف وجوه

« أما أنا ، فاذا أغضبنى أمر ، لا أستطيع اخفاء عواطفى قط .. فاذا كان الى جانبى أحد عرف اننى فى انقباض ، كما شـــاهدت ذلك معى ، هذه الليلة »

فتنهد سليم تنهدا خفيا وقال : « لعل ذلك خلق فى الناس كافة » .. قال ذلك ، وكأنه أحس بقرب تغلب صديقه على لسانه ، فأسرع الى قطع الحديث ، وتعلل بميله الى النوم قائلا : « أشعر بتعب وألم فى الرأس ، لذلك أفضل أن أتوجّه الى البيت ، رغم أننى كنت أود قضاء بقية هذه الليلة برفقتك .. »

فشعر حبيب بما كان يختلج فى نفسه ، فأجابه : « ان النوم أفضل شىء للراحة ، وأنا أيضا أحس بمثل هذا التعب لما كنت فيه من الشواغل فى هذه الليلة ، وأفضل الذهاب الآن لأدرك القطار الذى يسافر الى حلوان الساعة العاشرة »

ومد يده مودعا ، فتصافحا .. وسار كل فى سبيله ، وفى نفس كل منهما أمر يحاول اخفاءه عن رفيقه

— ٤ —

شقاء المحبين

أما حبيب فذهب غربا قاصدا المحطة ، فلما توارى عن صديقه أخرج الكتاب من جيبه وجعل يردد نظره فيه ، ويقرأه تكرارا مستضيئا بأنوار الشوارع ، ويتأمل الخط لعله يذكر صاحبه فلم يتذكر ..

وما زال حتى وصل الى محطة باب اللوق ، فاذا بالقطار قد قام ، فسأل عن موعد القطار الذى يليه ، فقيل له : انه سيقوم فى منتصف الليل ، فساءه ذلك لما هو فيه من الهواجس والارتباك

فخرج من المحطة ، وأخذ يتمشى قاصدا الجزيرة ، يقضى فيها ساعة ، ثم يعود فى وقت مسير القطار . فمشى والكتاب لا يزال فى يده وأفكاره سابحة فى بحر من الهواجس ، وجعل يستعيد ذكرياته عن المنازل التى يختلف اليها ، والسيدات اللواتى عرفهن لعله يستطيع معرفة كاتبة تلك السطور .. فلم ينتبه الا وهو على جسر قصر النيل الهائل ، فنبهه خرير الماء من تحته .. فوقف برهة وأطل على النيل يتأمل مجراه ، والهدوء مستول على تلك الجهة ، لا يسمع فيها الا خرير الماء عند التقائه بأعمدة الجسر

ونظر الى نهاية الجسر ، فاذا بالأنوار مصطفة على جانبيه كأنها كواكب ثابتة .. تتلألأ فى ذلك الفضاء .. فاندفع من نفسه الى

المسير ، فمشى الهوينى حتى بلغ الجزيرة .. ودخل شارعها المظلل بالأشجار ، فمشى فيه ثم عرج فى منعطف نحو الشاطىء ، فسمع قرقعة عربة مارة فى الشارع ، ثم رآها وقفت فتريث ليرى مايكون من أمرها فاذا بشبح نزل منها ، وعرج فى منعطف بالقرب من المكان الواقف هو فيه .. وسار حتى بلغ النيل ، وانحدر الى الشاطىء ..

وكان حبيب واقفا فى ظل نخلة ، فبالغ فى الاختفاء وراءها حتى رأى الرجل قد وصل أسفل الشاطىء ، فاذا به قد جلس على حجر هناك .. وتأمله حبيب فاذا به يشبه صديقه سليما ، فأمعن النظر فيه ، فاذا هو بعينه .. فأشكل عليه أمره ، وعجب لمجيئه الى هذا المكان فى ظلام ذلك الليل ، وقال فى نفسه : الأفضل لى أن أمكث هنا مختفيا لأرى ماذا جاء بصديقى هذا الى هنا . ثم تذكر ما لاحظه عليه من الارتباك ذلك المساء ، فخشى أن يكون قد تملكه اليأس وأراد الانتحار غرقا فى النيل .. فمشى بضع خطوات بكل خفة حتى أصبح وراءه ، وجلس مختفيا وراء النخلة ليرى ماذا يكون من أمره ، واعتزم أن يسرع بانتشاله اذا رآه يهمّ بالقاء نفسه فى النيل ، وشكر الله على ما كان من تأخره عن موعد قيام القطار الى حلوان

أما سليم فانه جلس الى الشاطىء ، والماء جار أمامه ، والظلام يخيم على تلك الجهة .. الا ما يصل اليها من الأشعة البعيدة المنبعثة من أنوار الجسر ، وهى ضعيفة جدا .. وبعد أن صمت

برهة ، التفت يمنة ويسرة كأنه يحاذر أن يراه أحد .. ثم تنفس الصعداء وقال متحرقا : « آه .. آه من حوادث الزمان .. آه من جهلي وقلة تدبيرى .. آه يا سلمى حبيبتى ومنى فؤادى » وأراد اتمام الحديث فسبقته العبرات ، وأطلق لنفسه عنان البكاء ، حتى سمع حبيب صوت شهيقه ، فتفتت قلبه حزنا عليه .. وتحركت عواطفه حتى كاد يشاركه فى البكاء .. ولكنه أمسك نفسه ليرى ماذا يفعل بعد ذلك .

فاذا به بعد البكاء والشهيق برهة ، عاد فقال : « انى أحبك والله حبا لم أشعر به فى حياتى ، ولم أكن أعلم أن الحب يملك القلب ويتسلط على العواطف الى هذا الحد . آه ما أحلى الحب وما أمرّه .. آه .. آه .. » وعاد الى البكاء ثم قال مناديا نفسه : « آه يا سليم هل خطر ببالك أنك تصبح ألعوبة بيد الحب .. وأنت .. أنت الذى لم يكن يعبأ بحوادث الزمان ولايهمه أمر من الأمور . آه يا الهى ماذا أعمل لأتخلص من هذه الحال .. حال التردد . هل أترك سلمى .. لا .. لا .. لا والله لا أتركها ولا أتخلى عنها لأنها تحبنى ، وقد تعلقت آمالها بى بناء على وعد لها منى ، وهى ملاكى وحبيبتى ومنتهى أملى .. لا .. لا .. لا أتخلى عنها لأنى لا أدرى ماذا يلم بها اذا عرفت بترددى فى محبتها . لا.. لا.. لا يجب أن أتردد .. هى .. هى كعبة آمالى .. سلمى حبيبتى ، روحى فداك .. أنت الآن راقدة فى فراشك وقد كحل عينيك الكرى فنامى هنيئا لا تزعجك الأحلام » .. ثم سكت برهة ،

وحبيب يسمع أقواله كلمة كلمة ويتمعن فيها ، لعله يستطلع من خلالها سببا لهذه التأوهات

ثم سمعه يقول ، وقد أمسك نفســه عن البكاء ومسح عينيه بمنديله : « ماذا جرى لى ؟.. لماذا أنا خائف ؟.. انى خائف على سرّى ان يطلع عليه أحد ، ولكن من يعرفه وليس ثمة شاهد سوى هذا النيل ، وهو لايعيّرنى فى الحب .. اذ كم من المحبين قد أضافوا ماء عيونهم الى مائه ، فهو يعذرنى » ثم سكت وهو يخرج ورقة من جيبه ، ثم تناولها وتأملها فى ذلك الظلام وتنهد وعاد الى البكاء

وقال : « آه .. آه .. نعم لا أتركك ، ولكن ماذا أفعل بوالدتى التى تركت الدنيا كلها من أجلى ، والتى ربتنى بدموعها وأدخلتنى المدارس وعلمتنى ، وأنفقت أقصى ما فى وسعها من جهد وتعب ، ولم تدعنى أتحمل ضيما ، وهى انما فعلت ذلك آملة أن أكرس باقى حياتى فى خدمتها ، وهى أهل لأكثر من ذلك ، فكيف أخالف أمرها أو أعصاها .. لا .. لا .. يجب أن أكون طوع ارادتها لأن أيامها فى هذه الدنيا معدودات .. فيجب أن أفعل كل ما تأمرنى به .. » ثم سكت وعاد فقال : « لا .. لا .. لا .. لأنها تريد أن أتخلى عن سلمى حبيبتى .. لا .. لا أترك سلمى ولو تركتنى روحى .. ولا والدتى الحنون ، لأنى أعلم أنى اذا أغضبتها تموت حسرة ويأسا و .. ولكن سلمى أيضا لا تحتمل جفائى وهى لا محالة تموت لأنها وضعت كل آمالها فى ، فكيف أخيب أملها ،

ولكن سامحك الله ياوالدتى لقد بالغت فى نهيى عن الزواج بها .. هل الى هذا الحد وصلت بك عاطفة الأمومة ؟.. أتتركيننى اذا لم أترك سلمى ؟.. هل صحيح ما تقولين انك لا تعرفينني ولدا لك اذا أصررت على سلمى .. ويلاه ماذا أفعل ؟ (وازداد فى البكاء) فليس لى اذن الا انهاء حياتى ، فأتخلص من هذا التردد ، وألقى نفسى فى هذا النيل »

فلما سمع حبيب كلامه ، تهيأ للوثوب عليه اذا رآه يهم بالوقوف ، فاذا به عاد يقول : « واذا قتلت نفسى ، فانى أكون سببا لشقائى وشقاء الاثنتين ، لأنهما بلا شك تموتان حسرة .. فلا أكون قد فعلت حسنا ، فلا حول ولا قوة الا بالله» .. وسكت

ثم رآه يهم للنهوض ، فتوارى وراء النخلة ليرى ماذا يكون من أمره ، فاذا به قد تحول يريد العودة الى العربة ، فتقهقر حبيب مختفيا عنه .. ولم يرد أن يظهر أمامه ، لعلمه أن ذلك يكدره ، لأنه انما فعل ما فعله هناك اخفاء لما به عن الناس كافة ، فتنحى عنه فمر راجعا الى العربة ، وكانت فى انتظاره فى الشارع ، فركب وأمر السائق ، فحوَّل الأعنة وعاد به الى المدينة ..

أما حبيب فرجع الى سبيله ، وهو يعجب لذلك الاتفاق الذى كشف له عن حقيقة حال صديقه ، وقد رثى لحاله وشعر بمدى الاضطراب الذى هو فيه ، ولم يكن يعلم أنه فى هذه الحال من الضيق .. وانما كان يظن أن ارتباكه تلك الليلة فى الحديقة ، كان ناتجا عما لا يخلو الحب منه من الانفعال لأقل الأشياء .. مما لا

يتأثر منه الخلى ، وربما ضحك من المحبين لانفعالهم منه

ونظر الى الساعة ، فاذا هى كادت تبلغ نصف الليل ، فهرول مسرعا الى المحطة خوفا من أن يفوته القطار .. فأدركه قبل قيامه بقليل فركبه ، وبعد أن تحرك القطار .. عاد الى أمر تلك الورقة ، فأخرجها وأخذ يتأملها ويكرر تلاوتها ، كأنما هو يحل رموزا أو يكشف معميات .. ولم يزده ذلك التأمل الا ارتباكا .. لأنه لم يستطع أن يحدّد فتاة ممن يزورهن ، اذ انه كان يتردد على بيوت كثيرة فى القاهرة ويشاهد فتيات كثيرات ، ولم يكن يخطر له أمر الحب مطلقا ، ولذلك لم يكن ينتبه لحركات احداهن لخلو ذهنه من ذلك ، ولكنه برغم ذلك أخذ يردد فى ذاكرته الفتيات اللاتى كان يزورهن كثيرا .. فاتجه تفكيره نحو واحدة منهن ، وتذكر انه كان يُسر لمشاهدتها للطفها ورقة جانبها ، ولكنه عاد فحمل ذلك منها محمل اللطف العادى المعهود فى المهذبات منهن .. وكانت تلك من أكثر الفتيات رقة وتهذيبا ، ولم يلحظ منها مطلقا أنها ممن يملن الى المغازلة بل كان يراها بالعكس من ذلك ، اذ لم تكن تتكلم الا بهدوء وسكينة ، وهى تحذر كل ما يشتم منه رائحة الطيش ، فاستعظم أن يكون ذلك الكتاب منها

وقضى معظم الطريق فى مثل هذه الهواجس ، حتى وصل القطار محطة حلوان .. فوضع الكتاب فى جيبه ونزل قاصدا منزله ، فاذا بوالدته لا تزال فى انتظاره وقد استبطأته . فلما قرع جرس الباب نادته باسمه فأجابها .. ففتحت الباب واستقبلته ،

فدخل مسلما فسألته عن سبب تأخيره ، فاعتذر محتجا بزينة حديقة الأزبكية ، وسأل عن أخته ، فقالت له : انها فى الفراش منذ برهة وجيزة لأن عائلة الخواجة سعيد جاءوا لزيارتهم فى ذلك النهار ، وعادوا فى القطار الأخير الى القاهرة ..

فلما سمع اسم تلك العائلة ، أحس بخفقان فى قلبه ، لم يعهده من قبل .. فقال : « ومتى جاءوا ؟ »

قالت : « جاءوا قبل الغروب فتناولوا العشاء عندنا ، وسألوا عنك وقد تركونا فى موعد قيام القطار الأخير ، واتفقنا على أن نذهب معا يوم الجمعة القادم الى أهرام الجيزة .. على أن تذهب شقيقتك شفيقة معنا لأن (المدموازيل) ادما ذاهبة أيضا ، وانت تعلم مقدار حبها لشفيقة وحب شفيقة لها »

فحالما طرق أذنه اسم ادما خفق قلبه كثيرا ، وحدثته نفسه انها هى لا سواها التى بعثت اليه بذلك الكتاب ، وهى التى كانت تتردد على ذهنه فى القطار .. فاعتزم أن يحتفظ بالأمر سرا ، ريثما تنكشف له الحقيقة .. وشعر من تلك الساعة بميل نحو تلك الفتاة ، وصار يتمنى أن تكون هى التى أرسلته .. لا سواها ، وبعد أن استراح قليلا .. ذهب الى فراشه ، وكذلك ذهبت والدته ..

أما هو فلم يستطع النوم لشدة هواجسه .. فبعد أن تقلب على الفراش مدة ولم ينم ، ذهب الى خزانة كتبه وأخرج منها كتابا وعاد الى فراشه ، فأحسَّت شقيقته بمروره فى غرفتها فسألته عن

سبب نهوضه من الفراش فقال : « جئت أبحث عن رواية أطالع فيها ريثما أنام » ..

قال ذلك ودخل الى سريره ، والشمعة مضيئة على مائدة الى جانب السرير ، وأخذ يقرأ فى الكتاب .. ولكن عواطفه كانت لا تسمح له بالتقدم فى القصة كما يشاء .. فكان كلما فرغ من صفحة عاد اليها ، وأعاد النظر فيها

وقضى معظم ذلك الليل بين قراءة وتفكير ، حتى كاد يطلع الفجر .. واذا بوالدته دخلت غرفته ، وقد عجبت لسهره الى تلك الساعة . فلما أحس بها داخلة عليه ، أخفى الورقة فى الكتاب وأغلقه .. فسألته عن سبب سهره ، فقال لها : « انه مسرور من مطالعة تلك الرواية ، ولم يشأ أن ينام قبل أن يتمها فصدقته .. أما هو فأخذ الكتاب فوضعه فى الخزانة وأقفلها وعاد الى فراشه وقد أنهكه السهر والتعب ، فنام حتى حانت ساعة الخروج الى عمله فأيقظوه ، فنهض ، وشرب فنجانا من الشاى ، وسار الى عمله ..

أما سليم فقد تركناه عائدا فى المركبة وعيناه تذرفان الدموع ، وقد أخذ منه التردد كل مأخذ ، كما سمعناه وهو يناجى نفسه على شاطىء النيل حيث ذهب يشكو لوعة الغرام ، وهو يحسب أنه فعل ذلك لكتمان أمره عن كل انسان .. شأن المحبين فى حبهم ..

على أنه كان يشعر أن كتمانه ذلك الحب مضر بصحته وعقله ،

ويود من صميم قلبه أن يصادف صديقا ، يبث اليه شكواه تخفيفا للوعته تمثلا بقول الشاعر :

ولابد من شكوى الى ذى مروءة   يواسيك أو يؤسيك أو يتوجع

وكان يثق بصديقه حبيب كل الثقة .. ولكن قلبه لم يسمح له بمفاتحته بالأمر من تلقاء نفسه .. على أن حبيبا لو استطلعه حاله ، وألح عليه .. ما كتم عنه شيئا لعظيم ثقته به ..

ولكن حبيبا كان من الرقة وحسن الذوق على جانب عظيم ، وكان برغم معرفته حال صديقه ، وقراءته ذلك على صفحات وجهه ، لا يخاطبه بشأنه ولا يسأله عنه ، خوفا من أن يحسب ذلك منه تطفلا أو فضولا .. فكان يفضل التجاهل عن أمر صديقه ، اطلاقا لعنان عواطفه ..

وكان سليم مقيما فى غرفة مفروشة بأحد « البنسيونات » فقد كان وحيدا فى القاهرة .. ولم يأتها الا منذ بضع سنين ليمارس بها مهنته.. وهى المحاماة.. ولم يكن واثقا من نجاحه فيها ، ولذلك فانه لم يأت بوالدته معه ، بل تركها مقيمة فى بيت أخيه المتزوج فى مدينة الاسكندرية .. وهو يعتزم على أن يستقدمها متى استقر به المقام بالقاهرة ، فيقيمان معا ..

واتفق له بعد أن حضر الى القاهرة ببضعة أشهر ، أنه تردد على بيت أحد معارفه من أبناء وطنه .. وهو والد سلمى ، وعرف هذه الفتاة وتعلق قلبه بها ، وسبق منه القول بالعقد عليها لما آنس فيها من الأدب والتهذيب والكمال ، ولم يخبر والدته الا بعد

ذلك بقليل ، فأجابته بعدم رضائها عن ذلك .. وشددت عليه النكير ، وراجعها فى الأمر مرارا ، فلم تزدد الا نفورا .. حتى بعثت اليه بالكتاب الأخير تعنفه وتوبخه وتذكره بواجبه نحوها ، وانها تحسب اصراره على مراده عقوقا بها . ومما قالته انه اذا أصرَّ على عزمه فقد قتل والدته ، لأنها ان لم تمت كمدا .. أماتت نفسها عمدا .. وبالغت فى توبيخه وتبكيته ..

أما هو فكان شديد التعلق بالفتاة ، كلفا بخصالها .. ولم يكن يريد من ناحية أخرى أن يخالف والدته ، فوقع فى حيرة كادت توقعه فى وهدة اليأس ، حتى فعل ما فعله تلك الليلة على ضفاف النيل كما قدمنا ..

فلما عاد الى غرفته ، أضاء الشمعة ، وبدل ثيابه ، وجلس الى منضدة ، وأخرج كتاب والدته ليعيد قراءته ، فلما نظر اليه عاد فطواه وأرجعه الى جيبه خوفا من اثارة عواطفه ، وأشعل سيجارة وأخذ يدخن ويتأمل ما هو فيه من الارتباك مع اضطراره لكتمان ذلك عن جميع معارفه ، ولاسيما عن خطيبته ، لعلمه انها اذا سمعت بشىء منه تتكدر كثيرا ، وربما آل بها الأمر الى ما لا تحمد عقباه ..

***

وبات تلك الليلة فيما تقدم من بلبلة الفكر .. وفى الصباح التالى نهض الى عمله كالعادة حتى كان العصر ، فركب عربة وسار الى سلمى كجارى عادته كى يتمتع برؤيتها وحديثها .. لأنه

كان يرتاح الى مجالستها ، وينسى كل أتعابه ومشاغله بمشاهدتها ..
فوقفت به المركبة أمام البيت .. أما سلمى ، فحالما جاء ميعاد حضوره ، وسمعت صوت العربة اختلج قلبها فى صدرها ، وتهيأت لاستقباله ، وقلبها يفيض سرورا ووجهها يشرق ابتساما .. فلما دخل سلم على أهل البيت وقد أبرقت أسرته ، ثم مد يده الى سلمى وسلما وقلباهما يخفقان ، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث ، وكل منهما لا يرفع نظره من وجه الآخر ، وأهل البيت فرحون بائتلاف قلبى الخطيبين ، مع ما جمعه الله فيهما من صفات الكمال ..
فقالت سلمى : « أرجو أن تكون قد سررت أمس بمشاهدة الزينة فى الأزبكية ؟ » قال : « سررت كثيرا ، ولكن سرورى لم يتم ياعزيزتى لأنى كنت أود أن تكونى معى وتشاهدى تلك المناظر البديعة »

***

قالت : « ولكننى سررت لعلمى أن وجودك هناك مما يشرح صدرك .. وما يسُرك يَسُرنى »
قال : « بورك فيك يا عزيزتى .. وقد كنت مسرورا بيقينى أنك سالمة تتمتعين بثوب العافية مع سائر العائلة ، وكم كنت أود أن لا يكون عليك بأس من الذهاب معى حتى كنت أزداد سرورا ، ولكن تقليدنا دون ما أريد »
قالت : « وماذا تعنى بذلك ؟ »
قال : « أعنى أن الناس فى الخارج لا يعلمون بما تم بيننا من

الروابط الآن .. فربما أدى ذلك الى شك الناس فينا ، مما لا أرضاه لك ، وان رضيته لنفسى »

فخجلت الفتاة وسكتت ، لعلمها أنه أشار الى أن خطبتهما لا تزال خفية على الناس .. فعلت الحمرة وجنتيها ، وأطرقت بتينك العينين السوداوين الى الأرض حياء

فتبسم سليم ، واستحسن ذلك منها ، وازداد اعجابا بها .. وحول خطابه الى والدتها قائلا : « أليس الأمر كذلك ياسيدتى؟»

فقالت الوالدة : « انك معدن اللطف والكمال ياعزيزى ، ولا شك فى أن الحذر أولى »

قال : « هذا هو اعتقادى ، ولكننى أود أن نذهب للتنزه معا الى مكان خارج المدينة ، حيث نأمن من أعين الرقباء ، وتكونين والسيد العم معنا ، فنقضى نهارنا معا ، لأن هذه الأيام جميلة فى مصر » ..

قالت : « لك الأمر والخيار ، فنحن لانتأخر عما تريده اذا كان فيه سرورك »

قال : « ان سرورى حيثما تسر عزيزتى سلمى » وحوّل نظره اليها باسما مستفهما

فقالت : « كما تشاء ياعزيزى ، وأنت تعلم الذى يسرنى »

قال : « سنحدد المكان والزمان فى فرصة أخرى »

ثم أخذوا فى الحديث فى شئون مختلفة .. وبينما هم فى ذلك ، سمعوا طرق جرس الباب ، واذا بحبيب داخل .. فقاموا له

ورحبوا به ، فسلم على الجميع ، وجلس يشاركهم الحديث ، فسألوه عن والدته وشقيقته فقال : « انهما بخير تهديانكم أزكى السلام ، وكان فى نيتهما الحضور الى القاهرة ، فأرجأنا ذلك الى يوم الجمعة المقبل حيث تأتيان لقضاء بعض الوقت ، وتزوران منزل الخواجة سعيد ، لأننا قد تواعدنا على الذهاب معا الى الأهرام .. وياحبذا لو شاركتمونا فى هذه الرحلة » ..

فقال سليم : « قد كنا الآن نفكر فى ذلك .. ولكننا لم نحدد المكان والزمان .. فاذا كان السيد العم والسيدة (وأشار الى زوجة عمه) يوافقاننى على ذلك ، نذهب معا الى الأهرام لأن السرور يزداد بوجودكم »

فاستحسن الجميع ذلك الرأى ، وتم الاتفاق على الذهاب الى الأهرام صباح يوم الجمعة ..

***

قلنا ان خطبة سلمى وسليم كانت سرية ، لأنه لم يكن يود عقدها رسميا الا بعد موافقة والدته .. أما حبيب ، فكان هو وحده الذى يعلم بتلك الخطبة من صديقه سليم ، وقد شاءت الظروف أن يعرف حقيقة حاله عند ضفة النيل ، وكان فى شغل شاغل عليه .. ولذلك أسرع بعد خروجه من الديوان الى غرفته ليرى ماذا تم له .. فلم يجده هناك ، وعلم انه ذهب الى بيت خطيبته فجاء الى هناك ، وكان يتوقع أن يرى على وجه صديقه شيئا من علامات الاضطراب ، وكان عازما على انه اذا لاحظ عليه

شيئا من ذلك ، استدرجه في الحديث ، وسعى فى تخفيف كربه .. ولكنه شاهده على غير ماكان ينتظر ، وكأنه لم يكن ثمة شيء مما كان بالأمس .. فعجب لتأثير المحبة فى المحبين ، وكيف انها مع ما يخالطها من الاكدار ، تكون أكبر تعزية لهم عن سائر المشاغل ، فخف قلقه على صديقه نوعا ، ولكنه صمم على مفاتحته فى الأمر فى فرصة أخرى ، لعله يستطيع مساعدته فى شيء

وقضوا بقية ذلك اليوم معا ، ولما كان العشاء نهض حبيب معتذرا باضطراره الى ادراك قطار حلوان لئلا يتأخر الى نصف الليل ، فودعهم وخرج وبوده أن يمر ببيت الخواجة سعيد ، ولكنه أجل ذلك الى فرصة أخرى .

أما سليم فبقى فى بيت خطيبته الى ما بعد العشاء ، وكانت تمر الساعات لديه مرور البرق لسعادته وسروره بمجالسة خطيبته ، وكان يأنس بحديثها ، مع اعجابه بكمالها وحسنها .. لأنها كانت من الجمال على جانب عظيم .. وفى نحو الساعة الحادية عشرة ، ودعهم وخرج وهو يود البقاء مع خطيبته .. وقبل خروجه هز بيده يدها وهى تقول : « رعاك الله وشملك بعنايته »

***

ولم يكد سليم يخرج من البيت حتى عادت اليه هواجسه ، وأخذ يفكر فيما هو فيه من الارتباك .. فانقبض وجهه وقلبه ، فوصل المنزل وصعد الى غرفته ففتحها ودخل ، وأشعل الشمعة فرأى على المنضدة بطاقة زيارة .. فقرأها فاذا عليها اسم

داود سليمان ، فلم يعرف الرجل .. فضغط على جرس أمامه ، فحضر خادم الفندق ، فسأله عمن أتى بتلك الورقة ، فقال : « ان أحد السادة أتى لمقابلتك فلم يجدك .. فترك بطاقة زيارة .. على أن يأتى فى صباح الغد لمهمة يريد أن يخاطبك بشأنها..» ثم خرج الخادم وجلس سليم يكتب الى والدته ردا على كتابها ، وهو لايدرى ماذا يكتب ، فكتب سطرين ثم مزق الورقة ، وعاد فكتب سطرين آخرين ، ولم يكن يعرف كيف يعبر عن أفكاره لشدة ارتباكه ، فمزق هذه الورقة أيضا وجلس يفكر ماذا يعمل ، ثم آخذ منه الارتباك مأخذا عظيما .. فترك الكتابة ونهض الى فراشه بعد أن بدّل ثيابه ، وحاول النوم ولكن عينيه لم تذق الكرى.. وما صدق ان طلع الفجر فنهض من الفراش ولبس ثيابه ، وأخذ يشغل نفسه ببعض الأوراق المتعلقة ببعض القضايا .. وبينما هو فى ذلك ، طرق باب الغرفة ودخل الخادم ينبئه بقدوم زائر الأمس ، فأوعز اليه أن يدخله .. فدخل واذا هو شاب طويل القامة قبيح المنظر لفطس أنفه ، وصغر عينيه ، واعوجاج فمه ، وبروز أسنانه .. فحياه ورحب به ، ودعاه فجلس ..

***

ولما استتب به الجلوس ، قال الزائر : « قد حضرت بالأمس لمقابلة سيادتك فلم يسعدنى الحظ ، فجئت الآن أريد مخاطبتك فى أمر سرى لأستشيرك فيه »

قال : « تفضل قل ما بدا لك »

قال : « ولكننى لا أقول ، قبل أن تقسم لى أن تحفظ ما أقوله سرا عن كل بشر »

فتبسم سليم والتفت اليه قائلا : « ان فى طلبك هذا اهانة لى وطعنا فى كرامتى ، اذ لا يخفى على حضرتك أن المحامين مكلفون بحفظ الأسرار ، كما يحفظها رجال الدين فى سر الاعتراف ، ولم أكن أنتظر من جانبك أن تكلفنى بالقسم قط »

فقال داود : « حاشا لله أن أقصد طعنا أو اهانة ، وأنا أعلم صدقك ونزاهتك .. ولولا ذلك ما جئت اليك مستشيرا فى أمر سرى ، ولكن هذا الأمر يتعلق بالاعراض .. ولذلك طلبت اليك القسم اكراما لمن يمس هذا عرضهم »

قال : « لم يسبق لى أن أقسمت لأحد .. ولكننى اكراما لخاطرك ، ولمن أشرت اليهم ، أقسم لك بالذمة والشرف أنى لا أذكر شيئا مما تقوله لى الآن لأحد قط »

فشكره داود على ذلك وقرب كرسيه منه ، وأخذ يقص عليه حكايته ..

— ٥ —

حكاية داود

انى من أصحاب الأملاك المزارعين فى بعض جهات الغربية ، ولكن اقامتى فى القاهرة بشارع شـبرا قرب منزل الخواجة سليمان ..

فلما سمع سليم اسم الشارع ، واسم صاحب ذلك المنزل ، خفق قلبه .. لأن الخواجة سـليمان والد حبيبته سـلمى .. فاصغى الى الرجل

فقال : « وكنت منـذ أربع سنوات أتردد الى بيت جارى المشار اليه ونتبادل الزيارات فيما بيننا كعادة الجيران فى بلادنا ، وكان فى بيت الخواجة سليمان ، ابنة اسمها سلمى »

فازداد خفقان قلب سليم ، وازداد اشتياقا الى معرفة القصة ، وزاد اصغاؤه .. ومال بكليته الى اتمام الحديث

فقال الرجل : « وقد آنست فى تلك الفتاة لطفا وتهذيبا قلَّ مثالهما ، ثم رأيت فيهـا ميلا الىَّ ، وكنت أستأنس بها كثيرا حتى شغفت بها ، ومال قلبى اليها »

فازداد خفقان قلب سليم عند ذلك .. وهبَّت فى جسمه نار الغيرة ، ولكنه أمسك نفسه عن اظهـار عواطفـه ، ليقف على نهاية القصة ..

فقال داود : « فلما رأيتها تحبنى وتظهر لى الميل الشديد تلميحا وتصريحا ، ووالدها يلاطفنى ويكثر من دعوتى الى زيارتهم ، لاح لى أن أخطبها منه .. ولكن بقى هذا الأمر يتردد فى ذهنى زمنا طويلا خوفا من ان يكون فى الأمر دسيسة أو خديعة ، ولكن الحب أعمى بصيرتى .. فصممت على خطبتها . ففاتحت والدها فى الأمر ، فرأيت منه ميلا شديدا الىّ ، حتى قال لى : « ان سلمى عندها أضعاف ذلك الميل » فازددت تعلقا بالفتاة وصرت أكثر من التردد على البيت ، وكنت أحيانا أختلى بالفتاة الساعة والساعتين نتبادل عواطف الحب ، ولم أكن أرى منها الا حبا وهياما ، وطالما قالت لى انها لم تحب أحدا سواى »

فلم يتمالك سليم عند ذلك عن الانتفاض من شدة الاضطراب ، وعلا وجهه الاحمرار ، وأحسّ كأن نارا تتقد فى جسمه غيرة وحنقا .. ولكنه تجلد لسماع آخر الحديث مظهرا الدهشة ..

فقال داود : « ولا أخفى عليك انى وصلت فى حب هذه الفتاة الى درجة ان صورتها كانت لا تفارق ناظرى ليلا أو نهارا .. وظننت نفسى قد بلغت نهاية السعادة بالتعرف عليها »

كل ذلك ولم أعقد عليها رسميا لأن والدها العجوز سامحه الله قال لى : « ان الخطبة لابأس من تأخيرها ، وطلب منى مبلغا من النقود على سبيل (العربون) واعتذر باحتياجه الى نقود لدعوى كانت عليه لا أعلم ماهى ، وربما كانت مثل الدعوى التى أرجو أن أتمكن من رفعها ضده بمساعدة سيادتك ، فنقدته مائة جنيه .

ونظرا لشديد ثقتى به ، لم أكلفه كتابة تعهد أو صك ، لأنى كنت أحسبه أشرف رجل على وجه هذه البسيطة ، وكنت أحسب الفتاة أطهر فتاة رأتها عينى ..

« ولكن بكل أسف ، أقول لسيادتك انى اضطررت بعد ذلك الى العدول عن خطبة ابنته لسبب أخجل من ذكره »

***

فاشتعل سليم غيرة وحنقا ، ولم يتمالك عن النهوض عن الكرسى بغتة لشدة الانفعال .. ولكنه آثر الهدوء خشية الفضيحة ، فتظاهر بالتفتيش عن علبة (السجاير) فتناولها ودفع الى داود (سيجارة) وجلس لسماع بقية الحديث قائلا وشفتاه ترتجفان : « تفضل أكمل الحديث .. »

فتجاهل داود ما لاحظه على وجه سليم .. وقال : « ولكننى أخجل من ذكر سبب عدولى عن الفتاة »

قال سليم : « قل لا تخجل لأنى أقسمت لك بكتمان ذلك وثق انى لا أحنث بقسمى »

فقال : « ماذا أقول لك ؟.. يكفى أن أقول انى دخلت يوما الى منزل صاحبنا بدون أن أقرع الجرس ، ودخلت غرفة الفتاة فوجدتها جالسة الى جانب شاب ـ كنت أظنه صديقى ـ فى صورة تتنافى مع الأدب »

وهنا يعجز القلم عن شرح حالة سليم ، عند سماعه ذلك الأمر عن حبيبته التى يعتقد فيها العفاف والطهر ، وقد تعلق قلبه

بها .. فلم يستطع ايقاف عبراته ، فنهض للحال ، وخرج كمن يريد حاجة .. فأمسك نفسه ومسح دموعه ، وعاد الى كرسيه صامتا مصغيا ، ولكن أفكاره طائشة ، وقلبه يتقد غيرة وحنقا

فتظاهر داود باستعمال منديله يمسح به أنفه وشاربه ، وعاد الى اتمام حديثه قائلا :

ـ لم أتمالك عن الخروج حالا، وقد اتقدت بى نار الغيرة ، ورجعت من حيث أتيت وبقيت مدة لا أزور ذلك البيت قط ، وكنت أفكر دائما فى تلك الفتاة ووالدها ، وأمر المائة جنيه ، وقد كتمت ذلك عن الجميع ..

***

أما الآن ، فلاح لى استشارة محام ماهر ، لعلى أستطيع أن أقاضى سليمان ، وأقيم دعوى أسترجع بها نقودى ، وقد خاطبت الوالد مرارا بشأنها ، فكان تارة يعدنى بالدفع ، وطورا يسألنى عن سبب عدولى عن الفتاة ، وأنا أقدم أعذارا خاصة .. وأخيرا كشفت له حقيقة مايدور فى ذهنى .. ولما لم يكن لديه ما يدفع به عن ابنته ، قال لى : ان ذلك الشاب من أصدقائهم ، وان الفتاة انما فعلت ذلك لسذاجتها وجهلها ، الى غير ذلك .. ولما يئس من اقناعى حملق بعينيه فىّ، وقال ان دعواى باطلة .. وأنكر النقود كلية ، فهل تظن انى اذا رفعت عليه قضية أستطيع أنأكسبها ؟..

فقال سليم ، وقد أمسك عواطفه : « لا يخفى على فطنتك ان الدعاوى المالية لا تقوم الا بالبينة ، فهل عندك بينة أو

شاهد يشهد بذلك ؟ »

فقال : « قلت لك انى دفعت اليه المبلغ سرا ، ولم يكن أحد يعلم بذلك قط .. ولكن الشاب الذى حدثتك عنه الآن ، كان يتردد أحيانا على بيت الرجل .. وهو وحده الذى يعلم بذلك ، ولكننى لا أظنه يقبل اثبات هذه الدعوى ، لأنه كان السبب الأكبر .. بل هو السبب الوحيد لما حدث .. وبناء عليه أقول ان ليس لدىّ بينة البتة »

فاشتغل بال سليم بذلك الشاب ، وأحب معرفة اسمه ، فقال : « ومن هو ذلك الشاب الذى أشرت اليه ؟ »

قال : « هو شاب لا أراه فى القاهرة الآن الا يسيرا واسمه حبيب » ..

***

فاضطرب قلب سليم عند ذكر اسم صديقه ، بعد أن سمع ما قيل عنه وعن سلمى، ولكنه تجاهل أمره ، وأجاب بغير اكتراث قائلا : « انى أعرف هذا الشاب معرفة سطحية .. واذا لم تستطع الحصول على شهادته ، فلن تستفيد شيئا من رفع دعواك »

قال : « أما شهادته ، فأنا واثق من تعذر الحصول عليها .. لأنى أعلم يقينا انى اذا خاطبته بشأنها ينكرنى ، وربما قال : انه لم يرنى قط ولا عرف شيئا عنى ، فبناء عليه أرى من الخير أن ألوذ بالصمت وأن أقنع بما قسم الله لى .. وحسبى انى تخلصت من الفخ الذى كان منصوبا لى ، وأشكر الله انى عرفت

ذلك عن الفتاة قبل العقد عليها ، ولو كان ذلك بعد الاقتران لكانت المصيبة مضاعفة ..

« والآن أتوسل اليك أن تتذكر قسمك وواجبات مهنتك ، وتكتم حديثنا هذا عن كل انسان كما وعدت ، وتحسب انى لم أقابلك الآن ولا خاطبتك بشىء قط »

ثم نهض مودعا وقال : « أشكرك على مشورتك » وأراد أن ينقده أجر الاستشارة ، فلم يقبل .. فخرج شاكرا ، وقد ترك سليما فى غاية الاضطراب والقلق

- ٦ -

الشك

ولمـا خرج الرجل ، أغلق سليم الباب وجلس الى مكتبه .. وقد أخذ منه الغيظ كل مأخذ ، وأخذ يناجى نفسه قائلا :

ـ الله الله .. هذه حقيقتك يا سلمى ، أين عفافك وانفتك ، بل أين تهذيبك وأدبك ؟.. أفى يقظة أنا أم فى حلم ؟.. لا .. لا .. لا أصدق ذلك عنك . ولكن كيف سمعته بكل تفاصيله ، وكيف أتهم هذا القائل بالافتراء ، وما الذى يحمله على الكذب ، وما غرضه من الايقاع فيما بيننا وهو لا يعرف عنى شيئا ، وانما قادته المصادفات الى ما قصه علىَّ .. وما أعجب هذا الاتفاق الذى كشف لى أمورا كنت أجهلها ..

ثم سكت برهة لايدرى بماذا يفسر تلك القصة .. ثم هب عن كرسيه بغتة وقد اتقدت الغيرة فى بدنه كالجمر ، وقال : « ما اكثر عتبى عليك ياحبيب .. آه من قلب الانسان ما أفسده ؟ !.. أأنت تحب سلمى وهى تحبك ، وتظهر أمامى بمظهر الصديق المخلص ؟.. آه من هذا الزمان .. الآن عرفت صـدق حديث والدتى ، انها والله أحكم منى رأيا وأوسع اختبارا » . قال ذلك وأخرج الكتاب من جيبه ، وأخذ يقرأه حتى وصل الى قولها فيه :

« لا يخدعك ياولدى مظهر الفتيات ، فانهن أقدر البشر على المداهنة والكذب والخداع .. فقد يظهرن العفاف وهن بعيدات

عنه ، ويدعين الاخلاص وهن أروغ من الثعلب .. وفضلا عن ذلك ، فان الفتاة التى تعلقت بها ليست ممن يليق بك الزواج بها ، وقد سمعنا عنها ممن عرفوها هنا ، انها قد نصبت مثل هذه الشراك لسواك .. ويكفينى التلميح عن التصريح »

***

فلما قرأ هذه العبارة ، أثرت فى نفسه تأثيرا عميقا ، وجعل يلعن الساعة التى عرف فيها ذلك البيت ، لأنه لم يعد يعرف الراحة منذ عرفه ، وحدثته نفسه ان يتخلى عن سلمى قبل عقد الخطبة ، ولما لاح له ذلك ثارت نار الحب فى قلبه كأنها تكذب ما بلغه فقال : « لا لا يا سلمى انت والله حبيبتى ومنتهى أملى ، وقد وهبتك هذا القلب وملكتك نفسى حتى استوليت على كل عواطفى ، ولم ألق منك منذ عرفتك الا مثل ما فىَّ .. فلا .. لا .. لن أنثنى عن حبك ، ولا أظن بك سوءا .. ولكن ما هذه الحكاية التى سمعتها الآن .. ألعلها محض اختلاق .. وقد وصلتنى بطريق الصدفة ، ولو كان بينى وبين راويها سابق علاقة أو معرفة لاتهمته بالافتراء والكذب ، وقلت عنه انه واش يريد تحطيم مابيننا من روابط المحبة .. أتحبين حبيبا مثل هذه المحبة ، وتقولين انك تحبينه من أجل صداقته لى ، تبا لك وله ولكن .. ولكن حبيبا صديقى وقد عرفته منذ نعومة أظفاره ، ولم أر فيه الا اخلاصا وغيرة ولكن .. ولكن النفس أمارة بالسوء ، وعين الحب عمياء ، فلا بد لى من التجلد والصبر ، وملاحظتك ومراقبة خطواتك

وسائر حركاتك ، وحركات ذلك الشاب ، فاذا تحقق لدىّ ما سمعته الآن .. آه آه من الحب ما أمرّه وما أحلاه .. لا .. لا .. بل هو مر علقم ، وقد صدق من قال : « ان سوء الظن من حسن الفطن » فلو لم أفتح قلبى لك وأضع ثقتى فيك ما عميت عن حقيقة حالك ، وحال ذلك الشاب الذى خدعنى بمظاهر صداقته أعواما .. ولكن مهلا ، سوف تريان وأرى ، وكل آت قريب .. »

ثم نهض وهو فى انفعال شديد ، وخرج لايلوى على شىء وذهب فى حال سبيله .. ونظر الى الساعة ، فاذا هى الحادية عشرة ، ففطن لميعاد المرافعة فى مجلس الاستئناف . وكان عليه أن يذهب للمرافعة فى دعوى وكّله فيها أحد عملائه ، ولكنه رأى انه لايستطيع ذلك وهو فيما تقدم من الانفعال ، فسار وهو لايدرى الى أين يذهب فتشتتت أفكاره ، وقادته قدماه الى حديقة الأزبكية .. فدخلها وجلس الى مقعد بازاء البركة ، والحديقة فى ذلك الحين هادئة لخلوها من الناس ، وأخذ يجول بأفكاره فيما سمعه فى صباح ذلك اليوم ، وهو يكاد لا يصدق انه سمعه فى اليقظة لغرابته وبعده عن سابق اعتقاده

فلبث فى حيرة تتقاذفه الهواجس وتتلاعب به الظنون : تارة ينقم على سلمى وسوء طويتها ، وطورا يكذب ما سمعه عنها ويجلها عن مثل تلك الدناءة

فلنتركه فى تلك الحال ، ولنعد الى حبيب .. فانه عاد بالأمس الى حلوان وهو يفكر فى ذلك الكتاب ، ويردد فى ذاكرته سوابق

زياراته لبيت الخواجة سعيد ، وما كان يلحظه على ادما من الحركات والاشارات ، حتى كادت تنجلى له الحقيقة .. وترجح لديه انها هى التى بعثت اليه بذلك الكتاب ، واعتزم ان يستطلع ذلك ويتحقق منه أثناء رحلة الأهرام

ولكنه عاد فتذكر ان بين ادما وسلمى صداقة ومحبة شديدة ، ولاح له انه اذا أراد أن يعرف الحقيقة لم يفده أحد أكثر من سلمى ، لأنها تعرف خطها .. وربما كانت قد كاشفتها بشىء من ذلك لما بينهما من الصداقة ، ولما يميل اليه المحب من شكوى الغرام الى أصدقائه بالرغم من رغبته القوية فى كتمانه

فبات تلك الليلة قلقا وهو يفكر فى ذلك ، ولم يذق طعم النوم وهو يتردد بين ان يحمل نفسه على الصبر حتى يحين موعد اللقاء فى الأهرام ويستطلع الأمر بنفسه ، أو أن يستطلع سلمى عن خط ادما ، ولكنه عاد فتذكر ان فى ذلك من المحظورات ما لا تحمد عقباه ، خوفا من افشـاء ما بالغت ادما فى اخفائه ، حتى عن حبيبها ، ولكن القلق دفعه الى المخاطرة فى الأمر ، فاعتزم ان يذهب فى الغد الى بيت الخواجة سليمان فى الوقت الذى لا يكون فيه سليم هناك أو أحد غيره .. وكان لكثرة تردده على ذلك البيت ، ولما بينه وبين أهله من علاقات المودة الخالصة ، لا يستنكفون من زيارته فى أية ساعة فاعتزم ان يتجاذب اطراف الحديث هو وسلمى على انفراد ، اذا أمكن ، ويستطلعها شيئا مما يتعلق بادما .. ولو تلميحا يساعده فى تحقيق ظنه



« فبات تلك الليلة قلقا يفكر فى ذلك ، ولم يذق طعم النوم ، وهو يتردد بين ان يحمل نفسه على الصبر حتى يحين موعد اللقاء او يستطلع سلمى عن خط أدهم »

- ٧ -

حبيب وسلمى

فبكر فى الغد الى عمله كالمعتاد ، ولكنه استأذن رئيسه فى الانصراف من الديوان فى الساعة الحادية عشرة ، وسار توا الى بيت سلمى ، فدخل المنزل واذا بوالد الفتـاة غائب فى مهمة ، وليس فى المنزل سواها ووالدتها .. فرحبّا به واستغربا مجيئه فى تلك الساعة .. غير ان الليـاقة لم تسمح لهما باظهـار ذلك الاستغراب ، فصاحباه الى قاعة الاستقبال ، وسلمى فى ثياب المنزل ، ولم تستنكف من مقابلته لما بينه وبينهم من الدالة ..

فجلس حبيب ، وقد أحس بدهشتهما لمجيئه ، فاستدرك ذلك بقوله : « انه جاء لمقابلة الخواجة سعيد والاتفاق معه على ساعة الذهاب الى الأهرام ، واعداد ما يحتاجون اليه من دواعى تلك الرحلة ، فلم يجده فى البيت فجاء لقضاء بعض الوقت عندهم ، والتكلم بشأنه مع الخواجة سليمان » فاقتنعتا بذلك العذر ، وجلستا اليه فى قاعة الاستقبال .. يتـداولون فى أمر الأهرام والذهاب اليه ..

ثم تركت الوالدة القاعة معتذرة لزائرها بأن الطعام على الموقد، وانها لا تثق بالطباخ فى اعداده .. فقبل عذرها وقد سر لمغادرتها الغرفة . فلما خرجت ، عاد هو الى الحديث مع سلمى بشأن زيارة

الأهرام ، وهو يتوقع أن ينتقل بذلك الى الحديث عن ادما ، فقال :

ـ انى انتظر صبـاح الغد بفارغ الصبر ، حتى نذهب فى موعدنا هذا لأنى أحب الذهاب الى تلك الجهة لطيب هوائها ، وحسن موقعها .. وأسرُّ بنوع خاص من أجل شقيقتى شفيقة لأنها أكثر منى تشوقا له ، ولا سيما حين علمت بذهابك معنا ، لأنها كانت تظن ان عائلة الخواجة سعيد هى التى ستذهب فقط ، وكانت مع ذلك مسرورة لأنها تحب مرافقة الست ادما كثيرا ..

فقالت سلمى : « ان (المدموازيل) شفيقة خليقة بكل خير ، ونحن جميعا نحبها ونقدرها للطفها وتعقلها .. ولكنى ألاحظ من (المدموازيل) ادما انعطافا زائدا نحوها ، واذا اجتمعت بها ساعة لا تكف عن ذكرها وامتداحها »

قال : « وأنا ألاحظ مثل هذا الانعطاف من شقيقتى نحو (المدموازيل) ادما ، وكم ذكرتها بالمدح والثناء والاعجاب بحسن خصالها »

فقالت : « والحقيقة ان هذه الفتاة جديرة بكل ثناء ، لأنها من أحسن الفتيات تهذيبا وأدبا ولطفا .. وهى الى ذلك على جانب عظيم من العلم والمعرفة »

فقال حبيب ، وقد خفق قلبه رغما عنه وعلا وجهه الاحمرار : « وأين تعلمت كل هذه العلوم ؟ »

قالت : « فى مدارس بيروت ، وقد تعلمت فن التصـوير

وأتقنت الخط »

قال : « لا أعتقد انها تجيد الخط لأنى — وأرجو ألا تؤاخذينى — لا أظن ان النساء يمكن أن يتقنّ الخط »

قالت : « ولكن خط الآنسة ادما جميل ، واذا شئت فانى أطلعك على كتاب منها وصلنى منذ بضع سنين »

قال وقد استبشر بالفوز : « ولكن أخشى أن يثقل ذلك عليك ؟ .. »

فنهضت وهى تقول : « لا اثقال علىّ فى ذلك » وسارت الى غرفتها وجاءته بورقة ، فدنا منها وهما جالسان ليشاهد الخط ، وهى تنظر الى الورقة وتضحك لما فيها من عبارات ساذجة قائلة : « أخشى أن تضحك من عقولنا الصغيرة ولا سيما ونحن فى المدرسة » فقال : « العفو ياسيدتى » والاحمرار يزداد فى وجهه

وفيما هما فى ذلك ، اذا بسليم يدخل القاعة فجأة .. فبغتا وظهرت ملامح الخجل على وجهيهما ، مع علمهما انهما لم يكونا فى حالة توجب الخجل ، ولكنهما بغتا لأنهما لم يتوقعا مجيئه فى تلك الساعة ..

وسبب مجىء سليم ، انه حين ملّ الجلوس فى الحديقة ، وهو فيما تقدم من الارتباك .. حدثته نفسه أن يسير الى خطيبته فى تلك الساعة على غير المعتاد ، لعله يستطلع شيئا مما سمعه عنها ، فدخل البيت دون أن يقرع الجرس .. فاتفق أن بلغ القاعة وهما فى تلك الحال ، وسلمى فى ثياب البيت جالسة بجانب حبيب ،

ووجهاهما متقاربان ينظران الى تلك الورقة ، ويضحكان .. وكان حبيب منفعلا من حديث سلمى عن ادما ، ثم ظهرت على وجهيهما البغتة .. فكان ذلك موجبا لتحقق سليم مما سمعه ذلك اليوم

ولا حاجة بنا الى شرح عواطفه عند مشاهدته حبيبته فى تلك الحال بعد ما بلغه عنها من مثـــل ذلك ، فازداد وجهه انقباضا وحدثته نفسه أن يوبخهما .. ولكنه أمسك نفسه وتجلد ، اما خجلا واما تعقلا ، ولكنه لم يستطع اخفاء عواطفه

أما سلمى فنظرا لبراءتها لم يخامرها شك فى ثقة حبيبها بها ، فلما دخل الغرفة تقدمت اليه مسلمة ومدت يدها ، فمد هو يده ، فلما أمسكت بها شعرت بارتعاشها وبرودتها ، فقد كانت باردة كالثلج ، وأخفت الورقة خوفا من رغبته فى اســتطلاع سبب وجودها معها ، وذلك ربما يغضب حبيبا . أما حبيب فانه حيا صديقه ببشاشة .. فلم يلق منه الا اعراضا متسترا تحت تقاليد التحية .. على انه جلس ، وجلس الجميع ، وسليم مقطب الوجه ممتقع اللون ..

فأدركت سلمى ان اخفــاء تلك الورقة ربما أوجب الشك ، فأخرجتها من جيبها ضاحكة ، ووجهت حديثها الى سليم قائلة :

ــ تضحكنى ذكرى أيام المدرســة ، يوم كنا نكتب الكتب الى والدينا وأصدقائنا ، مثل هــذا الكتاب الذى كنت أطلع الخواجة حبيب عليه الآن .. فانه من صديقتى الآنسة ادما ، كتبته الىَّ منذ بضع سنين ، يوم كانت فى المدرسة فى بيروت ، وكان

الخواجة حبيب قد سألنى عن خط هذه السيدة ، ولم يصدق انه جميل .. فأخرجته لأطلعه عليه ليرى الخط ..

قالت ذلك ودفعت الورقة الى سليم لكى يراها ، فمد يده وتناول الورقة .. ولم يكد ينظر اليها ، حتى أعادها اليها ببرود ، وهو يضحك ضحكة مغتصبة

فخجلت سلمى لهذه المعاملة المهينة ، ولكنها كظمت غيظها وسألت سليما عن سبب اضطرابه ..

فقال : « انى متكدر من بعض الأمور الشخصية المتعلقة بالعمل » ..

فقالت : « أرجو أن لايكون فى ذلك ضرر عليك ياعزيزى ؟»

فأجابها وهو ينظر الى نافذة القاعة قائلا : « لا .. أرجو أن لايكون فيه ضرر » . قال ذلك وهو يتردد بين عوامل الغيرة والحمق ، ويهم أن يظهر غضبه .. ثم يمسكه بالتعقل ويكبت ما فى نفسه ..

فقال له حبيب ، وقد جاء بكرسيه الى جانبه : « لا أراك الله سوءا ياعزيزى ، مابالك منقبض النفس ؟.. بالله الا خففت عن نفسك ، وتركت الأقدار تجرى فى أعنتها .. » أراد بذلك أن يقلل من حدة غيظه ، ظنا منه ان سبب انقباضه خطابات.. وردت اليه من والدته .. بناء على ما علمه من أمره أول أمس على شاطىء النيل

فأراد سليم أن يجيبه منتهرا ، ويوبخه .. ثم تذكر مابينهما من الصداقة القديمة ، وما للفتاة فى قلبه من المحبة ، وما يتجلى فى

وجهها من ملامح الوقار والهيبة والتعقل ، وغلبت عليه طويته فأمسك نفسه ، وأجاب حبيبا قائلا : « انى متكدر من أمر عرض لى ، يتعلق بعملى .. وليس فيه مايوجب الخوف أو اليأس .. » غير ان جوابه هذا ، بالرغم مما حاوله من التلطف ، صدر منه وهو ينم على الاحتقار والازدراء

فرأت سلمى ان من واجبها أن تحاول تعزية حبيبها على مصائبه .. فدنت منه ، وأمسكت يده بيد كادت تذوب لطفا .. ونظرت اليه بعينيها الجميلتين مبتسمة وقالت : « روحى فداك ياعزيزى .. لايغضبك أمر ولا تجعل للكدر بابا للتمكن منك فانك فطن وتعلم ان الأعمال فى هذه الدنيا تحتاج الى التبصر والصبر ، ولا تستعجل خوفا من الندم .. ولا يخفى عليك ان الكدر يضعف الجسم »

فوقعت هذه الكلمات فى أذن سليم موقعا حسنا ، وشعر بأنها ألقت عن ظهره حملا ثقيلا من التردد والغيرة ، لأنه كان يحتاج وهو فى تلك الحال من التردد الى هذه العبارة التى ساعدته فى تخفيف غيظه ، وحملته على الصبر فى حكمه على حبيبته وصديقه . ولما أمسكت يده شعر بتيار كهربائى بارد تخلل أعضاءه ، فأخمد جانبا كبيرا مما كان متقدا فيها من نيران الانتقام والغيظ ، فغلبت عليه الحكمة وتسلط فيه العقل .. فاعتزم أن يخفى ما به ، وأن يتريث حتى يتحقق من الأمر مرة ثانية وثالثة.. لأن ما شاهده لم يكن مما يوحى بالشك ، غير ان العواطف سريعة

التأثر ، لا تصبر على العقل ريثما يتروى ، فتحمله على الانتقام من البرىء لسرعة حكمها

فنظر اليها مظهرا البشاشة وقال : « مهما كنت مثقلا بالهموم فانى أنساها عند مشاهدتك ومشاهدة الصديق حبيب ، ولكنى كما قلت مرة لصديقى هذا ، اذا تكدرت من أمر فانه يصعب علىّ نسيانه بسرعة ، فمعذرة على ما ظهر لكما منى الآن من الجمود .. فان ذلك كان عن غير قصد منى ، وسببه ما ذكرت »

فقال حبيب : « فليبتهج قلبك ياعزيزى ، ولا تحزن .. لقد اتفقنا على الذهاب الى الأهرام غدا صباحا .. وقد جئت الآن لكى نحدد موعدا نسير فيه معا . وقد تم الاتفاق على صباح الغد الساعة السابعة ، وسنرى ما نحتاج اليه من العربات ومعدات الطعام ، وأقول للخادم كى يعد كل شىء »

ثم جاءت والدة سلمى ، وسلمت على سليم وحبيب ، وهى ترحب بصهرها .. ولما رأتهما فى حديث الأهرام والخادم قالت : « قبح الله الخدم فانه لايمكن الاعتماد عليهم .. ولابد لربة البيت من الاشراف على كل صغيرة وكبيرة فى سائر أعمال البيت .. »

فقالت سلمى : « هذا حق ياوالدتى .. ولكن خادمتنا سعيدة ماهرة ، ولا شك انها تنفعنا فى بعض الأشياء » ..

فقالت الوالدة : « لابأس من أخذها معنا »

وفيما هم فى الحديث ، جاء صاحب المنزل ، فجلسوا قليلا ، يتحادثون ، وأراد حبيب الانصراف فدعوه للغداء معهم ،

وكذلك سليم .. فأعدت المائدة ، وتناولوا الغداء ، وسليم لايزال مشغول البال بما صادفه فى ذلك اليوم .. وقد اعتزم أن يراقب حركات سلمى حتى يتحقق مما سمعه عنها .. وعند ذلك يتخذ قرارا فيما يفعل ..

وبعد الغداء وشرب القهوة ، استأذن الاثنان وخرجا ، وكل منهما فى شاغل عظيم

أما حبيب فانه رأى بين خط الكتاب الذى بيده وخط ادما شبها كبيرا جدا ، بحيث كاد يتحقق بأن كاتب الاثنين واحد ، ولكنه صبر الى الغد حين يتقابلان فى الأهرام ، ويستطلع أمرها بنفسه . وما زال سائرا حتى وصل الى حلوان فأخبر والدته وشقيقته عن موعد الذهاب

أما سليم فسار الى غرفته ومنها الى الحديقة .. وقد قضى فيها بقية ذلك اليوم .. وعاد فى المساء الى الغرفة ، ولما دخلها وجلس الى المنضدة تذكر ماسمعه عليها فى صباح ذلك اليوم ، فهاجت هواجسه وعادت اليه انفعالاته ، فأخذت تتقاذفه الأوهام فى تيار من التردد .. فتذكر والدته ، فأراد أن يخرج كتابها من جيبه ، ثم أمسك عن ذلك تجنبا لاثارة هواجسه ، فجلس برهة يدخن سيجارة .. ثم أحس بالتعب ، فذهب الى فراشه ..

وفيما هو راقد ، تذكر انه لم يعرف مكان داود حتى يجتمع به مرة أخرى ، ويستوضحه بعض الأمور .. فأسف على جهله بالعنوان .. واعتزم أن يغتنم أول لقاء به لمعرفة عنوانه ..

- ٨ -

الأهرام

وفى الصباح التالى ، بكر الجميع الى منزل الخواجة سليمان ، وأحضروا أربع عربات ركبوا فيها جميعا ، وساروا قاصدين الأهرام ، وقد أعدوا كل ما يحتاجون اليه من لوازم النزهة ..

فسارت بهم العربات ، الواحدة وراء الأخرى ، حتى دخلوا الجزيرة وكلهم فرحون بذلك الاجتماع ، ولا سيما حبيب لأنه كان ينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر .. أما سليم فكان فى العربة مع سلمى ووالديها ، وكل يسترق النظر الى الآخر ويحاذر كشف سريرته ..

وكان ذلك النهار صافى الجو هادئا ، فمرت العربات فى طريق الأهرام المظللة بالأشجار تغرد فوقها الطيور .. والى كل من جانبى ذلك الطريق حقول يانعة تكسوها الأعشاب الخضراء ، وتسرح فيها الماشية من البقر والجاموس ، يسوقها رعاة من الأحداث تكسو أجسادهم خرق بالية ، ولكنهم فرحون بما رزقهم الله من العيش السهل على ضفاف النيل الخصبة المرعى ، الرقيقة النسيم ، وليس فيهم الا من أثارته نسمات الصباح ، فأخذ يغنى مشاركا الطيور فى تغريدها تسبح الاله الخلاق .. والابقار تسرح فى مرعاها غافلة عن شواغل بنى الانسان ، وما

ينفعلون له من مؤثرات ..

مرّت تلك العربات تحمل قلوبا تتقد حبا ، يخامره عند البعض تردد ، وعند البعض الآخر تحسر ، وعنـد الآخرين ارتباك ، والوالدون فى غفلة عما شب فى أفئـدة أولادهم من العواطف التى لا يشعر بها الا الشباب ..

والطبيعة فوق كل ذلك تضحك من ضعف بنى الانسـان ، وتستخف بما يستعظمونه لكثرة ما مرّ بها من الأجيال وما لاقت من الأهوال .. حتى تساوى لديها الكبير والصغير ، والشيخ والطفل ، والحب والبغض ..

ولم تدخل العربات فى ذلك الطريق حتى أطل الراكبون على الأهرام العظيمة من خلال الأشجار ، وهى قائمة كأنها جبـال راسيات ، فتوجهت اليها أفكارهم .. وطارت اليها قلوبهم ، وقد خيل لهم لعظمها انها منهم أقرب من قاب قوسين ، وهى على مسافة ميل أو تزيد ..

وبعد مسيرة ساعة وبعض الساعة ، وقفت العربات ، فنزلوا جميعا وقد ملوا من الجلوس .. ومشوا صعدا يطلبون الأهرام وعيونهم شاخصة اليها ، فظلوا صـامتين برهة من الزمان ، لم ينطق فيها أحد ببنت شفة .. ولما دنوا من الأهرام أشرفوا على تمثال أبى الهول

واذا بجماعات الحراس قد تقاطروا اليهم .. وهم بملابس أهل البادية ، وجعلوا يخاطبونهم بلغة أعجمية أرادوا بها أن تكون

اللغة الانجليزية ، ولكنها كانت مزيجا منهـا ومن الفرنسية ، وما لغتهم الا العربية ، ولكنهم كانوا لكثرة تردد الافرنج الى الأهرام ، يحسبون ان كل من زار ذلك المكان افرنجيا .. ولا سيما حين رأوا السيدات فى الزى الافرنجى

ولما علم الحراس أن القادمين يتكلمون العربية ، تقدم شيخهم وسألهم اذا كانوا يريدون الصعود الى قمة الهرم الكبير .. وهو أول ما يقابله الزائر من الأهرامات الثلاثة ، فتقدم سليم يريد الصعود ، فأوقفه حبيب محذرا اياه ، وهو يقول :

ـ انى لا آمن عليك من الصعود ، فان فى ذلك خطرا كبيرا ألم تسمع بما يحدث أحيانا أثناء صعود الهرم .. وكم من أناس خسروا حياتهم بسبب ذلك

فلما سمعت سلمى ذلك اقشعر جسمها خوفا على حبيبها ، ونظرت اليه وأشارت بملامح وجهها أنها تخاف عليه من الصعود ، فتأثر من تلك النظرة تأثرا شديدا ، ولكنه تذكر حديث ذلك الرجل ، فانقبض قلبه وظهر ذلك على وجهه .. فحوّل نظره عنها مغضيا ، فتقدمت اليه وقد رأت والديها ذاهبـين الى الجانب الآخر من الهرم ينظران الى ارتفاعه ، ومعهما الخواجة سعيد ، والتفتت وراءها ، فاذا بحبيب واقف الى جانب ادما وشفيقة ، يشرح لهما حكاية الهرم وبانيه ، وهما شاخصتان اليه تسمعان ما يقول ..

فعلمت أن أحدا لا يسمعها اذا تكلمت .. فقالت لسليم : « ألا

تخاف من علو هذا الهرم يا سليم ؟ »
قالت ذلك ، وهى ترنو اليه ، وتلاحظ حركاته ..
قال : « لا .. لا أبالى به ، ولو كان ارتفاعه أضعاف ما هو »
قالت : « ولكننى أخاف عليك اذا صعدت عليه »
قال : « ومم تخافين ؟ .. انى لا أخاف شيئا من مثل ذلك »
قالت : « ألا تخافه من أجلى »

فصمت ولم يبد جوابا ، وكأنه يريد أن يتكلم ويمنعه التردد ، فعاودت سؤاله قائلة : « ألعلك لاتخاف علىّ اذا حاولت الصعود عليه .. اذ ربما تزل قدمى فلا أصل الأرض الا جثة بلا روح »

فلما سمع ذلك منها اقشعر جسده وهبت فيه عاطفة الحب ، وتذكر ما كان بينهما من الاخلاص ، وغلبت عليه عواطفه فقال : « نعم أخاف عليك .. نعم أخاف خوفا شديدا ، ولا أخاف عليك من هذا الهرم ولكنى أخاف عليك من هذا النسيم اللطيف .. بل أخاف عليك من عيون البشر فانها أحد من السهام على قلبى»

فعجبت لعبارته الأخيرة اذ لم تر لها محلا ، ولاح لها أنها لا بد قد صدرت نتيجة شىء يكنه فى نفسه ويود اخفاءه عنها ، فظلت برهة تفكر فى ذلك ، ثم قالت متجاهلة ما خالج قلبها :

ــ فاذا كنت تخاف علىّ الى هذا الحد ، فكيف لا تشعر بأنى أخاف عليك أيضا مثل خوفك ؟

فازدادت فيه شواغل الغيرة والحنق ، وطفح قلبه بما يكتمه من الغيظ ، فتشاغل بعصاه ينكت بها الأرض ويداه ترتعشان

ووجهه يزداد انقباضا

فابتدرته قائلة : « مالى أراك لا تجيب على سؤالى كأننى لا أستحق جوابا ؟ » قالت ذلك وهى ترنو اليـــه بعينيها كأنها تقول له : « قل لى ما الذى تكتمه ؟ »

فنظر اليها شزرا ، وقد تبللت عيناه ، وأراد أن يتكلم .. فشرق بدموعه .. فحوّل وجهه الى السهل الرملى المحيط بالهرم اخفاء لما به ..

فلاحظت عليه ذلك ، فتساقطت العبرات على خديها ، وقد امتقع لون وجهها فتداركت ذلك بمسح دموعها بمنـديلها ، وهو لايراها ، ثم التفت اليها بغتة .. وهمّ أن يبوح بما فى قلبه ، فاذا الدموع تترقرق فى عينيها ، ففاضت دموعه . فأطرق الاثنـان لا يتكلمان كأنهما أصيبا بجمود .. وكل منهما يفكر فيما حدث ، ويحاذر أن يراه الآخر ، وقد نسيا موقفهما وما حولهما ..

واذا بصوت ينادى سلمى ، فبغتا كأنهما هبّا من نعاس .. واذا بادما تقول منادية : « سلمى تعالى ياعزيزتى سلمى .. واسمعى ما يقوله السيد حبيب »

فتداركت سلمى نفسها ، ومسحت عينيها بسرعة ، بدون أن يشعر بها أحد ، والتفتت الى صديقتها متظاهرة بخلو الذهن وقالت : « ماذا يقول ياعزيزتى ؟ » وخطت نحوها وهى تمسح عينيها بمنديلها ، متظاهرة بأن ذرات غبار تطايرت اليهما حتى دمعا ، فانطلت تلك الحيلة على ادما ..

ولما اقتربت سلمى منها قالت لها : « يقول السيد حبيب أن هذه الأهرام قد بنيت منذ خمسة آلاف سنة تقريبا »

فقالت سلمى : « قد كنا الآن فى هـذا الحديث ، وقال لى سليم : ان ١٢ ألفا من الناس اشتغلوا فى بنائها » .. ثم نادت سليما قائلة : « أليس كذلك ؟ »

وكان قدمسح عينيه ، وأخفى عواطفه ، ولكنه ودّ لو انهما بقيا على انفراد حتى يصرح لها بما يخامر فؤاده من الغيظ ، ولكنه أطاعها وتقدم الى موقف رفاقه قائلا : « لا تعجبوا لما يقال لكم عن قدم هذه الاهرام ، فان أبا الهول الذى تشاهدون مؤخر رأسه مَنْ هنا أقدم منها كثيرا »

فتعجبت ادما من ذلك القول ، وقالت : « كنت أسمع أن فى هذه الناحية مكانا قديما اسمه المعبد فأين هو ؟ أريد أن أراه »

قال حبيب : « هو الى جانب أبى الهول »

قالت : « ولماذا دعوه بالمعبد .. ألعله معبد حقيقة ؟ »

قال : « انه هيكل من هياكل المصريين القدماء ، وهو يشبه المعابد الكبيرة المعروفة الآن من حيث كبره واتساعه .. »

فأظهرت ميلا لمشاهدة أبى الهول والمعبد ..

فقال لها حبيب : « ألا تتمهلين ريثما نشاهد هذا الهرم أولا ونستريح ، ثم نسير الى المعبد ؟ »

قالت : « أريد مشاهدتها الآن ، فاننى أخشى ان يشتد الحر بعد قليل فلا أستطيع الذهاب اليها الا بمشقة »

— ٩ —

أبو الهول

فدعاهم حبيب أن يسيروا جميعا الى هناك ، فقالت سلمى : « انى أعرف ذلك المكان وقد شاهدته مرة قبل هذه برفقة والدى ، فاذهبوا أنتم » وأرادت سلمى بذلك أن تعود الى الإختلاء بسليم ليتما الحديث ، لأنها أمست قلقة لما شاهدت منه

فقال حبيب : « هلم بنا يا شفيقة نذهب برفقة الآنسة ادما الى المعبد » فوافقت وساروا معا ، وحبيب يود لو أن شقيقته لم ترافقهما لكى يخلو بأدما ، ويستطلع ما فى قلبها .. ولكنه تذكر أن شقيقته ساذجة بسيطة القلب تنطلى عليها الأحاديث بظواهرها ، ولذلك فانه يستطيع أن يعرف ما يريد معرفته بالرموز والأحاجى ..

فسار الثلاثة حتى أطلوا على أبى الهول من ورائه ، فاذا هو تمثال هائل يشبه أسدا رابضا ورأسه رأس انسان ، فداروا حتى وقفوا أمامه .. فجعلت ادما وشفيقه ، تنظران اليه وتتعجبان لكبره وضخامته ..

فقالت شفيقة : « اخبرنى يا أخى عن هذا التمثال الكبير ، لماذا جعلوه فى جسم أسد ورأس انسان »

قال : « لقد جعلوه كذلك يا أختى ، اشارة الى اجتماع القوة

والعقل ، لأن الأسد مثال القوة والانسان مثال التعقل »

فقالت ادما : « ولكن كيف نعرف انهم جعلوه كذلك لهـذه الغاية ؟ » ..

فنظر اليها حبيب ، وقد اعتزم أن يستطلع خفايا قلبها ، فقال لها :

« انهم عرفوا ذلك بقراءة ما كتب عليه .. وهبيأنهم لم يكتبوا شيئا ، فهل تظنين أن شـيئا يخفى على الانسان المتبصر .. ان الطبيعة كلها رموز .. ولكل رمز معنى يفسره العقلاء .. والرجل العاقل يستطيع أن يقرأ النتائج بمجرد النظر الى الحوادث .. فهل يخطرن ببالك ان الانسان العاقل يعصى عليه شئ ؟ »

قال ذلك ونظر الى وجهها ، فاذا هى تتطلع اليه منتظرة اتمام حديثه ، وقد كاد يتجلى الورد فى وجنتيها عند سماعها قوله : « هل يخطرن ببالك » ولكنه أراد تحقيق ظنه فقال :

ــ ولكن هبى أن الانسان لم يتمكن من قراءة الطبيعة بمجرد النظر اليها ، فالكتابة لم تدع سرا مسدولا ولا أمرا مكتوما »

قال هذا ونظر اليها بجانب طرفه ، فاذا بها قد توردت وجنتاها خجلا ، وأطرقت متظاهرة بالتأمل فيما يقول ..

فنظر اليها وقال : « ما رأيك يا آنسة ادما .. أليس صحيحا ما أقول ؟ »

فأجابت وقد أبرقت عيناها بذبول : « ماذا أقول وليس على الا أن أسمع لأنك تتكلم عنى .. »

فأعجبه سرعة فهمها لما يريد أن يشير اليه ، وفهم منها الاقرار بما كتبت بقولها : « انك تتكلم عنى »

ولكنه قال : « كيف تقولين أنى أتكلم عنك وأنا أتكلم عن .. روحى » ثم وجه خطابه الى شقيقته قائلا ، وقد أظهر المزاح : « أليس كذلك يا شفيقة ؟ »

فأجابت شفيقة ببساطة قائلة : « أراك تتكلم عن هذا التمثال » ..

قال : « اذن أتكلم (عنك) ياعزيزتى شفيقة » ..

فأدركت ادما أنه أراد الاشارة الى بساطة شقيقته لأنه جعلها بمنزلة التمثال الذى لا يدرك .. فنظرت ادما الى حبيب بطرف خفى مبتسمة ، وقد أسرع خفقان قلبها ، كأنها تقول له : « قد فهمت مرادك .. »

ثم تحولوا عن التمثال ، وانحدروا درجات قليلة الى المعبد فاذا هو بناء خرب .. ولكن بقاياه تدل على عظمته لأن معظمه مبنى من الحجر المعروف بالجرانيت ، وكلها أحجار كبيرة هائلة

فقالت ادما وهم لا يزالون عند باب الهيكل : « أرى يا موسيو حبيب (وشددت التلفظ بالباء) ان هذا الهيكل متقن الصنعة من الخارج .. فهل هو كذلك من الداخل ؟ »

فأدرك مرادها وأجابها ، وقد هاجت به عواطفه : « ان داخله أكثر اتقانا وأكثر اشراقا من خارجه ، فان الناظر اليه من الخارج يظنه خربا .. ولكن لو دخلت اليه ، لرأيت ما يسرك ، وربما

فضلت البقاء فيه »

فقالت وقلبها يزداد خفقانا : « هل يدخله أناس كثيرون ؟ »

قال : « أؤكد لك انه لم يدخله أحد سواك، ولن يدخله أبدا»

قال ذلك وقد فهم الاثنان أن الضمير راجع الى قلبه هو ، ولكن شقيقته أنكرت عليه ذلك فقالت : « كيف تقول انه لم يدخله أحد قبلها ولا بعدها ، ألعله كان مقفلا وسيقفلونه بعد رجوعنا .. ! » ..

فانتبه لوجود أخته معهما ، وكان لشدة تأثره قد نسيها ، فاستدرك قائلا : « انما اعنى ، فى هذا اليوم ، لأننا أتينا فى ساعة مبكرة ولم يأت أحد بعد .. ويغلب على الظن أن أحدا لن يأتى بعدنا .. وأما والدانا فانهم دخلوه قبلا ، ولا يدخلونه اليوم ، وكذلك الخواجة سليم والآنسة سلمى »

فتحقق كل منهما ما عند الآخر من العواطف المتبادلة ، وكانت ادما أكثر من حبيب سرورا لأنها أحبته قبل أن يحبها ، وكانت تخشى أن ترى منه صدودا أو اعراضا فتقع فى وهدة اليأس ، أما هو فقد قدمنا أنه كان يرتاح الى مجالستها ويلتذ بحديثها ، ولكنه لم يكن يخطر له أمر الزواج بها ، أما هى فكانت تشعر عند مجيئه لزيارة بيت أبيها شعورا خاصا يصاحبه بعض الخفقان فى قلبها ، وكان يتزايد ذلك الخفقان يوما عن يوم حتى تمكن منها .. ولكنها كانت لتعقلها وحسن تبصرها بالعواقب ، تخفى ذلك عنه جهدها وتتوقع أن يبدأ هو باظهار المحبة جريا على الغالب فى مثل

تلك الحال ، وطال بها الانتظار حتى لم تعد تستطيع صبرا على هذا الكتمان ، ولم تجد سبيلا أفضل من كتابة ذلك الكتاب بالطريقة التى قدمناها ، وقد فازت بمرادها وتحققت أمانيها

فصارت تود مكاشفته صراحة ، والافصاح عما فى قلبها .. ولكنها لم تستطع ذلك أمام شفيقة ، فأجلته الى فرصة أخرى ..

أما هو، فانه عندما تحقق من ظنه ، وأيقن بأنها هى .. الكاتبة ، وأنها تحبه الى هذا الحد ، مال الى مكاشفتها أيضا ، ولكنه شعر بعد أن أوضح لها بالرموز أن قلبه مكرس لأجلها ، وأنه لن ينظر الى سواها .. انه قد ارتبط معها بعهود وثيقة ، وأحس أنها أصبحت من تلك اللحظة خطيبة له ، وحالما تصور ذلك شعر بانقباض داخلى لم يعرف له سببا ، ولكنه كان يلمح فى ذلك الانقباض ظلا من الندم لتمهيده الطريق للارتباط بها .. فتجيبه عواطفه مبرئة نفسها من السقوط ، وعلى كل فان تلك الخواطر كانت تمر فى مخيلته مر السحاب وهو يتجاهل عن ادراكها ، ثم كان يتذكر حال صديقه سليم وما آلت اليه العجلة فى خطبة سلمى من غضب والدته فيزداد ندمه .. ولكنه يعود فيقول ان الفتاة تليق بى ، ولا أظن انه يمكن أن أوفق الى أحسن منها ، ولاسيما ان والدتى وشقيقتى يحبانها كثيرا .. وخرجا من الهيكل صامتين ، وقلباهما يتكلمان وشفيقة بينهما كلما رأت شيئا جديدا تسأل شقيقها عنه ، فعاد الجميع يقصدون الأهرام ، للاجتماع ببقية الرفاق

— ١٠ —

العتب بقــدر الأمل

أما سليم وسلمى ، فسَّرا لانفرادهما .. وكانت سلمى أكثر سرورا بذلك لقلقها مما لاحظته فى حبيبها من مظاهر الانقباض ، ولم يعد يهدأ لها بال الا باستطلاع سبب ذلك

أما هو فكان لشدة تأثره من التردد ، يود نسيان ما يخالج ضميره عن سلمى . ومع شدة رغبته فى استطلاع حقيقة ما بلغه عنها ، كان كثير الميل لتكذيب ما بلغه ، واجلالها عنه ، مدفوعا الى ذلك بما تمكن فى فؤاده من المحبة لها واحترامها . على أن الغيرة كانت من ناحية أخرى ، تدفعه الى أن يتحقق من الأمر بنفسه .. فلما خلا بها نظر اليها نظرة تشف عما يتردد فى قلبــه ويتجاذبه من جواذب الحب والغيرة ، فأجابته بنظرة تتخللهــا عواطف تنقد محبة ويعترضها القلق والاضطراب

ثم قال لها ، وهو يتلجلج فى حديثه : « الى أين ذهب حبيب ورفيقتاه ؟ » ..

قالت : « لقد ذهب الى أبى الهول »

قال : « وكيف استطاع أن يذهب الآن ؟ »

قالت : « وماذا يمنعه من الذهاب ؟ »

قال بعد السكوت برهة : « لا أعلم »

قالت وقد داخلها الشك فيما يهدف اليه : « ومن يعلم اذن!؟»
قال وقد علا وجهه امارات الحنق : « أنت »
فسكتت تفكر فيما تنطوى عليه هذه الكلمة ، ثم قالت :
« ماذا تعنى ؟ »
قال : « لا أعنى شيئا تجهلينه »
فازدادت قلقا واضطرابا ، وعلا وجهها الاحمرار ، ثم قالت :
« مالى أراك تخاطبنى بالأحاجى والمعميات .. افصح عن مرادك »
قال : « هل خفى عليك فهم المغزى الى هذا الحد ياسلمى »
قالت : « لا أفهم ماتقول ، ولا أعلم مايمنع حبيبا من الذهاب الا أنه سار برفقة فتاة غريبة عنه ، ولكنه سار برفقة شقيقته على أنه لو سار بدون شقيقته ، لما كان هناك ما يوجب المظنة لأنه شاب مهذب عاقل »

***

فحمى غضب سليم عند امتداحها اياه ، وهبّت فيه نيران الغيرة ، وقال : « صدقت انه شاب مهذب .. وليس هناك ما يوجب المظنة ، صدقت .. »
فازداد تعجبها لتلك العبارات التى لم تكن تعهدها فيه ، وسكتت برهة تردد عبارته فى ذهنها لعلها تجد لها مغزى ، فأشكلت عليها فعاودته السؤال قائلة : « أتوسل اليك باسم المحبة الطاهرة التى بيننا أن تفصح عن مرادك ، فقد نفد صبرى »
فرنا اليها بعينين تتقدان غيظا ، وهو يحاول اخماد نيرانهما ،

ثم قال : « بالله عليك لا تقسمى هذا القسم ، واتركى المحبة الطاهرة على حدة »

فتزايد خفقان قلبها ، ونفد صبرها ، وامتقع لونها ، ونظرت اليه وقد تساقطت العبرات من عينيها .. ولم تعد تتمالك عن البكاء ، وأرادت أن تتكلم .. فشرقت بدموعها »

فابتدرها بالكلام ، وقد كادت دموعها تطفىء نار غضبه ، قائلا : « كفى ياسلمى ، دعينى .. انى لا أعى ما أقول .. ولا أستطيع التصريح بأكثر من ذلك ، وعليك تتمة التفسير »

***

فمدّت يدها اليه وهى ترتجف ، وهمّت بالكلام والاستفهام عن رموزه .. وأرادت أن تمسك يده ، فجذبها منها نافرا ، وقطع عليها الكلام قائلا : « لماذا تمدين يدك التى ؟ .. ألا تخافين رفضها ؟ » ..

فصاحت وقد علا بكاؤها : « حبيبى سليم .. حبيبى ما بالك تخاطبنى بمثل هذا الكلام ؟ .. ما الذى حدث لك ؟ وماذا تضمر؟ أستحلفك بالمحبة أن تخبرنى حقيقة مرادك »

فقال وقد اشتد غضبه : « لا تحلفى بما قد شوهته وألبسته الخزى والعار »

فتحولت عنه الى جانب الهرم ، وجلست على حجر هناك جاعلة رأسها بين يديها ، وأخذت فى البكاء والشهيق حتى كاد يغمى عليها ..

فنزلت تلك العبرات على قلب سليم بردا وسلاما ، فأخمدت ما كان متقدا فيه من نيران الغيرة والحنق .. وعادت اليه عواطفه نحوها .. ونسى ما كان ثائرا بسببه ، وأمسك عما كان يريده من توبيخها وتعنيفها ، وصار ينظر اليها نظره الى ملاك طاهر ، وقد ندم على ما فرط من الكلام ، وهمّ اليها وأمسكها بيدها وقد تبللت بالدموع التى كانت تتساقط على خديها كالدر .. فوقفت ويدها الأخرى بمنديلها على عينيها

فقال لها : « خففى عنك ، انك والله ملاكى ومنيتى وأملى .. كفّى عن البكاء .. لا أبكاك الله ، ولا أراك ضيما »

***

فرفعت يدها عن عينيها ، ونظرت اليه بطرف قد كدرته الدموع ، فذبل وتكسرت أهدابه .. فوقعت تلك النظرة فى قلبه موقع السهم ، وهاجت فيه عاطفة الحب حتى ترقرقت الدموع فى عينيه وقال : « اعفى عنى ياحبيبتى ، واصفحى عن زلتى .. انى والله لا أقصد بما قلته الا تجربة محبتك »

فتنهدت سلمى تنهدا عميقا وقالت ، وهى غير واثقة بصدق ما يقول : « ألا تزال فى حاجة الى تجربتى ياسليم ، ألم تختبرنى بعد ، ألم تعلم مكنونات قلبى ، ألم تكن أول من طرق هذا القلب المنكسر وأقام فيه . هل عندك شك فى ذلك ياسليم ؟.. آه ثم آه من قلوب الرجال .. ما أقساها »

فلما سمع منها ذلك خفق قلبه لأنه ذكره بحديث داود ، ولكن

الحب كان قد تسلط على عواطفه ، فقال لها وقد وطّد نفسه على حبها ، مهما قيل له فيها : « كونى كيف شئت ، وافعلى ما بدا لك ، فانى قد ملكتك هذا القلب .. فافعلى به ما تريدين »

فلم يعجبها هذا القول لما تخلله من مظاهر الشك فى صدق محبتها فقالت : « ألا تزال ترمينى بنبال الكلام المموه ياسليم ، قلت لك صرّح بمرادك وأطلعنى على حقيقة رأيك ، واذا كنت مرتابا فى صدق طويتى ، أو داخلك شك فيما يتقد فى هذا القلب المنكسر الذى قد أثخنه الحب .. » قالت ذلك وتنهدت ثم قطع كلامها وهى لا تقوى على الوقوف لشدة الانفعال ، فحاولت الجلوس على ذلك الحجر ، فأمسكها بيدها قائلا : « حاشا لله أن أشك فى محبتك فان صورتك مرسومة على لوح صدرى ، ولا ريب عندى أن عندك مثل ما عندى ، فثقى بما أقول ودعينا من هذا الحديث .. وهلم بنا الى حيث والدك ووالدتك ، لأنهم لا شك قد استبطأونا .. ولنقض بقية هذا اليوم فى التنزه ، وما لنا ولتشاكى الغرام .. فانه مضر بكلينا »

***

قال ذلك وقادها فمشت وراءه ، فأطلوا على الفضاء الرملى المحيط بالأهرام .. فاذا بحبيب قد عاد مع شقيقته وادما من أبى الهول وجاءوا الى حيث ينتظرهم بقية الركب ، وكانوا جالسين على أكمة من الحجارة كأنها أثر هرم صغير كان قائما هناك ، والخادمة جالسة القرفصاء بجانب الأهرام توقد نارا لتحضر لهم

شيئا من الطعام الخفيف مما جاءوا به معهم من القاهرة

فلما رأتها سلمى ، تذكرت أنها كانت بالقرب منهما .. وخشيت أن تكون قد سمعت شيئا من حديثها مما يخجلها كشفه ، ولكنها كتمت ذلك فى نفسها ، وسارت الى جانب سليم مظهرة السرور ، حتى وصلا الى مجلس الجماعة ، فاستقبلوهما بالترحاب ، ووالدة سلمى تنظر اليهما وهما قادمان ، وتشكر الله على تآلف قلبيهما .. لعلمها ان المحبة الطاهرة من أجمل العواطف وأنبلها ..

فجلس الجميع حتى حضر شىء من الطعام أكلوه لسد الجوع ، وقضوا بقية تلك الظهيرة يخطرون بين الاهرام ، وأبى الهول .. بين تنزه وحديث .. وكل منهم يغنى على ليلاه

***

أما حبيب فقضى تلك المدة ينظر تارة الى حبيبته ادما ، وطورا الى صديقه سليم وخطيبته سلمى ، ويجول بأفكاره حينا فيما وقع له ذلك اليوم من ربط علاقات المحبة مع ادما ، وحينا فيما عرفه عن ارتباك صديقه سليم من رسالة والدته وحنقها على الفتاة التى أحبها ، وكان قد لاحظ على وجهى سليم وسلمى آثار البكاء والاضطراب ، ولكنه تجاهل لعلمه أن تشاكى الغرام لا يخلو من مثل ذلك ، ولا سيما اذا خامره شىء من المصاعب والمضايقات

أما سليم ، فأحب أن يتجاهل ما سمعه ، وأن يتغافل عما اتفق له صباح الأمس بين سلمى وحبيب ، وسار يرمى ناقل تلك الحكاية بالوشاية ، ويعلل ما شاهده بتعليل يبرىء ساحة حبيبته

من كل دنس .. ليس لضعف فيه ، ولكن لما تمكن من المحبة بينه وبين سلمى ، ولما شاهده ذلك اليوم من شدة انفعالها ورقة عواطفها ولطيف عتابها ..

أما ادما فقد كان ذلك اليوم أسعد الأيام عندها ، لأنها حققت آمالها وبلغت أمانيها .. ولكنها صارت تتوقع فرصة أخرى ، تخلو فيها مع الحبيب فتبثه لواعج قلبها بصراحة ، حيث لا واش ولا رقيب ..

وفى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، ركبوا المركبات ، وتوجهوا نحو المدينة ، فعرجت عربة أسرة حبيب فى باب اللوق الى محطة حلوان ، وسارت المركبتان الأخريان الى القاهرة

- ١١ -

داود

فلنتركهم وشأنهم ، وكل منهم فى هواجسه ، ولنعد الى رسول السوء داود .. فانه رجل من أصل دنىء ، اكتسب ثروة كبيرة من تعويضات الاسكندرية زورا وبهتانا ، فابتاع أطيانا وبنى منزلا هناك ، وجاء الى القاهرة ، أقام فيها ولا عمل له الا مراقبة أعمال الناس والتردد الى أماكن اللهو ، ولكنه كان دنىء الأخلاق شديد البخل مع ما كان عليه من الغنى .. فربما باع شرفه وذمته ببعض الدريهمات . وهو فى الحقيقة كان مقيما بالقرب من بيت الخواجة سليمان ، وليس فى قصته التى قصها على سليم شىء من الصدق الا انه كان مقيما هناك .. أما تردده عليه ، فلم يكن الا زيارات قليلة مراعاة للجوار ، ولم يكن بينه وبين الخواجه سليمان وأهله ائتلاف لاختلاف الطبع والتربية ، وكانوا اذا جاءهم يعاملونه معاملة الغريب . أما هو ، فكان يحلم بأن يظفر بسلمى لما رأى من جمالها ولطفها .. ولكنه لم يجسر على أن يخاطبها أو يخاطب والدها فى شىء من ذلك ، وكان يرى من سلمى اخلاصا لسليم ، فكان يغار منه ويكرهه من أجل ذلك .. وخصوصا لما كان يلاحظ من احتقارها له ، وعدم اكتراثها به ، اذا زار بيتهم ..

وكان يقيم فى القاهرة شتاء ، وفى الاسكندرية صيفا ، فى منزله خارج البلدة بجهة محرم بك ، فاتفق له فى ذلك الصيف أن عائلة سكنت فى بيت بجواره ، وبعد مبادلة الزيارات بينه وبينهم اتفقت طباعهم وطباعه .. واشتدت الصداقة بينه وبينهم ، حتى كثر تردده عليهم .. وآنس من ربة البيت تلطفا وتوددا ، فأكثر من زيارتهم ، حتى تناقل أهل تلك الناحية الأحاديث الطويلة عنه وعنها وهو لا يبالى ..

***

أما العائلة المشار اليها ، فعلى شاكلة داود من حيث الدناءة والخسة ، ولكنهم كانوا لغناهم يظهرون بمظهر كبار الناس ونخبة أعيان الاسكندرية ، وكانت هذه العائلة قبل سكناها فى محرم بك ، مقيمة فى شارع المسلة قرب محطة الرمل ، بجوار بيت فؤاد شقيق سليم ، وكانوا يترددون على بيته حتى تمكنت الصداقة بين صاحبة هذا البيت ـ السيدة وردة ـ ووالدة سليم تمكنا متينا ، لأن هذه الوالدة كانت من أطيب الناس قلبا وأخلصهم طوية ، تنطلى عليها الحيلة وتأخذها مظاهر اللطف والرقة

وكان لوردة ابنة حسنة الخلقة بارعة الجمال ، ولكنها كانت قد تربت على يدى والدتها حتى اكتسبت سائر أنواع الدهاء والخبث .. وهى وحيدة وجميع مال أمها سيكون لها وحدها ، وكان أهل الاسكندرية يتحدثون عنها وعن ثروتها .. ولكنها لم تصادف طلابا ، وقد تجاوزت الثلاثين من العمر ..

وكانت وردة تتقرب من والدة سليم كل التقرب ، وتظهر لها كل الميل ، فاذا اجتمعت بها أكثرت من الاطناب بجمال ابنتها (مدموازيل) اميلى وحسن خصالها ، والفتاة كانت من جهة أخرى تظهر الود مثلها ..

***

واتفق فى أثناء ذلك عودة سليم من أوربا حيث كان قد توجه لدراسة فن المحاماة ، فأقام فى بيت أخيه مدة فأعجب الفتاة ووالدتها كثيرا .. أما هو ، فكان خالى الذهن من شواغل الحب لاهتمامه بأمر مستقبله ، واشتغاله بالمطالعة والتنقيب فى الكتب

على أن ذلك لم يكن مانعا من تدبير الحيلة عليه واجتهاد وردة فى اغراء والدته بمختلف الطرق ، حتى وعدتها أن تحبب سليما فى ابنتها ، وقالت : « انها تحب الفتاة كثيرا وستقنع ولدها بأن يتزوج بها بعد حين .. فوطنت وردة نفسها على ذلك وأخبرت ابنتها به ، فأصبحت الفتاة متعلقة القلب بسليم برغم بعده عنها ، وكانت وردة لفرط دهائها تكثر من تقديم الهدايا وسائر وسائل التقرب الى والدة سليم ، وتعدها بالسعادة الدائمة اذا تم لها ما وعدت به ، وبقيت الحال كذلك مدة بعد سفر سليم الى القاهرة و (مدموازيل) اميلى ووالدتها تنتظران انجاز الوعد

أما فؤاد شقيق سليم ، فكان من السذج الذين لا يهمهم الالتفات الى مصلحة سواهم ، ولذلك لم يكن يتداخل فى أمر والدته وما دار بينها وبين وردة

وكانت والدته لشدة اخلاصها لوردة ، لاتخفى عليها شيئا كبيرا أو صغيرا ، فلما كتب اليها سليم من القاهرة أنه أحب سلمى ، وفى نيته الزواج بها تكدرت وذهبت بالكتاب الى وردة ، وأطلعتها عليه وسألتها اذا كانت تعرف الفتاة ، فأخذت تشهّر بها وبسيرتها ، وهى لا تعرف عنها شيئا ، وقالت لها : « ان الناس قلما يخلصون لأحد ، وهم لايحرمون محرما .. ان ولدك سليما يستحق فتاة تليق به ، ولا فرق عندى اذا تزوج بابنتى أو سواها ، ولكننى لا أرضى له بهذا النصيب » . وقد أرادت بذلك التمويه على تلك الوالدة الطيبة القلب .. فاستشارتها فى الأمر ، فقالت لها : «اكتبى له أن العادة التى سار عليها أسلافنا تقضى بأن الشاب لا يتزوج بمجرد اختياره هو ، والأفضل أن يبعد هذا من ذهنه ، ويترك أمر اختيار الزوجة لوالدته ، ثم تحذره من الخداع الذى يستخدمه الناس فى اغراء الشبان ، وما الى ذلك » ولم تكن هى تعرف الكتابة فكلفت جارها داودا أن يكتب لها ذلك الكتاب ، فكتبه كما يحلو لها وبعث به ..

***

فأجاب سليم عليه مبرهنا صحة رأيه ، وأخذ يمتـدح سلمى وحسن خصالها ، ودارت المخابرة على هـذا الأمر بين سليم ووالدته مدة وهم لا يرون منه الا ثباتا فى الحب حتى كادت تيأس وردة من تحقيق هدفها برغم ما دسته من الدسائس .. وأغرت والدة سليم بأن تروى له الأقاصيص الكاذبة والأحاديث الملفقة

فلما أعيتها الحيل ، خلت بشيطانها داود وسألته اذا كان يعرف سلمى ..

فقال : « نعم أعرفها وأعرف والدها وبيتها » ..

وكانت تعرف حبه للمال ، فقالت : « هل لك بهذه الخدمة فتقدمها من أجلى ولك جزاء عليها محبتى ، ومتى تم الأمر على ما نريد يكون لك نصيب من المال »

فلما رأى بابا للربح ، قال : «مرحبا بك.. انى رهن اشارتك ، وأرى أن خدمتك واجبة على ، فمرى بما تريدين »

قالت : « قد علمت سر الأمر ، وانا لو لم أر فى اميلى ميلا اليه ما همنى أمره ، ولكنى صرت بالنسبة لمحبة ابنتى له أحبه انا أيضا مثل محبتها » . فلما قالت ذلك لاحظت فى وجه داود انقباضا لقولها انها تحب سليما

***

فضحكت وردة مظهرة المزاح ، وأمسكت يد داود قائلة : « لا يغضبنك قولى انى أحبه ، فما هو بالغ من محبتى نقطة من بحر محبتى لك ياعزيزتى » ..

فضحك داود حتى غارت عيناه الصغيرتان وبرزت اسـنانه السوداء ، وقهقه حتى كاد يستلقى على ظهره ، ثم نظر الى وردة وربت على ظهرها قائلا : « بورك فيك ياحبيبتى ، انا اعلم ذلك جيدا .. ولا شك عندى فى محبتك ، وهأنذا اكراما لعينيك ساع جهدى فى كل ما تريدين »

فقالت له وهى تغازله بعينيها المطلتين فوق وجنتين مكسوتين بعقاقير العطار الملونة تلمعان فى سحر وجمال : « عاشت المروءة والنخوة ياحبيبى .. هكذا يكون المحبون .. فامض الى القاهرة وتدبر الأمر بحكمتك وذكائك ، وأفدنى بما تعمله »

فنهض يريد الذهاب الى بيته كى يتأهب للسفر ، فنقدته فى كفه بضع جنيهات قائلة : « خذ ياحبيبى .. هذه نفقات الطريق ، ولا تؤاخذنى .. اذهب .. رافقتك السلامة .. »

فقبض الدراهم وخرج فرحا مسرورا ، وأخذ يدبر الحيلة لتبغيض سلمى الى سليم لأن له أيضا فى ذلك مأربا انتقاما من سلمى وسليم ، أما وردة فانها أغرت والدة سليم على كتابة كتاب كتبته لها هى ، ينطبق على مؤدى رسالة داود .. ظنا منها ان المؤامرتين معا تكفيان لبلوغ الهدف المنشود ..

- ١٢ -

سعيدة

وكان فى بيتهـا خادمة عجوز قد وافقتهـا لؤما وخسة ، اسمها سعيدة فبعثت اليها بعد خروج داود ، وانقدتها جنيهين قائلة : « خذى هذين الجنيهين هبة منى على صـداقتك لى » فعجبت العجوز لهذه العطية على غير انتظار ، وعلمت لدهائها ومكرها ان سيدتها تريد منها أمرا .. فهمت الى يدها وقبلتها ، وقد انبسط وجهها وأخذت تدعو لها بطول البقاء ، وان يفرّحها الله بالست اميلى ، ويهيىء لها عريسا مناسبا ..

فقالت وردة ، وقد تنهـدت كمن يشكو مضض الدهر : « انت تعلمين ياسعيدة انى ترملت منذ عدة سنين ، وليس لى الا هذه الفتاة » ..

قالت : « نعم ياسيدتى .. حفظها الله وأسعدها وأطال عمرها »

قالت وردة : « وقد تركت الدنيـا من أجلها لأنها تعزيتى الوحيدة فى هذا العالم .. ولا يخفى عليـك ما هى عليه من الجمال واللطف والدلال »

قالت : « نعم ياسيدتى حفظها الله .. فليس لها مثيلة بين كل بنات الاسكندرية .. »

فقالت وردة : « وكم من خطيب طلبها ، وهى لا ترضى بأحد ،

وانا لم ارغمها على القبول ، لأننى أعتقد انها جديرة بشاب ممتاز » ..

قالت : « أى والله ياسيدتى ، انها جديرة برجل عظيم وحياة زوجية موفقة »

فقالت : « ولكن القدر هيأ لها الآن شابا أرضاها ، وبعد أن كادت تصل اللقمة الى الفم ، جاء قرناء السوء وأغروا الشاب حتى تعلق بفتاة أخرى فى القاهرة .. آه من الماكرين المضللين ..»

فقالت سعيدة مغضبة : « لعنة الله عليهم .. أين هم هؤلاء ؟..»

قالت : « هم فى القاهرة فى شارع شبرا ، واسم صاحب البيت الخواجة سليمان ، واسم الابنة سلمى ، والظاهر ان سليمان يزورهم كل يوم ولذلك لايتركون له فرصة يفكر أو يتراجع »

فقالت سعيدة : « سأحاول أن أبعدهم عنه ، وأنتصر على حيلهم ودهائهم »

قالت ذلك ونهضت الى غرفتها ، وأخذت تعد ثيابها ، فتبعتها سيدتها .. وأخذت توصيها بكتمان هذا الأمر عن الجميع ، حتى تتحقق أمنيتهم ، فطمأنتها وأعدت ما تحتاج اليه من الثياب فى صرة ، وتناولت شيئا من الطعام ، وودعت سيدتها ، وخرجت توا الى المحطة ، فركبت القطار قاصدة القاهرة ، وكانت تعرف طرقاتها لأنها ربيت فيها ، وخدمت كثيرين هناك ..

فوصلت الى القاهرة فى المساء ، وقضت ليلتها فى بيت بعض أقاربها .. وفى الصباح لبست ثيابها وقصدت بيت الخواجة

سليمان ، وكان وصولها اليه قبل رحلة الأهرام بثلاثة أيام ..

فقرعت الباب ، فلاقتها والدة سلمى ، وسألتها عما تريد فقالت : « انى امرأة مسكينة ليس لى من يعولنى ، وقد حاولت أن أجد عملا على يد أحد المخدمين فأذاقنى المر .. وكنت اذا خدمت فى بيت يأخذ منى نصف أجرى ويهددنى ، وأسيادى يشكون منى ومن المخدم فيطردوننى ، وأخيرا عزمت أن أبحث عن بيت أناس طيبين يكونون أهلا لخدمتى ، لأنى أحب خدمة الناس الطيبين ، فأهدانى بعض الناس الى سيادتك .. ويظهر لى انك سيدة فاضلة ، فاذا رأيت أن أكون خادمة لك ، خدمتك بعينى وقلبى » ..

وكانت والدة سلمى قد قاست عذابا أليما بسبب الخدم والمخدمين ، فكانت تطلب من المخدم خادما أو خادمة فيأتيها بها ويطلب أجرته ، فيأخذها .. ثم لا تلبث الخادمة عندها بضعة أيام حتى يغريها المخدم على الخروج من عندها ، طمعا فى تخديمها فى بيت آخر ، حتى ينال أجرته ثانيا ، وهذه حالة يشكو منها سائر أهل القاهرة ولاسيما السيدات لاحتياجهن الى الخدم ، وكان فى بيت الخواجة سليمان خادمة ، أذاقتهم العذاب وسوء المعاملة .. فلما سمعت كلام سعيدة ولمست لطفها ، فضلا عما بدا عليها من مظاهر الطيبة ، سرت بتلك الفرصة ، وهرولت الى سلمى لتخبرها بالأمر ، فقالت لها : « ولكن كيف نثق بها .. ونحن لا نعرف عنها شيئا ؟ ألا يحتمل أن تكون سارقة ، أرادت أن

تخدعنا بما تتظاهر به من الطيبة والحاجة »
فعادت اليها وسألتها عن اسمها فقالت : « اسمى سعيدة »
فقالت : « ولكن العادة ياسعيدة أن تأتى الخادمات بضمانة »
فقالت وقد تبسمت تبسما يدل على استنكافها من هذا السؤال : « والله ياسيدتى ليس عندى ضمانة ، ولكن عندى هذا السوار وهذا القرط .. فاجعليهما عندك رهنا ، والله يعلم اذا كنت أمينة .. وسترون منى كل مايسركم باذن الله » فاقتنعت منها بذلك وألحقتها بخدمتها ، وأخرجت الخادمة القديمة .. فأخذت تظهر كل مهارة فى الخدمة والنظافة ولطيف الحديث ، حتى أعجبت بها سلمى ووالدتها كل الاعجاب ، وحسبتا انهما ظفرتا بكنز ، لم يظفر به أحد سواهما ..

وكانت سعيدة تمتدح سلمى دائما ، وتتقرب منها وتظهر لها كل محبة ، فأحبتها سلمى بنوع خاص ، ولذلك أرادت استصحابها الى الأهرام

أما داود فأعد نفسه للسفر فى الصباح التالى ، فبارح الاسكندرية بالقطار السريع ، وقضى معظم الطريق فى اعداد القصة التى قصها على سليم كما تقدم

وكان يظن انها تكفى ، بالاضافة الى الخطاب الذى كتبته وردة عن لسان والدته ، لارجاع سليم عن حب سلمى .. فبلغ رسالة السوء ، وعاد الى الاسكندرية ، وبقى الجميع هناك فى انتظار رد سليم على خطاب والدته بعد مقابلة داود ، فطال

انتظارهم دون جدوى .. اذ مضى اسبوع ولم يصلهم شيء ..
أما وردة فكانت لا تزال تأمل أن تنـــال بغيتها ، بمساعى سعيدة ، فلبثت تنتظر نجاح خطتها ..

- ١٣ -

حبيب ووالدته

تركنا المشتركين فى رحلة الأهرام عائدين الى بيوتهم ، وتركنا حبيبا واهل بيته عند محطة حلوان .. ولكننا لم نذكر ما كان من وداع حبيب لادما .. وقد كان يتمنى أن لايفارقها ، لولا مراعاته لشعور والدته وشقيقته ، ولكنه أشار اليها عند الوداع بالضغط على يدها ، والنظر اليها نظرة يفهم منها انه انما فارقها قهرا ، وسيلتقى بها مرة أخرى ، ويتكاشفان لواعج الغرام ..
أما هى فأحست عند وقوف العربات للوداع ، عند محطة حلوان ، كأن قطعة من قلبها انفصلت عنها ، ولكنها تعللت باللقاء مرة أخرى لأن حبيبا كان يتردد على بيت أبيها يوما بعد آخر ..
ركب حبيب ووالدته وشقيقته القطار ، وهو سابح فى تيار من الهواجس التى لم يشعر بمثلها فى حياته .. وكان يتردد فى الحب الجديد الذى لم يتمكن منه بمقدار ما تمكن من ادما ، وانما كان يشعر مع ذلك الحب بنوع من الشفقة عليها ، لما شاهده من سرورها العظيم بقبوله اياها .. على انه كان يشعر بانقبـاض



« فسار القطار بهم ، وهو صامت لا يتكلم ، فأدركت ذلك والدته فقالت:
مالى اراك صامتا ياحبيب ، وقدرأيتك اليوم مسرورا جدا فى الاهرام ؟ ! »

داخلى ، لا يعرف له سببا

فسار القطار بهم ، وهو صامت لايتكلم ، فأدركت ذلك والدته فقالت : « مالى أراك صامتا ياحبيب ، وقد رأيتك اليوم مسرورا جدا فى الأهرام ، فهل أنت متكدر من شىء ؟ »

فانتبه لنفسه بغتة ، وقال مبتسما : « لا يا اماه .. بل انا فى غاية السرور من هذه الرحلة ، ولكن لست أدرى لماذا يشعر الانسان بعد مثل هذا السرور بانقباض ، واظنه من قبيل رد الفعل .. وليست هذه المرة الأولى التى شعرت بها بمثل هـذا الشعور ، فانى كلما عدت من مجتمع سرور أو بهجة ، أظل مدة صامتا .. أراجع فى مخيلتى ما مرَّ بى أثناء ذلك السرور ، وما شاهدته من المناظر وما سمعته من الأحاديث »

فقالت شقيقته : « صحيح يا اماه .. وانا أيضا كذلك ، لأنك لو تعلمين مقدار سرورى فى هذا اليوم ، ليس فقط لوجودى بناحية الأهرام ، وانما لاجتماعنا بهؤلاء الأصحاب ، وخصوصا صديقتى ادما ، لدهشت لاحساسى الآن بالرغبة فى السكوت والتفكير فيما مر بنا اثناء هذا النهار »

فلما سمع حبيب ذكر اسم ادما ، خفق قلبه وعاد الى هواجسه فقالت والدته : « حقيقة يا شفيقة ان ادما ابنة عاقلة لطيفة قريبة من القلب كثيرا ، وقد كنت تمدحينها أمامى كثيرا .. ولكننى شاهدت منها فوق ما كنت أسمع » .. فسر حبيب لهذا الحديث ، لعله يستطلع به رأى والدته فى الفتاة ، فقال لها : « ألم تعرفيها

قبل فوات الأوان يا أماه ؟ » ..

قالت : « لا ياولدى ، ولكننى كنت أسمع عنها من شقيقتك منذ أن كانتا فى المدرسة فى بيروت.. ولم تبرح منذ تركت المدرسة تمتدحها ، وقد زرتها فى البيت مرات قليلة .. واما اليوم فقد قضينا معظم النهار معا فرأيت منها لطفا زائدا ، وقد أعجبنى منها تهذيبها ولطف حديثها ، ولكننى عجبت من شدة تعلقها بشفيقة وتعلق شفيقة بها »

فقال : « تلك زمالة الدراسة تنمو معها المحبة بمرور الأيام »

فقالت شفيقة : « نعم يا أخى ، هذا صحيح .. ولكنى أحببتها أكثر من سائر رفيقاتى .. وهى أيضا تحبنى .. »

فقال حبيب ، وقد ازداد شغفا بها ، وسر لمحبة والدته لها : « وهى حقيقة تستحق محبتك ، لأنها فى غاية اللطف والتهذيب »

وكانت والدته اثناء ذلك تفكر فى الفتاة ، وترى انها مناسبة لولدها ، وأرادت أن تستطلع رأيه من جهتهـا وتذكر له أمر الزواج ولكنها أمسكت عن ذلك أمام ابنتها تأدبا .. واعتزمت أن تعرف رأيه فى فرصة أخرى ..

وكان حبيب أيضـا يفكر فيما تفكر فيه .. وهكذا انقطع الحديث ولبث كل منهم غارقا فى أفكاره حتى وصل القطار الى حلوان وساروا الى البيت

أما ادما فوصلت البيت مع والدتها ، وهى تكاد تطير فرحا لما كان من تحقق أمانيها ، ولكنها كانت تشعر بشدة لهفتها للاجتماع

به مرة ثانية لتكاشفه الحب صريحا ، وتنتظر عقد الخطبة رسميا حتى يطمئن بالها

أما سليم فوصل بالعربة الى بيت سلمى ، فأراد أن يستأذن فالانصراف ، ولكنهم دعوه الى العشـاء معهم ، وقضاء بقيـة السهرة عندهم ، فنظر الى وجه سلمى فاذا هى تلتمس بقـاءه أيضا ، فأذعن لاشارة عينيها .. بالرغم من انه كان يفضل الذهاب الى غرفته والاختلاء بنفسه للتفكير فيما اتفق له ذلك اليوم ..

فنزل الجميع والخادمة سعيدة معهم ، ودخلوا المنزل وذهب كل منهم الى غرفته ليغسلوا وجوههم من آثار الغبار الذى تراكم عليها فى الطريق .. فنزع سليم معطفه .. فتناولته سعيدة لتنظفه من الغبار ، ودخل سليم الغرفة ليغسل وجهه ، فأخذت سعيدة المعطف ، وذهبت به بعيدا الى مكان منعزل ، متظاهرة بالتفتيش عن الفرشاة ، وجعلت تفتش فى جيوبه .. فعثرت على ورقة عرفت من لونها وهيئتها انها هى التى كتبها داود بحضور سيدتها وردة وبعث بها الى سليم على لسان والدته ، فأخذتها فى جيبها وعادت بالمعطف الى سليم .. وكان قد غسل وجهه ، فلبسـه وجلس الجميع يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتداولون فيما مر بهم ذلك اليوم ، شأن كل عائد من مثل الرحلة التى قاموا بها ..

فقضوا وقت العشاء وما بعـده فى أحاديث متنوعة ، وقد آنست سلمى فى سليم العودة الى الملاطفة ، لأنه كان يتظاهر بالسرور أمامها خوفا عليها .. تاركا تردده الى ما يأتى به القدر

– ١٤ –

شقاء المحبين

وفى آخر السهرة ، انصرف سليم مودعا سلمى ، وهى تقول له : « لا تطل الغيبة علينا يا سليم » وخرج قاصدا منزله .. وقضى طول الطريق وهو يفكر فيما أحدق به من المشاكل ، وهو لايدرى كيف يتخلص منها .. وأعقد تلك المشاكل حديث داود ، فانه كان يردده فى ذاكرته .. وحين يصل الى ما قاله عن حبيب ، كان يشعر بنار اتقدت فى جسمه ، ثم يتذكر رسائل والدته وما كتبته اليه والدته عن كدرها منه لرغبته فى سلمى .. فيتصور كيف يؤثر ذلك فى صحتها .. ثم يعود بأفكاره الى سابق حياته ، فيرى ان والدته هذه قد فضلت البقاء أرملة عشرين سنة .. ورفضت الزواج حبا فيه وفى أخيه ، ورغبة فى راحتهما .. وكم سهرت عليه ، وكم ضمته الى صدرها وحنت اليه ، وكم كان يعدها بالمكافأة على تلك الأتعاب ، وكيف أصبحت بعد زواج أخيه متعلقة القلب به ، ولا رجاء لها الا فيه ، ولا شىء يسليها عن ترملها وأحزانها الا التفكير فى مستقبل حياته .. وكيف انها كانت تعد الدقائق والساعات حتى تزوجه وتفرح به وتقيم فى بيته ، لأنها كانت تؤثره على شقيقه لذكائه ولطفه ، ثم ينظر الى ما هى فيه الآن وكيف انها وقعت فى وهـــدة اليأس من جراء

مخالفته لها ، حتى انها قـد تموت أسى وحزنا .. ويكون هو السبب فى ذلك ..

فلما تصور هذه النهاية ، تحركت عواطفه ، واشتد به الحزن حتى بكى .. وأخذ يناجى نفسه قائلا : « ان هذه المتاعب ، مصدرها سلمى ، فان تركها والتخلص منها ينقذنى من جميع هذه الأحزان دفعة واحدة ، ولكن .. آه .. آه .. هذه سلمى كيف أتركها ، وكيف أتخلى عنها وقد ارتبطنا معا برابطة المحبة ، وقد وعدتهـا وعدا وثيقـا بالزواج .. فماذا يكون من أمرها اذا أخلفت الوعد ، بل ماذا يكون حالها اذا علمت ان هذا الأمر قد خطر ببالى ..

« لا .. لا .. ياسليم .. لا .. لا أتركها ولا يجب أن أتركها لئلا أكون سببا لشقائى وشقائها .. ولكنها تحب حبيبا .. آه من هـذا الحبيب .. ولكن كيف يمكن أن تحبه .. ألعلها تخون عهدى ؟! .. » ..

ثم صمت برهة ، وعاد فقال : « اما اذا تحققت انها تحبه فلن يؤنبنى ضميرى اذا تركتها .. ولكن من يخبرنى انها تحبه أو لا تحبه .. ولكننى سمعت ذلك بأذنى من رجل غريب لا أعرفه ولا يعرفنى ، وقد رأيتها بعينى جالسة الى جانبه يضحكان ، وعلى وجهيهما آثار المحبة ، ولما رأيانى داخلا بغتا وخجلا . أليس ذلك كافيا لاثبات ما سمعته عنها انها خائنة .. واذا تركتها من يلومنى .. سلمى خائنة .. لا .. سلمى لا تخون وكيف يمكن أن يكون ذلك

الملاك خائنا ، انها ملاك طاهر نقى ، وقد عرفت ذلك بالتجربة ..
انها أطهر البشر .. نعم انها أطهر بنات جنسها ولا تعرف الخيانة ،
حاشا لها أن تكون خائنة .. »

وفيما هو فى هذه الهواجس ، وصل الى باب المنزل ، وصعد
الى غرفته فدخلها ، وأضاء الشمعة وأشعل (السيجارة) وقد
ذهب النوم من عينيه .. وضاق صدره ، فأراد الجلوس ، فأحس
كأن تلك الغرفة سجن مظلم ، فانقبضت نفسه ولم يستطع
الجلوس ، فأخذ يخطر فى أرض الغرفة وهو سابح فى هواجسه
يردد تلك القصة فى ذهنه ، تارة يغضب وطورا يغار ، وتارة يحزن
وطورا يندم .. فأخذت تتجاذبه جواذب الحب والغيرة والحزن
والغيظ والحنق واليأس والحنو .. حتى ضاق ذرعا عن احتمال
ذلك ، ولم يعد يستطيع البقاء فى الغرفة ، فخرج منها ونزل الى
الشارع ليروح عن نفسه ويخفف من حدة عواطفه .. فأشار الى
عربة ركب فيها ، وهو لايدرى الى أين يريد الذهاب ، فسارت
العربة فى شارع الفجالة .. وبعد أن سارت برهة ، سأله السائق
عن الجهة التى يريدها فقال : « سر الى العباسية » فجرت المركبة
وهو غافل عن كل شىء حوله ، ولم يجذبه منظر الشارع المضىء
بالغاز ، والأشجار تظلله وتحجب عنه ضوء القمر ، فانها كانت
ليلة مقمرة ..

بل كان مشتغلا بسلمى وحبيب ووالدته عن كل شىء حوله ،
ولم ينتبه حتى وقفت المركبة الى جانب المرصد ، فتحول سليم

منها الى ذلك الفضاء الرملى الشاسع الأطراف ، يتخلله بناء المرصد من جهة ، وقشلاقات العباسية من جهة أخرى .. والصمت يسود ذلك الفضاء .. ويغشاه ضوء القمر الساطع ، والسماء صافية ليس فيها أثر للغيوم ..

والبدر فى كبد السماء كدرهم   ملقى على ديباجة زرقاء

فمشى بين أشجار من السنط متفرقة بجوار المرصد ، وأخذ يشغل نفسه بالنظر اليها ، والى ما حوله من الفضاء الواسع ، والسائق ينظر اليه ويعجب لانفراده هناك فى ذلك الليل ..

ونظر سليم الى ساعته ، فاذا هى تشير الى منتصف الليل تماما فجلس على حجر فى ظل شجرة بحيث لايراه السائق .. وأخذ يتأمل فى حاله ويفكر فيما احدق به من المشاغل وما يتضارب فيه من العواطف ، فتخيل له ان سلمى فى تلك الساعة فى فراشها مستلقية وعيناها غامضتان .. غارقة فى النوم لا تدرى شيئا عن اضطرابه وتردده ، ثم اعترضته صورة والدته حزينة كئيبة باكية فارتعدت فرائصه ، وتساقطت عبراته ، وأخذ فى البكاء وهو يحذر أن يسمعه أحد لارتفاع صوت شهيقه ، ثم تخيل له ان تلك الأشجار رقباء عليه يسمعونه وينظرون اليه ، فذعر وتوقف عن البكاء ثم عاد اليه وفرائصه ترتعد ، وما زال بين بكاء وخوف حتى أنهكه التعب .. فارتخت عزائمه وذبلت أجفانه ، فطاب له النوم فأسند رأسه الى تلك الشجرة فنام وهو فيما تقدم من الاضطراب ..

فرأى فى منامه ، كأن سلمى قادمة اليه ، بوجه يطفح نورا ، عليها رداء أبيض ناصع يجر وراءها ، باسمة الثغر ، وعيناها السوداوان تنظران اليه ، ثم دنت منه وجثت أمامه مثل الملاك قائلة ، والعبرات ملء عينيها : « سامحك الله يا سليم ، انك والله قد أسأت بى الظنون وأنا بريئة من تلك التهم الدنيئة .. حاشا لله أن أدنس شرفى بمثل تلك الدنايا .. يشهد الله اننى وقفت قلبى وسائر عواطفى على حبك . أنا طاهرة ومحبتى طاهرة .. اشفق على حسرتى ، وتأكد من صدق طويتى .. ان هـذا القلب لم يعرف سواك ، ثق بالله ودع عنك الظنون »

فاستيقظ بغتة ، وقد ارتعدت فرائصه ، وهو يقول : « سلمى حبيبتى ، انت روحى وقلبى ، ولاعاش من ظن بك سوءا » ثم التفت فاذا هو فى قفر لا شىء أمامه سوى الأشجار الشائكة ، والخلاء الواسع .. فندم على يقظته ، وود لو يعود النوم الى جفنيه ، فيرى حبيبته بذلك اللبـاس الملائكى ويتمتع بتلك الطلعة الباهرة ، ولكنه لم يستطع .. فعاد الى البكاء .. وأخـذ يناجى نفسه قائلا :

« ان خيالك ياحبيبتى أصدق شاهد على ما تقولين ، وبياض رداءك دليل على نقاء ذلك القلب الذى ما عرفت فيه الا الطهارة والاخلاص ـ قبح الله ذلك الواشى ذا الوجه القبيح فان وجهه دليل على ما فى قلبه ـ انت طاهرة .. انت طاهرة لاعيب فيك .. آه لو كنت تعودين الى فأتزود منك نظرة ثانية .. انى ثابت فى

حبك ثبوت الجبال لأنى لم أر منك الا ثباتا » وسكت ..

فعادت اليه صورة والدته ورسائلها التى لم يكن لها فيها شأن كبير .. فغلبت عواطفه على عقله حتى كاد يتناسى أمر والدته ، ونهض لساعته الى العربة ، وقد أخذ منه برد الليل كل مأخذ ، فأحس بتعب وخاف من المرض .. ولكنه ود لو يصاب بمرض ، فيشتغل به عن تلك الهواجس ، فسارت به المركبة عائدة الى القاهرة وهو يفكر فيما تمناه من المرض .. فتصور أنه أصيب بمرض عضال حتى اشتد عليه وقارب الموت ، فأجفل قائلا فى نفسه : « لا .. لا أريد الموت الآن لأنى أكون سببا لشقاء كثيرين .. نعم انى أستريح ، ولكننى أسبب الشقاء لأحب الناس الىّ .. »

ثم رجع اليه صوابه بغتة ، وفكر فى أمره .. فاذا هو أصبح عبدا لعواطفه ، ولم يترك لعقله فرصة للعمل فقال مناجيا نفسه : « كن حكيما يا سليم .. فليس هذا شأن الرجال .. خذ الأمر بالصبر ، وتدبر الأمور بالحكمة وتتبع الحوادث بالدراية .. نعم يجب أن أصبر نعم ..

وأصبر حتى يعلم الصبر اننى
صبرت على شىء أمر من الصبر

« لماذا لا تكاشف أحد أصدقائك بأمرك .. ولكن من تكاشف من الأصدقاء ، ومصدر شقائك من أعز صديقاتك .. آه ياحبيب ولكن من أدرانى انه كما بلغنى ذلك الشيطان .. أعوذ بالله من

تلك الساعة .. ما كان أشأمها علىَّ »

وما زالت المركبة سائرة حتى بلغت المنزل ، فنزل منها ووقف ليدفع للسائق أجرته ، فأدار السائق المصباح المواجه لمقعد العربة ليضىء لسليم كى يحصى له الدراهم .. فأخرج سليم الدراهم من جيبه ودفع اليه شيئا منها وعاد الى غرفته ودخلها ، وقد أخذ التعب والبرد منه مأخذا عظيما ، فبدل ثيابه ونام ..

— ١٥ —

كتاب سلمى

ولم يفق فى الصباح الا على قرع باب الغرفة ، فنهض وفتح الباب فاذا بخادم الفندق قد دفع اليه كتابا ليس عليه ختم البريد قائلا : « قد أتت امرأة عجوز فى هذا الصباح تحمل هذا الكتاب .. وقد أوصتنى ان أسلمه اليك ، ولم أشأ أن أقلقك مبكرا .. ولكن حين طال نومك أيقظتك »

فأخذ سليم الكتاب ، وحالما وقع نظره على العنوان اختلج قلبه فى صدره لأنه يشبه خط سلمى ، ثم أغلق باب الغرفة وأخذ يفضه .. فاذا هو بخطها من الداخل أيضا ، فنظر الى التوقيع .. فاذا هو توقيعها بخط يدها .. فازداد خفقان قلبه ، فجلس على سريره وأخذ يقرأ ، فاذا فيه :

« حبيبى ومنية فؤادى سليم

« أكتب اليك هذا الكتاب ، وأظنه آخر ما أكتب اليك أو أتحدث به معك .. أكتبه ويدى ترتجف ، وقلبى يخفق ، ودموعى تتساقط عليه .. أكتبه وأنا فى حال لم أشعر عمرى بمثلها ، ولكننى أستحلفك بالمحبة التى (أنا أعتقد) انها محبة طاهرة خالصة من كل دنس أن تحفظ ما تقرأه سرا عن كل بشر .. ولكننى أتوسل اليك أن تعيرنى أذنا صاغية ، وتعتبره صادرا عن

قلب يتقد حبا واخلاصا .. قلب لم يكن يعرف الخفقان قبل أن عرفك .. ولا عرف القلق أو السهاد الا منذ أن جعل نفسه مسكنا لك ..

« أكتب اليك هذا الكتاب فى منتصف الليل .. والناس نيام مطمئنون ، وأنا وحدى الساهرة التى لم يعرف النوم جفناها ، وأظنك الآن فى فراشك وقد كحل الكرى جفنيك ..

« أشكر الله انى قد عرفت سبب متاعبك ، وانت لحبك وحسن ظنك كنت تخفى علىّ ذلك ، فأشكر الله تعالى انى عرفت الداء وصرت أستطيع أن أصف الدواء ، وكما انك كنت تتحمل الضيم من أجل راحتى .. فأنا يجب أن أحتمل مثل ذلك وأشد منه ثقلا من أجل راحتك

« وقع فى يدى كتاب أرسلته اليك والدتك .. ساقته الىّ الأقدار لشقائى وراحتك .. وقد فهمت منه انك تقاسى أمورا عظاما من أجل حبى ، وتكافح مكافحة الأبطال من أجل عهودك معى ، فأكرم بك من محب صادق وصديق مخلص

« أما التهم الموجهة الىّ فى ذلك الكتاب ، فلا أقول فيها الا سامح الله كاتبيها .. وأما ما أردت كتابته اليك ، هو ان والدتك طيبة القلب ، وقد أخلصت فى تربيتك وتركت الدنيا من أجلك وقد وضعت كل آمالها فيك ، وأقل ما تنتظره منك اخلاص الطاعة لها ، وتعزيتها فى شيخوختها ، وقد صارت سنوها فى هذه الدنيا معدودات .. فلا تغضبها أو تكدر خاطرها ..

« وأنا أعلم انك اذا أصررت على عزمك وخالفتها تكون سببا فى شقائها ، ولا أجهل ان مصدر متاعبك العهود التى بيننا لاعتبارك اياها عهودا مقدسة لايسمح لك شرفك بعدم الوفاء بها .. أكرم به من شرف اثيل ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات .. فبكل أسف أقول لك انى قد رأيت من الواجب علىَّ التخلص من تلك العهود ، وكأنه لم يكن بيننا عهود ولا مواثيق ..

« فنحن منذ الآن كما كنا قبل عشر سنين ، لا عهود بيننا ولا روابط ..

« .. أقول ذلك بقلب يقطر دما ، ويدين ترتجفان ، وعينان لا تريان ما أكتب اليك ، لما حال بينهما وبين هذا القرطاس من الدموع . .وكم كنت أتمنى ألا أظل على قيد الحياة حتى أكتب لك ما كتبت ..

« أتوسل اليك من أعماق قلبى أن تبادر الى والدتك ، وأن تجبر كسر قلبها ، فانها حزينة منكسرة القلب لفراقك ، متألمة من بعادك .. وان كان لابد لك من ارضاء احدانا ، فهى أولى بالرضاء وأحق بالرثاء .. اذ يهون عليك أن تعود بتصوراتك الى ما كنت فيه منذ عشر سنين ، يوم لم يكن لسلمى صورة فى ذهنك .. يوم كانت هى والعدم سواء .. أما والدتك فلا تستطيع نسيانها لأنك أول يوم فتحت فيه عينيـــك كانت هى أمامك تعنى بك وتقوم بخدمتك . .فاذا بكيت تألمت لك ، واذا جعت أطعمتك ، واذا غابت عنك ساعة عادت اليك بلهفة الوالدة الحنون .. وهــذا

يقتضينى أن أحبها وأؤثر راحتها .. أليست هى التى حملتك تسعة أشهر ؟ !

« ولا بد لى قبل الختام أن أودعك الوداع الأخير ، اذ ربما لا يتاح لعينىَّ أن تراك .. أما القلب فأنت ساكن فيه لا تبرحه .. كيف لا وقد ملكته وأقمت فيه أغراسا . وأتوسل اليك أن تذكرنى فى ساعات الفراغ .. واعلم أن بين الأحياء ، اذا كنت حية ، وبين الأموات اذا كنت ميتة ، فتاة تحن الى ذكراك وتصبو الى رؤيتك ، تحب محبيك وتبغض مبغضيك ، واذا بقى لها فى قلبك صورة فاحفظها تذكارا لما كان بيننا .. واصفح عن صنيعى هذا ، ودم سعيدا سالما لقتيلة حبك سلمى »

فسالت الدموع من عينيه .. وما جاء على آخر الكتاب حتى بلله بالدموع ، واشتد به الهيام فاستلقى على السرير .. وأطلق لنفسه عنان البكاء . وكان وهو يقرأ قد اعتزم أن يفتقد كتاب والدته .. ولكن الحزن والهيام قد أنسياه ذلك ، فاستلقى واستغرق فى النحيب حتى غاضت دموعه ، وجف ريقه فى حلقه وكاد يختنق ، ثم أحس بقشعريرة فالتحف الغطاء ، وكان لايزال منهوك القوى لكثرة السهر بالأمس وشدة الهيام ، وكثرة البكاء ، فأخذته سِنَة من النوم فنام .. وقد سقط الكتاب من يده على السرير ..

- ١٦ -

حبيب ووالدته

فلنترك سليما نائما ، لعله يستريح من تلك الجواذب والدوافع .. ولنرجع الى حبيب وما تمّ له بعد وصوله مع والدته وشقيقته الى البيت ..

فان والدته كانت أثناء سير القطار ، وحديث شفيقة يدور مع أخيها حول ادما ، تتردد فى ذهنها خواطر من هذا القبيل .. على أنها سرت لما رأت فى حبيب ميلا الى ادما . ولما وصلوا الى البيت وغيّروا ثيابهم ، واغتسلوا من الغبار ، كان الخادم قد أعدّ لهم طعام العشاء ، فتناولوه وسارت شفيقة الى فراشها عاجلا كجارى عادتها لأنها كانت خالية البال ساكنة العواطف .. لا همّ لها سوى مساعدة والدتها فى تدبير أمر البيت والترتيب واللبس والطعام ، واذا انتهت من ذلك لا يبقى أمامها سوى النوم ..

فلما توجهت تلك الليلة الى فراشها خلت والدة حبيب به ، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ، وكل منهما يفكر فى ادما بغير علم الآخر ..

فقالت الوالدة ، وقد رأت حبيبا صامتا كأنه يفكر فى أمر : « مالى أراك منشغل البال يا حبيب ؟ .. ألعلك تشــكو من شىء .. ؟ »

فانتبه حبيب ، وانتصب جالسا ، وقال : « لا يا أماه .. لست أشكو شيئا وانى بفضل دعائك ورضائك علىّ بكل خير وعافية».

قالت : « سلمت يا ولدى وعسى أن يبقيك الله لى سالما ، وشقيقتك لكى أفرح بك وأزوجك » قالت ذلك ونظرت اليه كأنها تنتظر ما يبدو منه ، وكانت كلما خاطبته فى أمر الزواج قبل ذلك اليوم ينكر عليها أمره ، ويأخذ فى اقناعها بأن الزواج متعب ، وأن البقاء بدون زواج أفضل وأكمل وأسعد ، وكانت تستاء من ذلك وتتوسل اليه أن لا يقول ذلك .. لأن الزواج أمر لا بد منه ، ان عاجلا أو آجلا .. وهو يقول ان لا مأرب له فيه ، وأنه سعيد بمعيشته مع والدته وشقيقته ..

أما تلك الليلة فانه لم يجبها ، بل بقى صامتا .. وتذكر الفرق بين حاله فى الأمس واليوم ، فقد كان خاليا لا همّ له سوى اتمام عمله ومرضاة والدته ، والاشتغال بالمطالعة والكتابة ساعات الفراغ ، والقلب خال والعواطف هادئة والحياة هنية سهلة لا يكدرها اضطراب ولا يشوبها قلق ولا تعترضها غيرة أو شوق ، والعقل حر يجول فى الموضوعات العلمية والفكاهية والأبحاث الممتعة ، فأصبح اليوم منشغلا تتنازع فى نفسه العواطف .. بين الحب ، والشوق ، والاهتمام .. فلما خاطبته والدته ولم يجبها ، ظنته فى شاغل مزعج يريد اخفاءه عنها ، فعاودته السؤال قائلة :

« كيف تقول انك غير منزعج وأراك صامتا لا تتكلم ؟ »

فارتبك فى أمره لا يدرى بماذا يجيب ، وقد صعب عليه

التصريح بما يخالج نفسه من ناحية الفتاة .. وهو يتردد بين الحياء والارتباك ، فغلب عليه الحياء فقال : « قلت انى بخير .. ولا شاغل لى ، ولكننى أفكر فيما رأيناه اليوم فى الأهرام من المناظر البديعة ، وما تمتعنا به من الهواء النقى »

قالت : « أظنك تفكر فى شىء آخر .. لأن وجهك منقبض ، وفى نفسك شىء تريد اخفاءه عنى .. فاذا كنت تواجه شيئا يزعجك ، لماذا لا تصرح به لى ، واذا كنت تخفى ذلك عنى فلمن تبوح به ؟ »

فحاول الدفاع عن نفسه عبثا حتى رأى والدته قد علا وجهها الانقباض والحزن ، وكادت تبكى .. فقال وهو بين الاحجام والاقدام : « اذا كان فى نفسى شىء فأنت أحق الناس بمعرفته »

قالت : « قل اذن ياحبيبى » وهمّت اليه وضمته الى صدرها وقبّلته ، وقد كادت تتساقط العبرات من عينيها ..

فقال : « لا حاجة بك الى الخوف يا أماه فان الذى فى نفسى لا يحزنك بل هو سبب كبير لفرحك »

فأشرق وجهها وأبرقت أسرتها وازداد قلقها لاستطلاع أفكاره ، وقالت بلهفة : « قل بالله .. قل ياحبيبى لتسرى عنى وتخفف آلامى » ..

قال : « أنت تعلمين ان أول شىء أسعى اليه فى هذه الدنيا هو فرحك » ..

قالت : « قل اذن قل .. أستحلفك بربك أن تصرح بما فى

نفسك .. »

فقال وقد علا وجهه الاحمرار : « ان فى قلبى مثل ما فى قلبك ، والذى أريده هو الذى تأمرينني باجرائه »

قالت : « وما هو ذلك ؟.. ألعلك اعتزمت أن تتزوج كى تحقق لى أمنيتى »

قال : « وأكثر من ذلك أيضا »

قالت : « ألعلك أحببت أدما التى أحببناها نحن »

فأبرقت عيناه وخفق قلبه عند ذكرها وقال : « نعم يا أماه انى أحبها ، ولا سيما حين تحققت أنكما تحبانها »

فابتهجت وغلب عليها السرور حتى دمعت عيناها ، وهمت الى ولدها تقبله وقالت : « هذا هو مبعث سعادتى ياولدى .. وهذه هى الساعة التى قضيت عمرى فى انتظارها ، فأشكر الله على ما وفقنا له ودبره بحكمته الأزلية »

فقال حبيب : « ولكن هل المسألة موقوفة على رضانا نحن وحدنا ؟.. من يدرى ، لعل الفتاة لا توافقنا على ذلك »

قالت : « اننى واثقة من رضائها ، لأنها على ما يظهر لى تحب مبادءك وتميل الى من كان مثلك ، ولا أظنها تطمع فى أحسن منك ، وهى ليست من الثروة على أكثر مما أنت فيه »

فعاد حبيب الى تعقله ، وفكر فى أمر مستقبله ، وتذكر حاله من الدنيا ، فاذا هو موظف فى الحكومة لا يأمن أن يطرد .. فغلب عليه الخوف من الفشل ، فقال لوالدته : « ولكن هبى أننا متفقان

فى الرأى ، فهل تظنين أن حالتنا تسمح لنا بالزواج ، ونحن فى خدمة الحكومة والطرد آفتنا ، ونحن عرضة له فى كل يوم »

قالت : « ان الرزق على الله ياولدى .. وهذا تدبيره ليس علينا بل على الله ، وأنت الآن لست فى حاجة عاجلة الى الزواج .. وانما نكتفى بعقد الخطبة فقط ، وفى أثناء الخطبة يدبر الله ما يشاء »

فلم يقتنع حبيب بكلام والدته ، ولكن حبه لادما جعله يقتنع ويسلم معها فقال : « صدقت يا أماه ، وبما اننا على وفاق من هذا الأمر فاتمامه سهل .. ولكن امهلينى برهة أفكر فيه ، والله يدبر الأمر ويقضى فيه بحكمته »

فقالت : « صدقت افعل ما بدا لك ، ولنحفظ هذا الأمر سرا حتى يتم باذن الله » .. ثم ذهب كل منهما الى فراشه ..

أما حبيب فظل يفكر فى ادما ، وخطبته لها ، وما دار بينه وبين والدته بشأنها .. وكان على شدة رغبته فيها ، وتعلق قلبه بها ، يشعر باحجام داخلى وتخوف من الاقدام على الخطبة ، وجعل يبحث عن طريقة تبعد عنه هذا الخوف .. فاعتزم أن يكاشف صديقه سليما فى الأمر غدا ويستشيره

- ١٧ -

كشف السر

وفى صباح الغد ، نهض حبيب من فراشه .. وبعد أن تناول شيئا من الطعام ــ كما تعوّد ــ ركب القطار الى القاهرة ، وسار الى الديوان وهو عازم على استشارة سليم .. فلما كانت الساعة الثانية عشرة انتحل سببا اعتذر به لرئيسه للخروج من الديوان قبل الميعاد المعين ، وسار توا الى مكتب صديقه سليم .. فقيل له انه لم يحضر اليوم الى المكتب ، فانشغل باله عليه .. فسار الى غرفته ، فاذا بالباب مفتوح ولا يسمع فى الغرفة صوت ، فدخل ونظر فاذا بسليم على الفراش غارق فى النوم .. فعجب لنومه فى تلك الساعة ، ولاحت منه التفاتة فاذا بورقة ملقـاة على السرير مفتوحة ، ورأى فيها خطا يشبه خط سلمى وكان يعرفه ، فازداد تعجبه ، وأراد أن يوقظ سليم فصبر حتى يرى ما فى الورقة ، فنظر اليها وهو يعـلم أن الاطلاع على خطابات النـاس أمر مذموم .. ولكنه كان مندفعا الى ذلك لما علمه من أمر سـليم ووالدته وتردده .. ولعلمه أنه اذا اطلع على سره ــ ولو بغير علمه ــ فلعله يستطيع أن يساعده

ولكنه كان يخشى أن يستيقظ سليم ، وهو يقرأ الورقة ، فلم يمسكها بيده بل نظر اليها وهو واقف بازاء السرير ، فوقعت

عينه على الفقرة التى تقول فيها : انها تحله من تلك العهود ، وانها تفعل ذلك لاراحته وانقاذه من مخالب التردد ، وهو لم يستطع لاضطرابه أن يقرأ الورقة قراءة كاملة من أولهـا الى آخرها ، ولكنه فهم مضمونها وعجب كل العجب لشهامة تلك الفتاة ..

ثم خطر له أن سليما لابد من أن يكون قد نام باكيا عن غير قصد منه .. وأنه لا يريد أن يطلع أحد على أسراره ، فتراجع من الغرفة وخرج ولم يعلم به أحد لاشتغال أهل المنزل بمهامهم ، ولكنه خشى أن يدخل أحد غيره ويرى مثل ما رأى ، فأغلق الباب وراءه ، وانسل راجعا من حيث أتى .. وهو يفكر فى أمر صديقه ومتاعبه ، وقد نسى ما جاء من أجله .. ولم يعد يستطيع العودة الى حلوان قبل أن يراه ثانية ، ويفهم منه شيئا عن حاله ..

فذهب الى قهوة وجلس فيها برهة وهو فى غاية القلق ، ثم عاد الى غرفة صديقه وطرق الباب .. فناداه سليم بصوت ضعيف أن يدخل فدخل ، فاذا به لايزال نائما وقد أخفى الورقة ، وكلل العرق وجهه وتوردت وجنتــاه توردا مرَضيا ، فحيَّاه فرد التحية وهو فى حالة شديدة من الضعف والكآبة ..

وكان سليم حين شاهد حبيبا ، قد تهيجت عواطفه لتذكره ما كان فى شاغل عنه بالحمى التى أصابته فى ذلك اليوم ، وثارت أشجانه فدمعت عيناه ، ولكنه لم يستطع الا دعوة حبيب للجلوس ، فجلس وقد أثر فيه منظر صديقه كثيرا حتى انفطر له قلبه

فجلس الى سريره ومد يده وأمسك بها يد سليم ، فاذا هى تتقد حرارة ، فعلم أنه مصاب بالحمى ولكنه تجاهل وقال : « مالى أراك فى الفراش ياعزيزى .. هل تشكو من شىء ؟ »

قال : « لا أشكو من شىء سوى الضعف والحرارة ، وكأنى مصاب بالحمى »

قال : « وما سبب هذه الحمى .. هل شعرت بها اليوم أم بالأمس ؟ » قال : « بل اليوم .. وقد كنت بالأمس أشعر بتعب وأرقت قليلا ، فأصبحت اليوم منزعجا ولم أستطع الخروج من الغرفة ، ثم اشتد بى التعب وشعرت بالحمى .. فاستغرقت فى النوم ، وأفقت الآن كما ترى »

***

وكان سليم يخاطبه ، وهو يفكر فى سبب مجيئه اليه فى تلك الساعة على غير المعتاد .. وتذكر كتاب سلمى وحكاية داود فحدثته نفسه ، والنفس أمارة بالسوء ، ان بين ارسال كتاب سلمى ومجىء حبيب علاقة لاتفاق الاثنين فى اليوم ، ولما يخامر ذهنه من نتائج حكاية داود عنه ، ولاح له ان العبارات التى قرأها فى كتاب سلمى مع ما يتجلى فيها من الشهامة وعزة النفس لا تخلو من الاحتيال والمواربة لتستطلع أفكاره ، وخطر له أنها قد بعثت حبيبا ليكتشف لها أثر ذلك الكتاب فى نفسه

غير أن هذه الخواطر كانت تمر بمخيلته ويعترضها سابق ثقته بسلمى وحبيب .. ولكن الغيرة واليأس كانا يرجحان لديه

تواطأهما عليه .. على أنه حاول جهده أن يخفى ذلك الشعور ، وبقى صامتا يتعلل بانحراف صحته وشعوره بالألم والضعف .. وحبيب ينظر اليـه نظر المحب الصادق المخلص الذى يفتدى أصدقاءه بنفسه وقد حدثته نفسه مرارا أن يسأله عن حقيقة حاله.. ولكنه خشى أن يذكره بأمر يود نسيانه لما هو فيه من المرض

***

فلبث الاثنان صامتين مدة لا يتكلمان ، وكل منهما فى هاجس ثم تكلم حبيب قائلا : « كيف تشعر الآن ياعزيزى .. ألعلك تحس بهبوط شديد فى قواك »

فأجاب سليم بصوت مختنق : « لا أراه الا يتزايد وأحس كأن نارا تتقد فى جسمى وصداعا شديدا فى رأسى »

فقال : « هل أدعو لك الطبيب ؟ »

قال : « لا أرى حاجة الى الطبيب الآن ولكن ربما أحتاج اليه بعدئذ » ..

قال : « وماذا تريد أن أقدم لك الآن ؟ .. هل أدعـو لك الخادم يأتيك بشىء من عصير الفاكهة أو شراب الليمون لترتوى وتخفف أثر الحمى عنك »

قال : « لا بأس من ذلك »

فدعا حبيب الخـادم وأمره فأحضر قدحا كبيرا من شراب الليمون، فتناوله حبيب ودفعه الى سليم وأسنده ليجلس ، فتناول سليم القدح وشرب منه جانبا ووضعه على المائدة بجوار السرير ،

وعاد الى التوسد وقد بلل العرق ثيابه ، فاستأذنه حبيب أن يغير ملابسه المبتلة ففعل ؛ وقد أحس ببعض الراحة وكأن المرض كان حاجزا بينه وبين هواجسه .. فحالما أحس ببعض الراحة ، عاد اليه اضطرابه ، وكان كلما نظر الى حبيب يزداد اضطرابا وغيرة ، لما يخطر له من سبب مجيئه فى تلك الساعة على غير المعتاد ، وكيف أن مجيئه لم يحدث الا يوم مجىء كتاب سلمى ، فلاح له أنه جاء بايعاز منها .. وأخذ هذا الظن يتمكن منه حتى قارب الاعتقاد ، فأحب أن يستطلع ذلك منه بالحيلة فقال له : « ومن الغريب مجيئك الىّ اليوم على غير المعتاد ، وأنا فى هذه الحال .. فهل كان قلبك دليلا لك على ذلك أم كيف ؟ »

قال : « وحياتك عندى لم يخطر لى شىء من ذلك قط ، لأنى فارقتك فى الأمس عند عودتنا من الأهرام ، وأنت مسرور منشرح الصدر ، وكنت أظنك تصبح اليوم كذلك ، ولم يكن مجيئى اليك اليوم الا بطريق الاتفاق » .. وأراد حبيب أن لا يذكر سبب مجيئه لئلا يؤدى به الحديث الى الكلام عن ادما وغيرها ، وليس ذلك الظرف مناسبا لاستشارة أو تبادل رأى ، فاستطرد قائلا : « انى أتيت اليك بطريق الصدفة »

ولكن قوله هذا زاد سليما تمسكا بظنه ، اذ كيف يمكن أن يكون الاتفاق قاده الى تلك الغرفة فى وقت لم يكن يخطر لأحد وجود سليم فيه فى البيت ، فحمل قوله هذا محمل التحايل ، ولكنه تجاهل وكظم ما فى نفسه وصمت

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، أحس حبيب بالجوع لأنه لم يتناول الغداء بعد ، فاستأذن فى الانصراف .. وخرج توا الى أحد المطاعم .. وتناول الغداء وهو يفكر فى أمر صديقه وخطيبته وكيفية وصول كتاب والدة سليم اليها ، وأصبح قلقا عليها هى أيضا فنهض وسار الى منزل الخواجة سليمان ، فاستقبلوه كجارى عادتهم من الملاطفة والايناس ، ولكنه لم ير سلمى بينهم فسألهم عنها فقالت والدتها : « انها شعرت فى هذا الصباح بضعف فبقيت فى الفراش » فلم يكرر السؤال ، ولا أراد ذكر شىء عن سليم لئلا ينشغل بالهم عليه ، وبعد أن قضى برهة عندهم ودعهم وانصرف توا الى محطة باب اللوق ، وركب القطار الى حلوان وسار الى منزله ..

***

فاستقبلته والدته وعلى وجهه آثار الانقباض ، فانشغل بالها وخشيت أن يكون لذلك سبب يتعلق بأدما .. فابتدرته بالسؤال عن سبب انقباضه ، فأخبرها أن صديقه سليما مريض

فقالت بلهفة : « وماذا أصابه ياولدى ؟ » ..

قال : « أصابته الحمى وقد فارقته عندما فارقته »

قالت وقد اضطرب بالها : « هل تركته وحده فى غرفته ؟ »

قال : « نعم يا أماه ، وأنا منشغل البال عليه ، اذ ليس عنده من يقوم بخدمته »

قالت : « وكيف تركته وحده وهو غريب لا أنيس له فى هذه

الديار . مســاكين الغرباء .. وياحسرتاه على والدته لو عرفت بمرضه ، أما كانت تسرع اليه لتعنى به وتخدمه »

قال : « لا شك أنها تفعل ذلك ، ولكنها فى الاسكندرية ، ولا أرى داعيا لأن نخبرها بذلك .. وانما ينبغى أن ننظر فى أمره ، ونقوم نحن بواجب رعايته والعناية به »

قالت : « هذا أمر واجب ، وأنا أرى اذا عاودته الحمى فى الغد أن ندعوه ليقيم عندنا بضعة أيام ، ريثما يتماثل للشفاء »

قال : « غدا أذهب اليه وأعرض عليه ذلك »

قالت : « أنا أذهب معك لأن قلبى قد انفطر عليه ياولدى لأنه بعيد عن والدته .. ولكن هل عرفت بمرضه عائلة الخواجة سليمان»

قال : « لا .. وقد كنت عازما على أن أخبرهم بذلك ، ولكننى وجدت سلمى مريضة أيضــا .. فلم أشأ أن أزعجهم ، وخاصة سلمى لأنها مخطوبة له سرا كما تعلمين ، وهى تحبه حبا عظيما .. فغدا أذهب اليه ، وأدبر الأمر .. »

قالت : « حسنا تفعل ، ولكن ماذا فعلت فيمــا يتصــل بموضوعنا ؟ »

قال : « لم أفعل شيئا ، وأعترف لك أنى كنت قد اعتزمت أن أستشير سليما فى الأمر لما بيننا من الصداقة ، ولأنه قبل أن يخطب سلمى استشارنى ، فمن اللياقة أن أفعل مثلما فعل .. والتريث خير لنا .. »

قالت : « بورك فيه ياولدى وبارك الله أعمالك »

وقضوا بقية ذلك اليوم فى أحاديث يدور بعضها حول سليم وسلمى وادما ..

ولكن كيف وصل كتاب والدة سليم الى سلمى ؟.. لقد أخرجته الخادمة العجوز سعيدة ، من جيب سليم كما تقدم .. وكانت قد أدركت فى الأيام القليلة التى عرفت فيها سلمى ، أنها عزيزة النفس أبيّتها لاترضى بالذل ، ولاتحب التزلف .. وأيقنت انها اذا اطلعت على ما كتبته والدة سليم فى حقها نفرت منه .. وقد أعدت العدة لاتمام أمر الانفصال بدهائها ومكرها ، وكانت قد عرفت مضمون الكتاب قبل مجيئها من الاسكندرية لأن سيدتها وردة هى التى كانت تكتب الخطابات الى سليم على لسان والدته ، بواسطة داود ، وكانت سعيدة تعلم بكل حرف يكتب ، وكل حركة تحدث، من هذا القبيل ..

***

وكانت قد اجتمعت بداود فى القاهرة ، فحدثها عما فعله مع سليم .. فترجح لديها أن سليما قد نفر قلبه من سلمى ، وأقل نفور منه يكون كافيا لحل العقد وممهدا للانفصال .. وظنت أن اطلاع سلمى على ذلك الكتاب سوف يؤدى ــ على الأقل ــ الى بعض الفتور .. فيكفى ذلك مع تردد سليم الى الانفصال .. فذهبت بالكتاب خفية وألقته فى أرض غرفة سلمى .. فلما دخلت سلمى للنوم ، رأته فتناولته وقرأته ، فعلمت أن سبب كدر حبيبها انما هو هذا الكتاب وأمثاله ، ولبثت فى غرفتها منفردة مدة تتردد

فى أمرها لا تدرى ماذا تعمل ، ثم غلبت عليها الشـهامة وعزة النفس .. فكتبت اليه ما كتبته كما قرأناه ، وبعثت به مع خادمتها سعيدة ، وأوصتها أن تسلمه اياه يدا بيد ، ولكنها حين دفعت الكتاب اليها شعرت بالندم على ذلك .. وخشيت أن يؤدى ذلك الكتاب الى الانفصال حقيقة .. فعضت على ناجذها ، وحدثتها نفسها أن تمسك سعيدة عن ارساله ، وهمت بأن تناديها فاذا بها قد توارت عن النظر ، فشق عليها الأمر وازداد قلقها لأنها كتبت ذلك الكتاب ــ وهى فى حالة التأثر الشديد ، وقد تغلبت فيها الشهامة ــ ولكنها ما لبثت أن هدأ روعهـا حتى عادت اليها عواطفها ، وأخذت تلوم نفسها على كتابة تلك العبارات ، وخاصة التنصل من العهود التى بينهما .. وحين تتصور أن ذلك الكتاب آل الى الانفصال حقيقة يقشعر جسمها وترتعد فرائصها ويبكتها ضميرها ، فأصبحت من جراء ذلك وكثرة السهر ضعيفة القوى ، فلازمت الفراش تسكينا لما بها واخفاء لهواجسها ، ولكن ذلك كان سببا كافيا لقلق والديها لأنها كانت وحيدتهما ، وكانا يحبانها حبا شديدا ، وكانا معجبين بذكائها ولطفها .. وما كانا ليرضيا بسليم لو لم يلمسا فيه الشـهامة وكرم النفس والصفات التى تؤهله لمستقبل عظيم ، وتأكدهما من محبة سلمى له ..

- ١٨ -

الذهاب الى حلوان

وفى الصباح التالى ، استقل حبيب القطار الأول من حلوان حتى يرى سليما قبل الذهاب الى الديوان ، فدخل الغرفة فاذا به لايزال فى الفراش ، وقد ظهرت على وجهه آثار الضعف والهزال، فحياه وجلس الى جانبه يسأله عن صحته ، فرأى فى خطابه بعض الخشونة ، فعزاه الى ما علم من اضطرابه وكدره ، وواصل تلطفه معه فى الحديث ، قائلا :

ـ ان والدتى تبلغك تحياتها وتتمنى لك شفاء عاجلا ، وكانت تود المجىء معى فى هذا الصباح لمشاهدتك ، ولكنى وعدتها أن آتى بها بعد الظهر .. فكيف حالك اليوم ؟.. أرجو أن تكون قد نمت نوما هادئا

قال : « لم أنم الا يسيرا ، وقد حلمت أحلاما مزعجة .. وقد أرسلت الخادم ليحضر لى دواء للمعدة .. وأوصيته أن يعـدوا لى حساء »

قال : « قد فعلت حسنا ، وها انى ذاهب الآن الى الديوان ، وسأعود اليك بعد الظهر لأطمئن عليك ، وعسى أن أراك بخير » قال ذلك وخرج مودعا ، بعد أن دفع الى سليم بعض الجرائد ليتسلى بقراءتها ..

فلما خلا سليم بنفسه ، أخذ يفكر فى أمر سلمى وود لو يعلم حالها بعد كتابة ذلك الكتاب .. وكأن قلبه دله على انها مريضة مثله وازداد به الهيام ، وتذكر حاله وما هو فيه ، فأخذ فى البكاء وهو يحاذر أن يراه أو يسمعه أحد ، ثم سمع قرع الباب فعلم ان الخادم قادم بالدواء ، فمسح عينيه وأذن له .. فدخل والدواء بيده ، فتناوله وظل بين بكاء وتفكير ..

***

أما حبيب فعاد فى الساعة الأولى بعد الظهر اليه ، ودخل عليه وجسّ نبضه فاذا هو سريع ، والحرارة آخذة فى الارتفـاع .. فأيقن أن الحمى تعاوده ، ولا تلبث أن تشتد عليه وطأتها كالأمس، فقلق عليه ولكنه تجاهل وسأله عن حاله فقال : « كنت فى الصباح أحسن مما أنا عليه الآن .. »

فأخذ يغالطه ناسبا ذلك الى تأثير الدواء ، ثم قال : «ان والدتى ألحت علىّ أن أذهب بك الى حلوان لتقضى عندنا بضعة أيام ، ريثما تستعيد صحتك .. لأن هواء حلوان نقى عليل ، والناس يذهبون اليها لتغيير الهواء بغير مرض .. وبالنسبة لانفرادك هنا ، أرى أن توافقنى على الذهاب »

فتمنع سليم وكبر عليه الأمر ، لما يكنه من الحقد على حبيب ، وقال معتذرا : « لا حاجة بى الى مفارقة الفراش الآن .. ولا أظن أن ثمة ما يوجب الانتقال »

قال : « ولكن الأنسب أن تذهب معى ؟ ..

قال : « لا .. » وأصرّ على الرفض حتى فرغت حيلة حبيب معه ، فظن أن دعوته لا تصادف قبولا الا اذا جاءت والدته معه..

فودعه وخرج ، وسار توا الى حلوان ، وأخبر والدته بالأمر ، وقال : « أرى أن تذهبى معى بعد تناول الغداء فلعله يصغى الى دعوتك » فوافقته .. وبعد أن تناولا الغداء ، ركبا القطار الى القاهرة ..

***

فلما دخلا على سليم ، وجداه مصابا بحمى شديدة ، وهو يئن ويتوجع، فحالما رأته والدة حبيب تناثرت الدموع من عينيها حنوا ولا سيما حين رأته منفردا فى تلك الغرفة ، فتقدمت اليه وقبلته وسلّمت عليه ..

أما هو فحالما رآها تذكر والدته وحنوها .. فهاجت عواطفه وأخذ فى البكاء

فازداد حنو المرأة واستغرقت فى البكاء، ولكنها تجلدت وأخذت تخفف عنه فصاح : « آه يا أماه .. آه .. أين أنت ؟.. »

فازدادت هى بكاء حتى انفطر قلبها وقالت : « لا أراك الله بأسا ياحبيبى .. انى مثل والدتك .. ويعلم الله أنك فى معزة ولدى حبيب » ..

فتذكر سليم حاله مع والدته يوم كان فى حجرها لا شاغل له الا هى .. ولم يكن يعرف الحب ولا حدث له مثل ما حدث .. فهاجت أشجانه وأخذ فى البكاء ، وتمنى لو تعود اليـه الايام

الماضية وينسى ما قاساه بسبب الحب ، ولكنه كان يفكر فى ذلك ويبكى وهو يود كتمان كل شىء »

أما حبيب فلما شاهد ذلك من صديقه ، لم يتمالك عن البكاء .. اذ تذكر متاعب صديقه مع والدته بسبب سلمى ، فحوّل وجهه عن السرير لئلا يلحظ سليم بكاءه فتزداد أشجانه »

فقضوا برهة فى مثل ذلك ، ثم لبث الجميع صامتين لا يتكلمون ، وبعد قليل ، تقدمت المرأة الى سليم وقبّلته قائلة : « برضاء والدتك ياحبيبى أن تذهب معى الى حلوان »

فلما سمع منها ذلك كاد يصرح بما فى ضميره لشدة تأثره من تلك العبارة ، لعلمه أن والدته غير راضية عنه ، ولكنه تجلد وصمت ، مسترسلا فى البكاء ..

فأخذت تخفف عنه وتطيب قلبه ، وهو لا يزداد الا بكاء ..

فقالت له : « كفى يا حبيبى .. كفى بكاء .. فان ذلك مضر بصحتك وأنت عليل »

فقال وقد طفحت عواطفه وثارت أشجانه : « انى مستوجب لأكثر من ذلك يا أماه ، انى مستوجب لأكثر من ذلك .. هكذا يكون جزاء الابن العاق ناكر الجميل »

فتعجبت والدة حبيب لهذا الكلام ولم تفهم مراده ، وأرادت أن تسأله عما يقصد .. فأشار اليها حبيب أنه انما يتكلم فى غيبوبة لشدة الحمى .. وما كلامه هذا الا من قبيل هذيان المحمومين .. قال ذلك خوفا من افتضاح أمر صديقه ، وهو يعلم أنه حريص

على كتمانه ..

ثم قال لوالدته : « دعيه الآن ريثما يهدأ روعه ، وها انى ذاهب لآتيه بالطبيب » ..

قال ذلك وخرج توا الى أقرب طبيب .. واتفق معه على أن يشير على المريض بالذهاب الى حلوان لتبديل الهواء ..

فلما حضر الطبيب ، جس نبضه وسأله بعض الأسئلة ، وقاس حرارته فقال : « انه مصاب بحمى شديدة الآن ، ولا يمكنه مفارقة الفراش » ولكنه قال لسليم : « يجب عليك يا عزيزى بعد أن تزول هذه النوبة عنك أن تسير الى حلوان لتغيير الهواء ، وقد يكون تغيير الهواء وحده كافيا لزوال الحمى عنك بغير دواء ، ولكنى أصف لك مع ذلك دواء تتناوله هناك فانه يساعدك فى سرعة الشفاء »

فسأله سليم اذا كان يمكنه الاستغناء عن الذهاب الى حلوان، فقال : « كلا »

فأذعن وهو يئن من شدة وطأة الحمى وقال فى نفسه : « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، فلعلنى أستطيع بوجودى عندهم اذا بقيت حيا أن أستطلع شيئا يرفع عنى أثقال هذا التردد وأتحقق من الأمر بنفسى .. »

وبقى حبيب والدته عنده الى الغروب ، فخفّت عنه وطأة الحمى وسكن روعه ، وصفا لون وجهه .. فهمّا اليه وألحا عليه أن يرافقهما الى حلوان

ولما لم يرَ بدا من ذلك ، نهض من الفراش رغما عنه ، ولبس ثيابه بمساعدة حبيب ، وكانوا قد أعدوا مركبة مقفلة خوفا من برد الليل ، استقلها الجميع وركبوا توا الى المحطة .. ومنها فى القطار الى حلوان ، فأنزلوه فى غرفة أعدوها له .. وبات تلك الليلة مرتاحا ..

***

وفى الصباح التالى ، شعر أنه أحسن حالا ..

أما حبيب فانه بات تلك الليلة يفكر فى أمرِ صديقه ، ويبحث عن طريقة ينقذه بها من تلك الحال .. وقد اعتبر ذلك فرضا واجبا عليه مراعاة لحقوق الصداقة . وبعد التفكير برهة ، عنَّ له ان غدا يوم جمعة ، وليس له عمل فى الديوان ، فيسافر الى الاسكندرية ويجتمع بوالدة سليم ويكاشفها بأمر ولدها ، ويحنن قلبها عليه بسبب مرضه ، ويبين لها انها اذا لم تنثن عن عزمها تفقد ولدها . وأيقن انه اذا فعل ذلك ينجح ، لعلمه بمحبة والدته له .. وانها لم تكن لتعارضه فى أمر الزواج من تلقاء نفسها .. ولا بد من ذوى غرض يحملونها على ذلك ، وبذهابه الى الاسكندرية وقضاء ساعات معها ، يتمكن من معرفة الحقيقة ، واقناع الوالدة فاذا نجح فى ذلك ، يكون قد خدم صديقه أجل خدمة

ولكنه رأى من الخير ــ قبل ذهابه ــ أن يطلع والدته سرا على قصده لئلا ينشغل بالها على غيابه ، فبكر اليها وروى عليها

القصة ، وأطلعها على السر ، وأوصاها أن تكتم ذلك عن سليم كل الكتمان ..

فوافقته على ذلك ، فذهب الى سليم فى غرفته ، وسأله عن حاله فى ذلك الصباح ، فشكر الله على تحسن صحته ، فسر الجميع ومكث عنده برهة ثم خرج دون أن يخبره بذهابه .. وودع والدته ، وسار الى القاهرة باكرا حتى يدرك القطار السريع الذى يسافر من القاهرة الساعة التاسعة صباحا

***

فخطرت ادما فى باله وهو ذاهب الى المحطة .. وأحب أن يمر بمنزلها ، ولكنه قال فى نفسه : « لعلى اذا مررت ، أتأخر عن السفر ، فأنا الآن فى مهمة لصديقى ، ومتى قمت بها يصفو لى الجو وأتمتع برؤية ادما » فسار توا الى المحطة وركب القطار ، ولم يأخذ معه من معدات السفر شيئا لأنه كان عازما على أن يعود الى القاهرة بقطار الصعيد الذى يبارح الاسكندرية فى الساعة الحادية عشرة فيصل القاهرة صباح السبت ، ويذهب توا الى عمله فى الديوان

– ١٩ –

الخرق يزيد اتساعا

أما سليم فأصبح منشرح الصدر كما قدمنا ، ولعلمه ان ذلك اليوم يوم جمعة كان يتوقع ألا يفارق حبيب سريره .. فمضت الساعة والساعتان بعد مشاهدته اياه صباحا ، ولم يره .. فسأل والدته عنه فقالت : « انه ذهب الى القاهرة لبعض المهام » فظنه يعود نحو الظهر ، ولكنه أخذ يفكر فى سبب ذهابه .. فخطر له ما سمعه عنه وعن سلمى ، فثارت فيه الغيرة وحدثته نفسه أن حبيبا انما جاء به الى حلوان ليخلو له الجو بسلمى ، ولبث ينتظر عودته وهو قلق مضطرب.. وظهرت على وجهه امارات الارتباك ، فشعرت والدة حبيب بذلك .. فجاءت الى جانبه ودعت ابنتها شفيقة ، وجلستا اليه تخاطبانه وتحادثانه فى شؤون مختلفة ، لينصرف عما هو فيه

أما هو فحالما رأى شفيقة تَذْكر سلمى ، لم يزدد الا أشجانا ، ولم يزدد وجهه الا انقباضا ، فحارت والدة حبيب فى أمرها ولم تعد تعرف كيف تسليه ، فظنت ان القراءة ربما تصرف أفكاره لعلمها بما يخالج ضميره من التردد فى أمر سلمى ووالدته

فقالت لشفيقة : « أليس عندنا قصص أو روايات من التى يقرأها أخوك » ..

قالت : « ان أخى يضع أوراقه وكتبه كلها فى الخزانة ويقفل عليها والمفاتيح لا تفارق جيبه .. لأنه شديد الحرص على الكتب والأوراق » ..

فقالت : «فتشى لعله يكون قد ترك كتابا منها خارج الخزانة» فذهبت وبعد برهة عادت ، وهى تقول : « لم أجد كتابا ، ولكننى عثرت على المفاتيح فقد نسيها فى جيب المعطف الذى كان عليه فى الأمس» فتهللت الوالدة فرحا وقالت لسليم : « ألا تحب مطالعة القصص يا ولدى ؟ » فانتبه سليم وكان غارقا فى بحار التأمل وقال : « لابأس من المطالعة ، فانها تسلى الحزين وتلهى الموجوع عن أوجاعه » .. قال ذلك وهو يريد اخفاء ما به

فهرولت شفيقة الى الخزانة ، وعادت وفى يدها رواية افرنجية قائلة : « لابد من ان تكون هذه القصة جميلة لأنى رأيتها فى يد شقيقى منذ أسبوع يطالع فيها ، وقد قضى معظم الليل ساهرا فى قراءتها ، فلو لم تكن ممتعة ما شغلته طول الليل »

فتناول سليم الكتاب ، وأخذ يقلب فيه متظاهرا بالقراءة .. فخرجت الوالدة وابنتها من غرفته ، اذ لم يعد ثمة حاجة الى وجودهما ..

أما هو فأخذ يقلب فى أوراق الكتاب ، وأفكاره تدور حول حبيب وسبب غيابه عن البيت فى ذلك اليوم ، وكلما فكر فى حضوره الى حلوان وغياب حبيب الى قرب الظهر ، يتصوره جالسا الى حبيبته سلمى .. كما رآهما فى المرة الاخيرة بغرفة

الاستقبال ، وكما أفهمه داود .. فتشب نار الغيرة فى جسمه ويكاد يتقد غيظا ، ويتملكه الندم على مجيئه الى هناك ..

وفيما هو يقلب صفحات ذلك الكتاب ، وقعت عيناه على ورقة مطوية ففتحها ، فاذا هى بخط يشبه خط سلمى ، فقرأها فاذا فيها أشعار وعبارات عشق وهيام ، وكانت الورقة التى جاءت حبيبا من ادما ، وكان بين خطيهما تشابه لأنهما تعلمتا الخط فى مدرسة واحدة .. وهو لشدة اضطرابه ، وسوء ظنه بحبيب ، تخيل أن الخط خط سلمى .

فلما قرأ ما بها من احساسات المحبة ، تحقق لديه ما سمعه من داود ، وأخذ قلبه فى الخفقان ، وجعل ينتفض وهو على السرير كمن أصيب بحمى ، وبردت أطرافه ووقع فى حيرة .. ثم علا وجهه الاحمرار واتقدت فيه حاسة الغيرة والحنق ، ولم يعد يتمالك عن السب والقذف رغما عنه حتى انه وثب من السرير الى الأرض وأخذ يخطر فى الغرفة وهو يعيد نظره الى تلك الورقة ويناجى نفسه قائلا :

ــ آه ياخائنة يا محتالة .. هل الى هذا الحد وصلت وقاحتك؟ كيف استطعت ان تخدعينى بحبك كل هذه المدة.. تظهرين أمامى بمظهر الملائكة وأنت شيطان رجيم .. آه من دهائك ومكرك .. آه . .وأخذ يضرب الأرض برجله ، ثم سمع وقع أقدام خارج الغرفة .. فخشى أن يأتى أحد ويراه فى تلك الحالة ، فهمَّ الى الباب وأغلقه وعاد الى الورقة وأخذ يتأملها .. وكان كلما نظر

اليها تشتعل فى جسده نيران الحنق ، ثم قال :

ــ آه يا سلمى .. هل هذه هى المحبة الطاهرة التى استحلفتنى بها ؟ تبا لك يا خائنة .. لم يعد لدى شك فى خيانتك . وطالما سمعت عنك ، وطالما كذبت ما سمعته وكتمت ذلك فى قلبى حتى كاد يقتلنى ، حرصا على شرفك واجلالا لك عن مثل تلك الاتهامات ، لأنى لم أكن أتصور صدور ذلك منك .. أما الآن وقد تحققت لدى خيانتك ، فقد نبذتك نبذ النواة .. وأصبحت أحمد القدر الذى قاد ذلك الرجل الىّ كى يروى لى قصتك .. آه ياخائنة »

ثم بهت بغتة كأن شيئا اعترض سير أفكاره ، فصمت برهة ينظر الى تلك الورقة ثم قال : « لاشك انك كتبت اليه هذه الورقة منذ اللحظة الأولى التى أحبك فيها .. وانت الذى دفعته الى محبتك .. هل الى ذلك قادتك وقاحتك ؟ ..

« وأنت ياحبيب هل هذه غاية الصداقة ، كيف انطلت علىّ صداقتك كل هذه السنين وأنت تتظاهر أمامى بالاخلاص .. آه ما أبعدك عن الصداقة ، ولكن اللوم عليك أقل كثيرا مما هو على تلك التى ملكتها قلبى ، ووهبتها روحى ، وقاومت والدتى المسكينة من أجلها ..

« آه ياوالدتى .. آه .. اصفحى عن عقوق ابنك وجهله .. ويل لمن لا يطيع والديه اننى أستحق أكثر من هذا الشقاء .. ولكن هذه الورقة قد رفعت عنى ثقلا كبيرا ، لأنى تحققت من الأمر

بنفسى وعرفت الصديق من العدو ..

« فالآن ماذا أفعل ؟ هل أخرج من هذا البيت وأقصد والدنى وأستغفرها ، وأقبّل قدميها قبل يديها لأنى تحققت من صدق نصيحتها .. آه آه آه من الحب فانه يعمى البصيرة »

ثم أحسَّ بتعب من وقوفه فصعد الى السرير ، واستلقى وقد غلب عليه البكاء ، فبكى حتى جفت دموعه .. وأعقب هذا البكاء تعب شديد ، فسكت .. وأخذ يفكر فيما اتفق له ذلك اليوم وهو فى شدة الألم ، ثم يتذكر ذهاب حبيب وتأخره ، وقد دقت ساعة البيت اثنتا عشرة دقة ، وآن وقت الغداء ولم يحضر ، فتصور انه لابد فى بيت سلمى ، يستمتع بحديثها ، ويقضى ذلك النهار عندها ..

وفيما هو فى ذلك سمع طارقا يطرق الباب ، واذا بوالدة حبيب تدخل وفى يدها آنية مليئة بحساء اللحم .. فحالما رآها اختلج قلبه ، فقدمت له الطعام فلم يتحرك لتناوله ، فخاطبته بكلام رقيق قائلة : « هل تريد قليلا من الحساء يا ولدى ؟.. »

قال وقد تحير كيف يجيب : « لا .. لا حاجة لى فى الحساء »

فعجبت لجوابه على هذه الصورة وقالت : « ما بالك ياعزيزى هل تشعر بالحمى ؟ »

قال : « نعم »

قالت : « ولكن ذلك لايمنعك من أن تتناول شيئا من الحساء لأنه يعيد القوى »

فقال لها نافرا : « وأين الخواجة حبيب ؟ »
قالت : « لم يعد يا ولدى »
قال : « وأين ذهب ، واليوم يوم جمعة لا عمل عنده .. »
قالت : « لا أدرى ياعزيزى ، ولعله ذهب فى مهمة ، فدعاه بعض أصدقائه ليتغدى معهم »

فازداد قلقه وتصور انه دعى للبقاء فى بيت سلمى يغازلها ويحادثها ، ولما تصوّر ذلك هبّت النيران فى جسده ..

كل ذلك ووالدة حبيب واقفة ووعاء الحساء فى يدها .. ثم قدمته اليه فهمّ أن يتناوله ويده ترتجف من التأثر ، فانسكب جانب منه على المنشفة التى كانت قد وضعتها له على السرير .. فخشيت أن يخجل من ذلك ، فبادرته قائلة : « لابأس يا ولدى » وهمّت الى المنشفة فأبدلتها ، ودفعت اليه الملعقة ، وتركته وخرجت لتأتى اليه بشىء آخر

فحاول أن يأكل ، ولكنه لم يستطع.. فوضع الاناء على منضدة بجانب السرير ، واستلقى متظاهرا بالتعب والحاجة الى النوم ، وكان فى الواقع حينذاك أردأ حالا من الأمس ، ولكن اضطرابه وغضبه أنسياه كل تعب ، حتى أحس انه يستطيع الوثوب من علو شاهق الى مسافة أذرع

فعادت اليه تلك المرأة ببعض اللحم المشوى ، فاذا هو نائم مغمض العينين .. ولم يتناول شيئا من الحساء ، فأخذت القصعة ، وعادت وهى تظن أنه يفضّل النوم ، وأغلقت الباب وراءها ..

أما هو فعاد الى هواجسه ، يردد ما قرأه فى تلك الورقة ، وما سمعه عن حبيب وسلمى .. وكلما استعاد فى ذهنه كلامها وأحاديثها عن مقدار حبها له ، وتكريس نفسها لأجله ، تعترض أفكاره الغيرة عليها من حبيب ، فتهب فيه نيران الغضب ، ويهم كأنه يريد قتلها .. !

ومما زاده يقينا ، لما سمعه وقرأه ، غياب حبيب ذلك اليوم ، وقد جاءت الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يعد ، حتى أصبح ذلك البيت غشاوة سوداء على عينيه ، وكم تمنى لو انه لم يأت اليه ، وحسب انها مكيدة من حبيب أوقعه فيها .. وغلب عليه الندم لمخالفة والدته ، وجعل ضميره يبكته على عدم طاعتها .. وحين كان يتصور انها تكدرت بسبب ذلك ، كانت تهيج فيه عواطف الحنو والأسف فيبكى . وجملة القول انه قضى بقية ذلك اليوم فى مثل هذه الهواجس .. وكان خائفا من عودة الحمى عليه شديدة ، بسبب ما تعرض له من الانفعالات ..

- ٢٠ -

حبيب فى الاسكندرية

فلنترك سليما وشأنه ريثما تهدأ عواطفه ولنعد الى حبيب ، فقد تركناه مسافرا فى القطار السريع فى صباح ذلك اليوم الى الاسكندرية ، وكان يعرف منزل والدة سليم لأنه أقام فى الاسكندرية فى الصيف الماضى ، وكان يتردد عليهم .. وله مع فؤاد شقيق سليم صداقة ومحبة ، وكان يسر من حديثه لما فيه من السذاجة وسلامة النية

فلما وصل به القطار الى الاسكندرية الساعة الواحدة بعد الظهر ركب عربة وطلب شارع المسلة ، فوقفت به العربة بقرب بيت فؤاد ، فتحول منها وطرق الباب فاستقبلته سيدة متوسطة العمر ، عليها ثياب البذخ والغنى ، معتدلة الجسم مع ميل الى السمن ، وعلى وجهها مظاهر التصنع والبهرجة من أبيض وأحمر

فلما وقع نظره عليها ظن نفسه قد أخطأ البيت فخاطبها قائلا :

« هل هنا بيت الخواجة فؤاد ؟ »

قالت : « نعم .. ولكنه ليس هنا »

وقرأ على وجهها بعض الارتباك ، فخشى أن يكون قد كلمها بشىء من الخشونة .. فتكدرت منه

فتلطف فى السؤال ، وهو يقول : « وهل السيدة والدته

غائبة أيضا ؟ » ..

قالت : « كلا ياسيدى بل هى هنا .. تفضل »

فدخل ونادت الست أم فؤاد ، فجاءت وهى فى لباس بسيط الزى ، ووجه تلوح عليه ملامح السذاجة والاخلاص يكدره بعض الانقبـاض .. فحالمـا وقع نظرها على حبيب ، ترقرقت الدموع فى عينيها ، وهمَّت اليه فقبلته وضمته الى صدرها ، قائلة : « أهلا وسهلا بعزيزى حبيب .. أهلا وسهلا »

فقـبَّل يدها .. ودخلت به الى غرفة الاستقبـال ، وهى لا تتمالك عن البكاء لتذكرها ولدها سليما لأنه كان رفيقا لحبيب فى صغره .. يأتيان البيت غالبا سويا

فأدرك حبيب سبب بكائها ، ولكنه تجاهل قائلا : « كيف حالك ياسيدتى ؟.. وكيف الخواجة فؤاد والأولاد ؟ »

قالت : « كلهم بخير .. وكيف فارقت سليما ؟.. ولماذا لم تأت به معك ؟ »

قال : « جئت على حين غفلة ، ولم أره قبل مجيئى .. وهو بخير يطلب رضاك »

فتنهدت تنهدا عميقا ، ولم تجب ..

أما تلك المرأة البدينة فانها تكدرت من مجىء ذلك الشاب ، اذ كانت فى شغل مع أم فؤاد ، فبعد أن دخلت الى قاعة الاستقبال وجلست هنيهة نهضت تريد الخروج ، وطلبت قبعتها

فقالت لها أم فؤاد : « تفضلى ياست وردة ، لم يحن وقت

الانصراف بعد » ..

قالت : « لابد لى من الذهاب ياعزيزتى ، وأما ذلك الأمر فأنا أتممه اليوم بالنيابة عنك .. »

فقالت : « شكرا ياعزيزتى ، ضاعف الله خيرك »

وخرجت لوداعها ، ثم عادت الى حبيب وجلست اليه ، وقد لمست مظاهر التعب والسفر على وجهه ، فقالت : « لعلك قادم الآن من القاهرة ؟ .. »

قال : « نعم .. انى قادم فى هذه الساعة من المحطة »

قالت : « وما سبب مجيئك ؟.. خيرا ان شاء الله »

قال : « ليس الا الخير ياسيدتى »

قالت : « وكيف فارقت سليما ؟ .. »

قال : « قلت لك انه بخير بحمد الله ودعاك ورضاك »

قالت : « ولكن .. » وسكتت كأنها تريد أن تقول شيئا ويمنعها الحذر

فقال حبيب : « ولكن ماذا ؟ »

قالت : « آه من سليم .. لعله قص لك الحكاية .. »

قال وقد أراد التجاهل : « وأية حكاية ؟ .. »

قالت : « حكاية تلك الفتاة وقد خدعوه بها .. سامحهم الله » . وتناثرت الدموع من عينيها ..

قال حبيب : « وأية فتاة ؟ .. »

قالت : « كتب الىَّ منذ بضعة أشهر ، انه يريد خطبة فتاة من



« فحالما وقع نظرها على حبيب ، ترقرقت الدموع فى عينيها ، وهمت اليه فقبلته وضمته لى صدرها قائلة : أهلا وسهلا بعزيزى حبيب . . . . . »

أهل القاهرة ، وانه أحبها وطلب الىّ أن أحضر لكى يتم العقد عليها بوجودى ، فسألت بعض صديقاتى هنا عنها وخصوصا السيدة التى كانت هنا الآن ـ وقد رأيتها ـ وهى من أهل الغنى والأصل ، وتحبنى محبة أكيدة وتحب سليما محبتها لى ، فأخبرتنى ان الغلام مخدوع ، وان الفتاة لا تليق به ، وقد ذكرت لى عنها حكايات كثيرة ، تقشعر منها الأبدان .. ولا يخفى عليك ان ولدى أعز شىء لدىّ فى هذه الدنيا .. »

قالت ذلك وخنقتها العبرات .. ثم أردفت : « لعن الله الساعة التى سافر فيها الى القاهرة .. ولماذا نحن الوالدات نكره الغربة لأولادنا ، أليس خوفا من مثل هذه الأمور ؟.. فكتبت اليه ، ونصحته بأن يترك هذه الفتاة ، ولا يعود الى ذلك الأمر ..

« فأجابنى مدافعا عنها ، وقد أظهر ميله الشديد لها ، فأجبته فى اصرار على رأيى ، وبيّنت له بعض الأسباب .. كل ذلك وهو متمسّك برأيه وترانى حائرة فى أمرى ، وقد حرّم النوم جفنىّ ، وأسقمنى التعب والسهر .. ولولا هذه السيدة التى رأيتها لكنت قضيت نحبى ، ولكنها تحبنى كثيرا وهى لا تفارقنى ليلا ولا نهارا ولا تنفك عن تعزيتى .. بارك الله فيها »

- ٢١ -

أم فؤاد

وكان حبيب عندما شاهد الست وردة عند الباب ، قد قرأ على وجهها الخبث والخلاعة ، فلاح له ان كل الشقاء والبلاء منها ، ولكنه لم يكن يعرفها قبل ذلك الحين .. فأحب أن يتحقق من الأمر ، فقال :

ـ ولكن من أين تعرفين هذه السيدة ؟.. هل هى جارتك ؟»

قالت : « كانت جارتى قبلا ، وهى الآن تسكن فى محرم بك ولكنها لا تفارقنى ، وترانى مستأنسة بها كثيرا ! »

قال : « ما اسمها ؟ »

قالت : « الست وردة »

قال : « زوجة من ؟ »

قالت : « زوجها مات منذ عدة سنين ، وليس لها الا فتاة لطيفة بارعة فى الجمال واللطف .. آه من النصيب ، فلو كان ولدى ممن قدر لهم السعادة ، ما أخذ سواها ، لأنها فضلا عن جمالها وتهذيبها غنية جدا ، وكل أموال والدتها ارث لها .. ولا يخفى عليك ياعزيزى ان سليما لم يرث مالا من والده ، وهو كامل الأوصاف ولا ينقصه الا المال ، فلو تزوجها لعاش سعيدا ، وتخلص من ارهاق العمل والاهتمام بمطالب العيش .. »

فتحقق حبيب مما كان يظنه ، ولكنه أراد أن يستزيد ايضاحا ، فقال :

« ولكن هل أنت واثقة ان الفتاة تقبله ؟ » ..

قالت : « انى متأكدة من ذلك من فم والدتها ، اذ ليس عندها أعز من سليم ، وقد طلب الفتاة عدة أشخاص أغنياء ولم ترض بهم لأنها هى أيضا تحبه وقد سبق منى الوعد لوالدتها .. ان سليما لا يأخذ سواها »

قال : « هل قلت لها ذلك بدون أن تسأليه ؟ »

قالت : « نعم لأنى لم أكن أظن انه يمتنع ، ولا أن يحيط به قرناء السوء ويخطفوه منى .. ياولداه »

فأدرك حبيب ان البلية الكبرى من تلك الأرملة الداهية .. فقال : « ولكن لنفرض ان سليما أصرّ على عزمه ، فماذا تفعلين ؟ » ..

قالت : « لا أعلم .. ولكننى ربما أموت حسرة عليه ، وقد أقسمت أن لا أحضر عرسه اذا أصرّ على عزمه ، لأنى لا أستطيع رفع رأسى بين الناس ، ولا مواجهة هذه السيدة التى تعاهدت معها على خطبة ابنتها .. وقد رفضت كثيرين من أجل خاطرى وخاطر سليم »

فقال : « ولكن ألا تعلمين ان للحب سطوة وسلطانا ، وأكثر نفوذه على الشبان .. والشاب اذا أحب فتاة ، فعبثا يحاول الناس أن يقتلعوا جذور الحب من نفسه .. وقد قيل :

اذا تألفت القلوب على الهوى
فالناس تضرب فى حديد بارد »
قالت : « ولكن هل يرضيك ان يجرح كرامتى ، وينغص شيخوختى ، وقد تركت الدنيا من أجله ، وربيته بدموع عينى ، وأنت تعلم ذلك »
قال : « نعم أعلم ذلك ، ولست أظن انه ينكره .. ولكنك تقولين انه يصعب عليك الرجوع عن قولك ، وقد وعدت والدة الفتاة ، فكيف يمكنه هو الرجوع عن قوله ، ولا بد انه وعد الفتاة التى أحبها انه سوف يتزوجها ، والشبان أشد تأثرا فى ذلك من السيدات ، فكيف يمكنه الرجوع فى قوله ؟ »
قالت : « ولـــكنه يا ولدى مخـــدوع .. وليس لديه مَنْ ينصحه » ..
قال :« وهل أنت واثقة ان هذه المرأة لم تخدعك ؟ »
قالت : « لايمكن أن أكون مغشوشة وقد جاورت هذه المرأة عدة سنين »
قال : « جلَّ من لايخطىء ياسيدتى .. ولكن كيف تأكدت ان ولدك مخدوع ؟ »
قالت : « لأنى سمعت من الناس ، وهذه السيدة تعرف ذلك البيت ، وقد قصت لى عن الفتاة حكايات كثيرة »
فتبسم حبيب ، وقال : « ولكن شهادتها ينبغى ألا تؤخـــذ قضية مسلمة ، ياسيدتى ، لأن لها مصلحة تروم تحقيقها ، وهى

تزويج ابنتها » ..

فأجابت ، وقد استغربت ذلك منه : « كلا .. لا مصلحة لها يا ولدى لأن ابنتها ليست كاسدة لغناها وجمالها ، وقد أتاها طلاب كثيرون ولم تقبلهم مرضاة لى »

قال : « وهل علمت ان سليما يريد أن يتزوج فتاة غير ابنتها ؟ » ..

قالت : « نعم ، وهى التى كانت تهدينى الى وسائل انقاذه مما وقع فيه .. حتى انها لمحبتها لى ، كانت تكلف بعض الناس بأن يكتبوا له الرسائل بهذا الشأن .. لأنى لا أعرف الكتابة ، ولولاها ما عرفت ماذا أعمل »

فضحك حبيب ، وقدم كرسيه نحوها ، قائلا : « من هنا تفهمين انه لا ذمة لها ولا ضمير .. لأنها بعد أن علمت بأن سليما يريد فتاة غير ابنتها ، ظلت تسعى للايقاع به .. ولو كانت من أهل الذمة والشرف ، لفعلت كما فعلت تلك الفتاة الطاهرة النقية الشريفة » ..

قالت : « وماذا فعلت ؟ »

قال : « انظرى ياسيدتى ، انى أتيت من القاهرة لأخاطبك فى أمر يعود بالخير عليك وعلى ولدك ، فاذا أصغيت لى ذكرته لك .. وأنا لا مصلحة لى فى الأمر سوى خير صديقى وأخى سليم وحفظ كرامتك »

قالت : « تفضل قل .. »

قال : « ان ما سمعته عن تلك الفتاة محض افتراء وكذب لأنها من أطهر البنات عنصرا وأحسنهن خلقا ، ولم يحبها سليم الا لأجل خيره وسعادته وسعادتك أنت ، ولا يخفى عليك ان سليما ليس من الشبان الجهلاء الذين لايميزون بين الخير والشر .. بل هو شاب عاقل مدرب يفهم الأمور كما يفهمها أعقل الناس ، وأنا أعلم جيدا ان الفتاة لو لم تكن مناسبة له وتستحق محبته ما أحبها .. ولا تصدقى ما قيل لك عنها أو عن أهلها ..

« وقد علمت عنها شيئا سريا لم يطلع عليه أحد الا أنا وسليما ، أقوله لك لكى تتحققى من حسن طوية الفتاة وشهامتها » .. فأصغت اليه لتسمع ما يقول ..

فقال : « ان سليما لم يطلع خطيبته هذه على شىء مما دار بينك وبينه من المكاتبات بشأنها قط ، ولكن أحد كتبك اليه وقع فى يدها بطريق الاتفاق .. فكتبت اليه كتابا لو قرأته لقلت ان هذه الفتاة معدن الشهامة وعزة النفس »

قالت : « وماذا كتبت اليه ؟ »

قال : « كتبت اليه تقول انها برغم ما فى قلبها من الحب له ، فانه اذا كان وجودها معه يكدر والدته فانها تحل عقد الخطوبة ، لأن مرضاة الوالدة أولى من مرضاتها . وأنا لم أطلع على ذلك الكتاب الا بطريق الاتفاق ، وسليم لا يعلم انى اطلعت عليه لأنه شديد الحرص على كتمان هذا الأمر »

فتعجبت أم فؤاد لهذه الشهامة ، وتذكرت كيف ان صديقتها وردة ـ على النقيض من ذلك ـ يزداد تزلفها بازدياد الخوف من خروج سليم من يدها .. ولكنها كادت تشك فى كلام حبيب ، فقالت : « هل حقيقى ما تقول يا حبيب ؟ »

قال : « أؤكد لك ذلك يا سيدتى ، ومتى اجتمعنا ووافقتنى على رأيى أطلعك على ذلك الكتاب »

قالت : « ولكن لعلها كتبته على سبيل الحيلة ، لتحبب سليما اليها .. فانك يا ولدى لا تعرف مكر النساء ! »

قال : « أعجب منك ياسيدتى كيف تقولين انى أجهل ذلك وأراك لست أكثر ادراكا له منى .. فقد انطلت عليك حيلة هذه المرأة التى يظهر الدهاء على وجهها ، ولماذا لا تعتبرين أعمالها هذه من قبيل الدهاء والمكر ، وكيف انك تنسبين الخداع والرذيلة الى فتاة نبيلة فاضلة .. وانت لا تعرفينها الا بواسطة هذه المرأة .. وأنا أؤكد لك انها قالت ما قالته لك عنها ، وهى لا تعرفها .. »

قالت : « هى تعرفها جيدا ، وأقول لك انى حين يئست من نجاح الحيلة مع سليم بالمكاتبة .. قد قر رأينا أن نستدعيه الى هنا ونخاطبه فى الأمر شفاها ، وقدمضت هى الآن لتكتب اليه بهذا الشأن عن لسانى »

قال : « ولكن لا أظنه يحضر »

قالت : « ولماذا ؟ »

قال : « بسببك انت ياسيدتى »

قالت : « وكيف ذلك ؟.. ألعله لايريد أن يرانى ؟ »

قال : « ليس من أجل ذلك ، لأنه يحبك حبا أكيدا .. ولولا ذلك ما اهتم باقناعك ، وأطال الأخذ والرد بشأن الفتاة .. ولم يرد أن يعقد عليها رسميا قبل أن تكونى راضية »

قالت : « فاذن لماذا ؟ .. »

قال : « لأنه لايستطيع المجىء »

قالت : « هل هو مشغول ؟.. أم انه لايستطيع أن يفارق خطيبته ؟ »

قال : « ليس مشغولا .. وخطيبته كما قلت لك كتبتت اليه انها اعتزمت أن تحل الخطبة ، وهو لا يذهب اليها .. »

قالت : « ماذا اذن ؟ .. »

قال : « لأنه طريح الفراش ياسيدتى »

فوثبت من المقعد وصاحت : « ويلاه .. هل ولدى سليم مريض بسببى ؟ .. وكيف يكون ذلك بسببى ؟ .. »

قال : « بسبب كتاباتك اليه ، لأنها كتابات تجرح الشعور كما انها أوجدته فى مأزق .. فهو لايريد أن يغضبك ، ولا أن يتخلى عن تلك الفتاة التى أحبها ، وتعاهد معها على أن لا يقترن بسواها »

قالت : « ياحسرتاه يا ولداه .. وهل هو مريض الآن ؟ »

وأخذت فى البكاء وجعلت تلطم وجهها قائلة : « وأين هو مقيم

ومن يعوله ومن يخدمه .. ولدى سليم ، كيف تكون مريضا ولا أكون أنا الى جانبك ؟ ! .. »

قال : « لا ينشغل بالك عليه ، انه عندنا فى البيت فى حلوان ، ووالدتى وشقيقتى فى خدمته لأن والدتى تحبه مثل محبتها لى فلا تقلقى »

قالت : « وهل اشتد عليه المرض ؟ .. وما مرضه ؟ .. »

قال : « أصيب ببعض نوبات من الحمى منذ يومين .. وقد فارقته اليوم أحسن حالا وجئت لأخاطبك فى الأمر وأفهمك حقيقة الحال ــ حتى لا تعتبى علىّ ــ فأنا أقول لك اذا أصررت على مقاومته فانك تكونين سببا لاشتداد المرض عليه .. وكلمة واحدة تدل على رضائك عنه كافية لتخفيف مرضه »

فأخذت تفرك يديها وتقول : « يا ولدى ، يا سليم .. سلامتك ياحبيبى لابأس عليك .. هلمّ بنا ياعزيزى لنذهب الى مصر لأنى لا أستطيع البقاء هنا لحظة بعد الذى سمعته .. كيف أبقى هنا وولدى مريض فى حلوان ؟ .. هيا بنا .. »

فقال : « قد عوّلت على أن أعود فى قطار الصعيد الساعة الحادية عشرة فاستعدى للسفر معى .. »

قالت : « نعم ولكن لابد لى من اعلام الست وردة بذلك »

قال : « وما لنا ولها .. هل هى أكثر شفقة على ولدك منك ــ بفرض تسليمى معك باخلاصها ومحبتها ــ ومع ذلك فافعلى ما بدا لك .. » وقد عوّل أن لايضغط على احساساتها ، عازما

على أن يقنعها بما يريد بعد الوصول الى حلوان ومشاهدة ولدها مريضا ، فانها عند ذلك تبذل كل ما فى وسعها فى سبيل مرضاته ..

ثم سألها عن الخواجة فؤاد وزوجته ..

فقالت : « قد ذهبا فى دعوة للغداء عند أحد الأصدقاء »

فقال : « اذن سنراهما قبل سفرنا .. وها انى ذاهب لبعض المهام فى المدينة ، وأعود مساء ونذهب معا »

قالت : « حسنا » فودعها وخرج يتجول فى بعض أنحاء المدينة

أما أم فؤاد فانها سارت الى الست وردة فى بيتها وكانت وردة قد فارقتها على أن تكتب الى سليم ليحضر للاسكندرية ، وهى التى أغرتها على ذلك ظنا منها انه متى جاء يكون اقناعه سهلا اكراما لوالدته ، هذا الى ما أعدته له من ألوان الدهاء والحيلة .. فمضت من ساعتها ، وكتبت كتابا الى سليم ، وكتابا آخر الى داود ، وقد استطالت غيبته فى القاهرة ، ولم تعلم ما فعله فى المهمة التى سافر من أجلها ، وكان لم يكتب اليها منذ يومين ..

فلما حضرت الست أم فؤاد اليها ، وكانت قد بعثت الكتابين الى مكتب البريد .. أخبرتهـا بمرض ولدها ، وانها مضطرة للذهاب الى هناك للاهتمام به ..

فأظهرت الأسف الكثير ، ولكن أسفها كان لخوفها من اخفاق مسعاها بذهاب تلك الوالدة ، وقالت لها : « بالله لا تذكرى ذلك أمام ابنتى اميلى ، لأنها لو علمت بمرضه ربما تموت حزنا»

قالت : « وأنت أيضا لا تقولى لها » ..

أما ما كان من أمر سلمى ، فاننا تركناها فى غرفتها مريضة من شدة التأثر .. وكانت تنتظر فى أثناء ذلك النهار خبرا عن حبيبها بعد تلاوة هذا الكتاب ، ولكن مضى معظم النهار ولم تعلم عنه شيئا ، فانشغل بالها .. وربما ندمت على كتابة ذلك الكتاب اليه ، وأحست انها تعجلت فى كتابته ، وهى فى حال الانفعال الشديد ، وكان يجب ان تتأنى اذ ربما يترتب عليه ما لا تريده ، وقضت عصر ذلك اليوم تتقاذفها الهواجس ، وكانت كلما فكرت فى الكتاب يخفق قلبها ..

أما والداها فلم يفارقا سريرها الا اذا جاءهما ضيف أو زائر ، فيخرج أحدهما أو كلاهما لمقابلته .. وكانت سعيدة العجوز أكثر الجميع اظهارا للحزن ، لا تبرح سرير سيدتها ، منتظرة أمرها فى خدمة أو اشارة

وكانت سلمى كلما سمعت طرقا على الباب ، تظن سليما قادما كجارى عادته ، ثم تتذكر كتابها اليه فيخفق قلبها وتتألم ندما على كتابته لأنه منعها من مشاهدته ، وقالت فى نفسها : « كان يجب أن آخذ الأمر بالتأنى ولا أجلب لنفسى هذا البلاء ، وكانت تريد البكاء فلا تستطيعه ، أو تمنع نفسها خوفا من انكشاف أمرها لدى والديها ، وهذان كانا ينتظران قدوم سليم فى عصر ذلك اليوم كجارى العادة .. ولما جاء الغروب ولم يحضر ، انشغل بالهما عليه ولم يذكرا ذلك أمام سلمى خوفا عليها

- ٢٢ -

ادما

أما ادما فقد تركناها قلقة مضطربة بعد عودتها من الأهرام ، لأنها كانت تنتظر مجىء اليوم التالى بفارغ الصبر ، لعلمها ان حبيبا لابد من مجيئه اليها ليصارح كل منهما الآخر بما فى قلبه من لواعج الحب ..

فباتت تلك الليلة ولم تنم الا يسيرا ، وقضت الصباح التالى الى بعد الظهر ، تعلل نفسها بمجيئه عصر ذلك اليوم ، بعد خروجه من الديوان ..

وكان فى منزلها ساعة كبيرة معلقة فى بهو الدار .. فكانت تنظر اليها كل لحظة تنتظر الوقت الذى ظنته يأتى فيه ، ووالدتها فى غفلة عن ذلك . أما هى فلم ترفع نظرها عن الساعة حتى حدثتها نفسها لفرط قلقها ومللها من الانتظار .. أن تدير العقرب بيدها وتقرب وقت الميعاد . كل ذلك وأفكارها سابحة فيما دار بينها وبينه بالأمس بجوار أبى الهول ، وتعد نفسها بمخاطبته متى حضر ، وجعلت تستعد ببعض العبارات لتقولها له معبرة بها عن احساساتها

فلما كانت الساعة الثانية بعد الظهر أخذ قلبها فى الخفقان ، وجعلت تطل من النوافذ والشرفات الى الشارع لعلها تراه قادما ، وحين تمل الوقوف فى الشرفة (البلكون) ، تعود الى

غرفتها لايستقر لها قرار ، فاذا سمعت صوت عربة تنهض مسرعة الى الشرفة فلا ترى حبيبها ، فتقف مذهلة مبهوتة وعيناها متجهتان الى الشارع على مسافة بعيدة ، فاذا رأت شبحا ظنته حبيبا ، فاذا اقترب من البيت يخيب ظنها .. فتعود الى غرفتها وتنظر الى المرآة لترى اذا كانت أهلا لاستقباله ، وتعلل نفسها بالتفتيش بين الكتب والأوراق .. وهى مع ذلك تحذر أن تدرك والدتها ما هى فيه من اضطراب ..

ثم تعود الى النافذة ، فتظل منها مسندة يدها عليها ، وهى تنظر الى الشارع ثم تعود الى الشرفة ، ثم تعود الى الغرفة ، ثم تنظر الى الساعة فتراها تمشى الهوينا ، ولم يكن لديها أطول من ذلك اليوم قط .. لأنها بينما كانت تظن ان الساعة قد دارت دورة ، تنظر اليها فاذا هى لم تدر ربع دورة

وفى نحو الساعة الرابعة ، فيما هى مطلة من النافذة شاهدت شبحا كثير الشبه بحبيب ، فخفق قلبها وارتعشت ركبتاها وبردت أطرافها .. وأمعنت نظرها فيه ، وقد أبرقت أسرّتها حتى كادت تطير اليه شوقا ، ولما اقترب قليلا رأته ينظر الى بيتها .. فأحبت أن تقف لتقابله من أعلى الشرفة ، فاذا به قد انعطف فى العطفة المؤدية الى بيت الخواجة سليمان ، فأحست كأن قلبها سقط من مكانه ، وعلا وجهها الانقباض رغما عنها ، وهاجت فيها هواجسها وهى لا تصدق انه يمر بقرب البيت ولا يدخله أو يسأل عنها ، فأخذت ترجم بالغيب تتقاذفها الظنون ، ولكنها لم تستطع صبرا

على ذلك .. فأرادت أن تتحقق اذا كان هو حبيبا ، وهل دخل بيت الخواجة سليمان ، فدخلت بيت الجيران وفيه نافذة تطل على باب بيت الخواجة سليمـان ، وجعلت تنظر من خـلال (الاباجور) ولايراها أحد ، فاذا به قد دخل ذلك الباب .. فلم تتمالك عن الارتجاف والارتعاش غيرة عليه ، وصارت تحسب لذلك ألف حساب ، ثم قالت فى نفسها لعله يريد المرور بنا عند عودته من هناك .. فلبثت تنتظر عودته ، وهى مطلة على الشارع من النافذة ، فاذا به عائد ولكنه لم يعرج نحوها وانما نظر وراءه الى البيت ، وحول وجهه وعاد الى المدينة ، وهى لكبر نفسها وخجلها لم تظهر أمامه فى الشرفة أو تشير اليه ليحضر .. ولكنها لبثت تنظر اليه وهو ماش حتى توارى عن نظرها ، فأحست كأنه قطعة من قلبها وقد فصلت بسكين ، وازداد اضطرابها وامتقع لونها ، ووالدتها فى غفلة عن ذلك لخلو ذهنها مما يشغلها ..

فعادت ادما الى غرفتها وجعلت تفكر ، وقد خالج قلبها ألف ظن ، ولكن حسن الظن غلب عليها .. فقالت فى نفسها : « لعله ذهب فى عمل ، لأنى رأيته مسرعا ، وسيعود الى هنا .. »

وما زالت فى مثل ذلك حتى غربت الشمس ، ولم يأت أحد فاشتغل بالها وخاب ظنها .. ولما أخذ الظلام يسود ، شعرت كأن لوحا من الحديد قد أثقل صدرها ، وأظلمت الدنيـا فى عينيها وضاق خلقها وانقبض وجهها ، وصغرت نفسها وتحول سرورها الى كدر ، وحارت فى تعليل ما رأته ذلك اليوم حتى ظنت فى

حبيب الفتور فى محبتهـا ، وانه انما أظهر لهـا ذلك بالأمس أستطلاعا لخفايا قلبها ، وانه لم يعقد النية على حبها .. وطورا تحسب ان تأخيره لشاغل منعه عن المجىء .. وكانت كلما تصورت فتوره ، تندم على كتابة ذلك الكتاب اليه .. وترى انها فعلت فعلا يتنزه عنه أمثالها ، لما فيه من الخفة .. ولاسيما اذا كان أملها فى غير محله .. وشعرت كأن حواسها كلها مرهفة تتأثر لأقل عامل ، وقلبها لا ينفك عن الخفقان لأقل حركة أو صوت ، ولا سيما اذا كان صوت صعود على السلم ، أو صوت قرع على الباب ، أو صوت عربة فى الشارع .. وكلما دقت الساعة ، زادت دقات قلبها ..

وعند العشاء سمعت صوت صاعد على السلم فاختلج قلبها ، وهمت الى الباب لتفتحه .. ولكنها علمت قبل فتحه ان القادم والدها ، على انها كذبت نفسها .. وفتحت الباب ، وأطلت فاذا به والدها .. فعادت خائبة تحاول اخفاء عواطفها رغما عنها ، وقد كانت ممن يستطيعون التسلط على عواطفهم ، ولكن عواطفهـا كادت تعصاها فى ذلك اليوم .. لمـا كان يظهر على وجهها من ملامح الانقباض واليأس رغما عنها

فلما دخل والدها حيته كالمعتاد ، وأخذت تحدثه أحاديث متنوعة اخفاء لما يضطرب فى جوارحها .. وبعد أن ارتاح نوعا ، مدت المائدة فجلسوا للطعام ، وادما لم تستطع أن تأكل ، ولكنها تظاهرت انها تأكل ..

وبعد العشاء ، عللت نفسها وغلب عليها الأمل بأنه قد يأتى ليلا ، فعادت الى الانتظار ، وكلما سمعت حركة يخفق قلبهـا حتى مضى وقت السهر ولم يأت أحد ، فذهب كل الى فراشه .. أما هى فلم تذق طعم النوم ، وقضت طول الليل ساهرة فى سريرها تستأنس بصورة حبيبها ، كما رأتها المرة الأخيرة عند أبى الهول يخاطبها ، وكانت تشغل نفسها بعدّ دقات السـاعة الكبيرة لاستيلاء السكوت التام على البيت وما جاوره .. لايسمع فيه الا صوت الخفراء فى الشوارع ينادون من وقت الى آخر : « وحِّد »

فمضى معظم الليل وهى فى تلك الهواجس ، يتملكها احساس بالندم ، ولا سيما عندما يخطر لها ان عدم مجيئه ناتج عن عدم اكتراث بمحبتها ، وقالت فى نفسها : « لو كان يحبنى مثل حبى له ، ما استطاع أن ينام بدون ان يأتى لمشاهدتى » ثم يخطر لها انه قدم الى بيت الخواجة سليمان ، فتحتدم فى قلبها الغيرة من سلمى .. حتى صارت تشعر نحوها ببغض داخلى مع ما كان لها من المحبة فى قلبها

ثم يخطر لها ان سلمى مخطوبة لسليم ، وهى تحبه كثيرا ، وهو يحبها .. فتضعف غيرتها ، ولكنها حين تتذكر ان حبيبا وصل الى قرب باب بيتها ودخل ذلك البيت ، ولم يدخل ليراها ، تغلب الغيرة عليها .. وكانت اذا فكرت فى ذلك يستولى عليها اليأس ، فتأخذ فى البكاء لخيبة أملها ، وافتضاح أمرها ..

ثم يخطر لها خاطر يستوقفها بغتة ، وتتذكر امارات وجهه والأساليب التى كان يخاطبها بها عند أبى الهول فتعود اليها آمالها ، وتقول فى نفسها : « لا بل قلبه مثل قلبى ، واذا لم يكن مثل قلبى تماما فهو يحبنى ، والظاهر أن محبة جنسنا أشد من محبة جنس الرجال ، فما يؤثر فينا قد لايؤثر فيهم بنفس الكيفية على نسبة واحدة »

وخلاصة القول انها قضت ذلك الليل تتقاذفها عوامل اليأس والرجاء والشك واليقين ، والأمل والخيبة ، والثبات والندم ، والغيرة والحنق الى قرب الفجر ، فغلب عليها النوم فنامت ..

ونهضت فى الضحى ، فغسلت وجهها وهى على يقين انه يأتى اليها فى ذلك اليوم .. ان لم يكن فى الصباح ، فبعد الظهر .. ولا حاجة بنا الى اعادة وصف حالها من القلق والملل ، وكم نظرت الى الساعة ، وكم أطلت من النوافذ والشرفة الى الشارع ، وكم تأثرت لصوت الصاعدين على السلم ، وصوت المركبات ، وكم ضاقت أخلاقها حتى كانت والدتها لا تستطيع الاستفهام منها عن شىء لئلا تكدرها أو تسمع منها نفورا ، وكانت والدتها تنسب ذلك لأسباب مختلفة .. ولكن لم يخطر فى بالها السبب الحقيقى لخلو ذهنها منه ، ولما تعلمه من تعقل ادما ورزانتها وعزة نفسها ، وبعدها عن الاجواء التى تؤول الى الحب ، وما شاكل ذلك ..

ولما كانت الساعة الثانية جعلت تنتظر مجيئه ، فمضت الساعة

والساعتان ولم يحضر ، فملت الانتظار .. وأخذت تشغل نفسها بالتطريز أو القراءة حتى لم تعد تستطيع الجلوس ، فخطر لها أن تذهب الى سلمى ، لعلها تستطلع شيئا عنه هناك ..

فلبست ثيابها ، واستأذنت والدتها وخرجت .. وهى تنتظر أن تقابله قادما ، فلما وصلت الى العطفة المؤدية الى بيت سلمى خفق قلبها لتذكرها مروره هناك بالأمس ، ووقفت برهة تتردد فى الدخول خوفا من أن يكون آتيا اليها فيذهب الى بيتها ولا يراها . وأخيرا قادتها قدماها الى بيت سلمى ، فدخلت بعد أن قرعت الباب ، فاستقبلتها الوالدة وعلى وجهها أثر الانقباض ، ولم يكن الخواجة سليمان فى البيت ، فسألت عن سلمى فقالت لها : « انها فى الفراش مريضة »

فاستأذنتها فى الدخول عليها ودخلت .. فلما رأتها سلمى ، تذكرت سبب مرضها الذى قادها اليه الحب ، وكيف ان ادما سعيدة لم يتعلق قلبها بأحد .. فحسدتها على حالها ، ولم تتمالك عن البكاء رغما عنها ..

فعجبت ادما لذلك وهمّت اليها وحيتها ، وسألتها عما بها ، فأخذت تنتحل أسبابا مختلفة لتموّه عليها .. ولكن عواطفها كانت قد طفحت ، وهى تتألم من كتمان أمرها ، وودت أن تكاشف به أحدا لتفرج كربتها .. وكانت تحب ادما كثيرا ، وتأنس اليها وتلتذ بحديثها .. وقد حدثتها نفسها أن تكاشف هذه الصديقة لثقتها فيها ويقينها باخلاصها .. ولكن ذلك الخاطر

لم يكد يخطر لها حتى اعترضه ميل المحبين الى كتمان أمرهم ، وغلب عليها الحياء فسكتت

وأدركت ادما ارتباكها ، فابتدرتها بالسؤال قائلة : « مالى أراك ياعزيزتى مضطربة ؟ »

فأخذت تعتذر لها وتنسب ذلك الى انحراف صحتها ، ولكنها لم تتمالك أن قالت : « هنيئا لك يا ادما »

فوقعت تلك العبارة فى قلب ادما موقع السهم لتذكرها حالها ، وغلبت عليها اساءة الظن .. فظنتها تعلم بأمرها مع حبيب ، وانها تحسدها عليه ، ولم تستطع مكاشفتها فى ذلك ولكنها قالت لها : « على أى شىء تهنئيننى ياعزيزتى ؟ »

فأرادت التصريح لها بأنها تغبطها لخلو ذهنها من الحب ، فغلب عليها الحياء ، وقالت : « أقصد انك صحيحة وأنا عليلة » ولكن ادما أدركت انها تقول ذلك تسترا وراء ماخشيت اظهاره .. فازداد قلقها ظنا منها انها تعلم بما بينها وبين حبيب ، وانها تقدم لها التهنئة من أجل حبه لها ، غير ان ذلك الظن كان ضعيفا جدا لما يغشاه من علمها بسابق ارتباط سليم بها ، وما بينهما من المحبة

فلبثت الاثنتان صامتتين برهة وسلمى تفكر فى سليم ، وتود أن تعلم شيئا عنه بعد اطلاعه على كتابها .. أما ادما ، فكانت كأنها على جمر الغضى خوفا من أن يأتى حبيب الى بيتها فى ذلك الحين ، فنهضت مودعة وعادت الى البيت وهى تظن انها ستجد حبيبا هناك ، ولكن خاب ظنها لأنها لم تجد أحدا سوى والدتها ،

فأظلمت الدنيا فى عينيها .. وقضت بقية ذلك اليوم كما قضت الأمس ، وباتت فى ارتباك وقد أخذ اليأس منها مأخذا عظيما ..

ولما أصبح الصباح ، نهضت وقد شحب لونها من كثرة الارتباك والسَهَر ، فلاحظت والدتها ذلك ، فسألتها عما بها .. فقالت : « لا أعلم سوى انى أشعر بانقباض لغير سبب أعلمه »

فقالت لها : « هلم بنا نخرج للنزهة فى هذا الصباح ، فانه يوم جميل » وألحت عليها فوافقتها ، فخرجا نحو الساعة التاسعة تتمشيان فى الشارع نحو المهمشة ، فمرا بجانب محطة السكة الحديدية ، وادما غارقة فى بحار الهواجس .. وبعد أن تجاوزتا المحطة لاحت من ادما التفاتة الى الخلف ، فاذا بحبيب يسرع نحو المحطة فخفق قلبها ، وكانت تنتظر أن يلتفت نحوها فلم يلتفت،ثم رأته قد تحول نحو المحطة ودخلها فاضطربت .. ولاسيما لعلمها أن الساعة وقت مسير القطار السريع،فترجح لديها أنه مسافر فيه اذا لم يكن قد ذهب لوداع أحد .. فأقنعت والدتها بالبقاء هناك ، ريثما يقوم القطار ، لترى اذا كان يعود .. وقد قام القطار ولم يعد أحد .. فتحققت أنه سافر فازداد بلبالها ، ولم تعد تعلم كيف تعلل ذلك ، فسارت مع والدتها وعادت بعد النزهة وهى فى هاجس عظيم تتردد بين اليأس والغيرة ، فدخلت غرفتها وأخذت فى البكاء خفية عن والدتها ..

- ٢٣ -

كتاب سليم

أما سليم ، فقد تركناه غاضبا مضطربا ببيت حبيب ، ينتظر مجىء صديقه .. ولما كان العصر ولم يحضر ، لم يعد يستطيع البقاء ، وحدثته نفسه أن يخرج من البيت للنزهة ، فنهض والحمى لاتزال تؤلمه لكنه كان فى شاغل عنها باضطرابه وغيظه ، فلما رأته والدة حبيب يلبس ثيابه ، سألته عما يريد ..

قال : « أريد النزهة فى حديقة حلوان ترويحا للنفس » فشعرت أن حبيبا قد أخطأ بذهابه بغير علمه ، وعلمت أن ذلك يسوء سليم .. ولكنها حين تذكرت أنه انما ذهب لمصلحة يقضيها له ، قالت فى نفسها : « متى عاد يعلم سبب غيابه فيعذره »

فخرج سليم بنفسه ، وقد جعل تلك الورقة فى جيبه وسار حتى بلغ الحديقة .. فسمع صوت قدوم القطار من القاهرة .. فسار نحو المحطة فاذا بالقطار قد وقف ونزل الركاب منه ، وكان يظن أنه يلاقى حبيبا فيه ، وهو لايريد أن يلاقيه لشدة انفعاله واضطرابه لأنه لم يكن يعلم كيف يخاطبه لو رآه..فحدثته نفسه أن يستقل ذلك القطار ويعود الى القاهرة هربا من البقاء هناك ، حتى لا يشاهد حبيبا ، لعلمه أنه متى شاهده يزداد اضطرابه ، وربما سبب له ذلك زيادة المرض فركب فى القطار .. وعاد الى القاهرة وسار توا الى

غرفته ، وقد أنهكه التعب والحمى لم تفارقه ، فلما دخل الغرفة وخلا بنفسه جعلت تتقاذفه عوامل الاضطراب والغيرة ، وأخرج تلك الورقة من جيبه وتأملها فازدادت هواجسه ، وتعاظم حنقه على سلمى ، فرأى أن يكتب اليها كتابا يكاشفها بما فى قلبه ويوبخها على ما اعتقده فيها من تدنيس حرمة الحب .. فأغلق باب الغرفة وجلس الى المنضدة وآلام الحمى تتزايد ، وأخذ قلما وورقة وكتب :

« آه ياسلمى ..

« هذا كتابى أكتبه ولا أدرى اذا كنت آتى على آخره قبل أن آتى على آخرين .. أكتبه والنار فى قلبى ، والحمى فى رأسى ، والقلم يرتجف بين أناملى ، وهو حقيقة اخر ما أكتبه اليك .. وقد كان فى نيتى أن أمسك عن الكتابة رفقا بك وشفقة على عواطفك ، ولكننى خشيت أن أقضى نحبى قبل أن أطلعك على ما بلغنى وتحققته عنك .. آه ياسلمى ، وا أسفاه على الأيام التى قضيتها متعلقا بك جانحا اليك ، أناضل عنك وأدافع عن طهرك . فكم كذبت واشيا وردعت معنفا ، وكم أغضبت تلك الوالدة التى قضت أشهرا لا تعرف النوم .. خوفا على من عواقب الاندفاع حتى أتيح لى سماع حكاية من رجل قبيح الوجه ، ساقته الى الأقدار ، قص على قصة ذهبت برشدى غيرة عليك من شاب طالما أخلصت له الصداقة وفتحت له مكنونات قلبى ، فاذا به عدو فى ثياب صديق . ولكننى مع ذلك أجللتك عن تلك التهم ، وصبرت صبر

الرجال ، حتى تبينت لى صحتها ، فقدعثرت اتفاقاعلىورقة كتبتها يدك الى ذلك الصديق ، وفيها من عبارات العشق والهيام مافيها، ولكى تتحققى مما اكتشفته .. فهاهى ذى الورقة مرسلة اليك .. اقرئيها ، فاذا كنت سلمى التى أعهدها ، وكانت عواطفك لم تتبلد بعد .. فاندبى الفضيلة ، وابكى الطهر ، ونوحى على المحبة كما بكيتها أنا .. واعلمى أنك قد جئت أمرا ، ذهب بآمالنـا أدراج الرياح ..

« أما أنا فأكتب ولا عقل لى لشدة الحمى فى بدنى . وانما هى العواطف تسوق هذا القلم كيف تشاء . ولكن وا أسفاه وخيبة الأمل ياسلمى ، أين المحبة الطاهرة التى تعاهدنا عليها عند قاعدة ذلك الهرم الذى لايزال قائما ، يشهد على تينك الشفتين وتينك العينين اللتين ألاتتا قلبى بدموعهما حتى كذبت الرواية ، وعدت الى الاخلاص ، ولكن قرائن الأحوال ، وهذه الورقة ، حققت ما كنت راغبا فى تكذيبه غيرة عليك ..

« وأما كتابك الى فلم يزدنى الا سوء ظن فيك ، ولو كانت تلك العبارات صادرة عن قلب نقى كما كنت أعهد فيك ، فانها كافية لأن تجعلنى عبدا رقا لك ، وربما قاومت الدنيا كلها من أجلك .. ولكنها عبارات أتقنت صياغتها ، وأكثرت فيهـا من التمويه .. علما منك بشدة اخلاصى وصدق محبتى

« ولكن الأمر على خلاف ماتتوهمين ، لأن سليما لم يعد ذلك الشاب الغر الذى يأخذ الأشياء بظاهرها ، ويسلم زمام قلبـه

لمن لم ترع زماما ، ولم تستبق حرمة . أقول ذلك وقد ازداد خفقان قلبى لشدة الضعف وعظم الانفعال وارتفاع الحمى ، وربما وقع هذا القلم من يدى رغما عنى

« ولا بد لى قبل أن أترك القلم أن أخاطبك الخطاب الأخير ، فربما اذا نهضت الآن قبل اتمام الخطاب لا أستطيع اتمامه فى فرصة أخرى ؛ لأن الحمى لا تفارقنى هذه المرة حتى تفارق نفسى جسدى ، فيخلو لك الجو ياسلمى .. ولا يعود ثمة من يكدر صفو اجتماعك بحبيبك الذى « لا يخطر غيره فى بالك »

« وا آسفاه ، دعينى قبل أن يجف دمى ، وتقف حركةقلبى ،أن أبكى المحبة الطاهرة التى كانت لك فى هذا القلب الذى ما عرف سواك قبلك ، ولن تمهله منيته ريثما يعرف أحدا بعدك ، اذ لا ألبث أن أختم هذا الكتاب حتى ينهكنى المرض ويشتد بى الضعف ، فأستلقى على السرير أنتظر الراحة الأبدية ..

« أودعك ويا ليتنى ودعتك هذا الوداع والمحبة لاتزال طاهرة فأتوسّد الثرى ، وأوصيك خيرا بتلك الوالدة المسكينة التى لو علمت ما بى لهمت الى وفدتنى بنفسها ، تلك هى المحبة الطاهرة التى لا يمكن أن يكدرها شىء .. ولكنها الآن لا تعلم بما بى ، بل هى ناقمة على ، غاضبة على عقوقى .. فاذا رأيتها بعد موتى ، استغفريها عنى ، لعلها تستأنس برؤيتك لبقائها على اعتقادها بحبِّى لك ..

« آه .. قد انحلت قواى وضعفت عزائمى .. أستودعك هذا

الكتاب سراً يرافقك الى اللحد كما يرافقنى أنا ، لئلا تشوه محبتنا بارجاف المرجفين ، ولوم اللائمين ، واذا كنت لا أغار عليك فانى أغار على تلك المحبة التى ما كان أطهرها .. أستودعك محبتى ويأسى .. والسلام من ...

صريع حبك

سليم

ولم يأت على آخر الكتاب حتى خارت قواه ، ولم يكد يطويه ويضعه فى ظرف حتى شعر بدوار شديد .. فاستلقى على السرير وهو يفكر فى طريقة لارسال الكتاب لسلمى

ولبث مستلقيا حتى الغروب .. فجاء الخادم وأضاء الشمعة وسأله عما يريده من الطعام ، فطلب قليلا من الحساء .. ولم يكن جائعا ، ولكنه خاف من شدة الضعف .. فجاءه بشىء من الحساء فتناوله وهو لايزال يشعر بالحمى ، وقد أحس بعد كتابة ذلك الكتاب أن جانبا كبيرا من متاعبه قد زال عنه ، وقد تخلص من التردد ، ولكنه ظل يفكر فى سلمى ، وماذا يكون من أمرها عند قراءة ذلك الكتاب ، ولكن الغيظ غلب عليه فلم يشفق عليها

وقضى ذلك الليل يفكر فى طريقة لايصال الكتاب الى سلمى ، وهو لا يأمن أن يبعث به مع أحد خوفا من وقوعه فى يد غريبه . وظلت صورة والدته تتمثل له حزينة كئيبة من أجله .. وفكر فى أمره ، وما هو فيه .. وكيف أن أعز الناس لديه فى القاهرة أصبحوا ألد أعدائه ، فكره الاقامة فيها ومال الى تركها والاقامة

فى بلد آخر .. وخطرت الاسكندرية فى باله حيث تقيم والدته ، فاعتزم أن يهاجر اليها ، اذا بقى حيا الى الغد ، حتى يقيم بجانب والدته وينسى سلمى وحبيبا ، والأيام التى قضاها فى القاهرة ولم ير فيها الا المتاعب والبلاء .. وقرر أنه ـ بعد وصوله الاسكندرية ـ يبعث الى وكيله فى القاهرة لينقل المكتب الى هناك ، ويتخلص من جو هذه المدينة مستمتعا بالعيش بجوار والدته وشقيقه

وفى منتصف الليل فارقته الحمى وعادت اليه قواه نوعا ، وأحس كأن حملا ثقيلا تزحزح عن صدره ، فارتاح الى ماعول عليه من السفر ، وصمم أن يترك القاهرة فى صباح الغد

ونام بقية ذلك الليل نوما هنيئا ، وأصبح أحسن حالا لزوال نوبة الحمى عنه .. ولكنه كان يخشى أن تعاوده بعد الظهر كعادتها، فهم فى الصباح ، ولبس ثيابه .. ولم يحمل معه شيئا من أمتعته ، ولكنه أخذ كتاب سلمى فى يده على نية أن يدبر وسيلة يوصله بها اليها ، ويكون على ثقة من وصوله الى يدها

فركب عربة فى نحو الساعة التاسعة ، وتوجه بها الى بيت سلمى وحين بلغت البيت ، قال للسائق : « اصعد الى فوق .. واطلب خادمة تدعى سعيدة ، قل لها أن المخدم يريد أن يخاطبك »

فصعد واستدعاها ، فجاءت .. وحين رأته أخذت ترحب به ، فقال : « لا تذكرى اسمى أمام أحد .. وانما أريد منك أن توصلى هذا الكتاب الى سلمى يدا بيد ، واذا سألك سيدك أو سيدتك

عمن دعاك .. قونى أن المخدم أو أحدا غيره ، كلمك فى شأن من الشئون ، واحذرى أن يعلم والد سلمى بهذا الكتاب »

قالت : « سمعا وطاعة »

فتركها سليم ، وأمر السائق بالتوجه الى المحطة .. ومن هناك ركب القطار الى الاسكندرية

- ٢٤ -

العجوز ورسول السوء

أما سعيدة ، فانها غدت بعد القــاء ذلك الكتاب الى سيدتها ، وما لمسته من عواقب ذلك من مرض سلمى وارتباكها .. غدت متشوقة الى استطلاع نتيجة ذلك .. وكانت تتقرب من سلمى أثناء مرضها وتقوم بخدمتها أحسن قيــام ، حتى كانت سلمى تستأنس بها وتلتذ بحديثها ، أما ســعيدة فلم تكن تتجاسر على استطلاع شيء منها ، ولكنها كانت تنتظر أن تبوح هى بشيء من تلقاء نفسها ، فرأت أنها حريصة على سرها كثيرا . فلما دفع اليها سليم ذلك الكتاب فى غلاف بدون عنوان ، قالت فى نفسها : «هذه فرصــة ثمينة لا يجب أن أضــيعها » وكانت لا تعرف القراءة فذهبت توا بعد ذهاب سليم الى بيت داود ، لكى تطلعه على ذلك الكتاب ..

فلما وصلت اليه رأته جالسا وعلى وجهه أمارات الانقباض ، فحيته وسألته عما به فقال : « انى فى ارتباك عظيم ياسعيدة »

قالت : « خيرا ان شاء الله .. وما سبب قلقك وارتباكك ؟ »

فأخرج ورقة من جيبه وقال لها : « أنظرى الى هذه الورقة انها كتاب ورد الى فى هذا الصباح معنونا من الخارج باسمى » ولكن الخطاب من الداخل موجه لسليم وبامضاء والدته .. ولست

أدرى كيف حدث ذلك ، ولا ماهو معنى هذا الخطأ ؟ »

قالت : « وما الخوف من ذلك ؟ »

قال : « أقول لك انى خائف من هذا الأمر خوفا عظيما جدا ، لأن الخط من الداخل خط سيدتك كتبته على لسان والدة سليم تدعوه فيه للحضور الى الاسكندرية ، وأما سبب خوفى فانى أخاف أن تكون سيدتك قد كتبت كتابين فى وقت واحد ووضعت كتابى فى غلاف سليم ، وكتابه فى غلافى . فاذا صح ظنى يكون قد افتضح أمرنا وانقلبت حيلتنا علينا ، ولا أدرى ماذا أعمل اذا وقع كتابى فى يد سليم .. وأخشى أن يكون فيه شىء يوضح حقيقة الحال ، فيعرف أمرنا وتسوء العاقبة .. »

فقالت سعيدة : « دعنا من هذه الظنون ، وانظر الى ماجئت به الآن » ..

قال : « ماذا ؟ .. »

فدفعت اليه الكتاب قائلة : « مر سليم الآن ، وعلى وجهه أثر الضعف والانقباض ، ودفع الى هذا الكتاب وأوصانى أن أعطيه لسلمى يدا بيد ، وأظنه جوابا على الكتاب الذى أوصلته اليه منها ، كما أخبرتك عنه .. ففضه واقرأه لنرى مافيه »

ففضه وقرأه وهو يتهلل فرحا لنجاح حيلته ، وقد نسى ارتباكه فى أمر الكتاب الذى ورد اليه ذلك اليوم .. وأخبر سعيدة عما فيه ففرحت أيضا ، وقالت : « هاته ولأذهبن حالا وادفعه اليها ، ولا شك أنه سيكون فصلا لكل خطاب .. فوضع لها الكتاب فى

غلاف كما كان ، فأخذته وعادت الى البيت .. فسألتها والدة سلمى عن سبب غيابها فقالت : « ان المخدم جاء يهددنى لأنى خدمت عندكم بغير اذنه .. فقلت له : انى لست خادمة ولكننى مقيمة عند أسيادى تكرما منهم وصدقة على فلم يصدق وذهب ليشكونى .. فتركته وأتيت وأنا لا أبالى به » ..

فعجبت سيدتها لذكائها ودهائها .. واستحسنت منها تلك الحيلة ، ودخلت سعيدة على سلمى وكانت جالسة على الفراش ، وقد تغير لون وجهها وتحول ذلك الجمال الى ذبول .. وعيناها لا تكفان عن البكاء حتى تكسرت أهدابهما ، وكانت فى تلك اللحظة تفكر فى كتابها الى سليم وهى متعجبة من عدم جوابه عليها ، فلما دخلت سعيدة وحيتها ، قالت لها : « ماذا تحملين من أنباء يا خالتى »

قالت : « كل خير ياسيدتى ، ولكننى والحق يقال حزينة جدا من أجل مرضك ، ولا أظنك مريضة كسائر الناس »

قالت : « وكيف اذن ؟ »

قالت : « لأنى لم أر للدواء تأثيرا عليك .. واذا صدق ظنى فانك فى كدر أكثر مما أنت فى مرض »

قالت وقد خفق قلبها ، وأرادت أن تخالفها فى قولها :« ماأدراك أننى كذلك ؟ .. وما الذى يكدرنى ؟ لا .. انما أنا مريضة »

قالت : « لا ألومك على كتمانك لأن البنات يحببن كتمان

كل شىء ، ولكنك ربما اذا كشفت لى عما فى قلبك أستطيع أن أعزيك أو أساعدك ، لأننا نحن العجائز لنا دراية كبيرة فى شئون العالم لكثرة اختبارنا ، وأما أنتن البنات فكلمة ترفعكن وكلمة تحطكن لأن قلوبكن لينة لاتعرف شيئا من دهاء الرجال ومكرهم »

فلما سمعت منها ذلك ، عجبت لانطباقه على حالها ، وحملته محمل الخبرة والذكاء .. ومالت بكليتها الى مكاشفتها بأمرها ، ولكن شيئا فى داخلها كان يمسكها عن ذلك

وأدركت سعيدة ذلك منها فقالت : « ولكننى أعجب كل العجب كيف تتمادين فى أمر الحب ولا تستشيرين أحدا ، فرب مشورة من عجوز مثلى تنقذ فتاة من الموت ، لأن ما تستعظمه البنات قد لا تكترث به العجائز . لعلمهن بما يضمره شبان هذا الزمان الذين يخاطبون فتاة ويعقدون معها عهدا ، ثم اذا رأوا فتاة أخرى وأعجبهم حديثها .. تركوا تلك وتمسكوا بهذه وعقدوا معها عهدا ، وبعضهم يفعل أفظع من ذلك بأن ينتحلوا أسبابا ويختلقوا حكايات لا أصل لها حتى يتخلصوا من خطيبة جاعلين كل الحق عليها غير مبالين بحرمة الحب »

وكان لكلام سعيدة وقع فى أذنى سلمى ، ولكنها مع ذلك لم تشأ مفاتحتها بما فى قلبها ، وكانت تجل سليما عن أن يكون مثل الذين أشارت اليهم سعيدة فى كلامها فسكتت .. فلم تزد سعيدة خوفا من اغضابها ..

وكانت سعيدة تتردد فى دفع ذلك الكتاب اليها ، فخرجت من

الغرفة لبعض مهام البيت ، وكانت والدة سلمى تصلح فرش غرفتها .. فلما انتهت منه ، جاءت غرفة سلمى تسألها عن صحتها فقالت : « الحمد لله .. اننى أحسن حالا »

فجلست اليها تسليها وتحدثها فى شئون مختلفة ، ولاسيما عن سليم فانها كانت قد استبطأته لغيابه عن البيت ثلاثة أيام متوالية فقالت : « ماذا تظنين سبب غيابه ،أخشى أن يكون مريضا فلنبعث اليه من يسأل عنه »

فتذكرت سلمى حالها معه فاضطربت جوارحها ، وكاد يظهر ذلك عليها ولكنها تجلدت وقالت : « ربما كان غائبا فى سفر بسبب احدى القضايا .. ألا تذكرين أنه غاب مرة أسبوعا كاملا لذهابه الى أسيوط للمرافعة فى قضية ، وقضاء بعض المهام »

قالت : « نعم أذكر ، فلعله ذهب الى هناك .. ولكنه حين ذهب المرة الماضية أخبرنا بذهابه »

قالت : « ربما لم يستطع هذه المرة اخبارنا »

وفيما هما فى ذلك ، سمعا قرع الباب .. واذا بسعيدة قادمة تقول : « ان الخواجة سعيدا وأهل بيته قدموا ياسيدتى »فخرجت الوالدة لاستقبالهم ودخلت بهم غرفة الاستقبال ، وبقيت سلمى فى الغرفة منفردة .. وكانت حين سمعت قرع الباب ، تذكرت خفقان قلبها عندما كان يطرقه سليم من قبل .. فهاجت فيها أشجانها ، وغلب عليها البكاء ..

وفيما هى فى ذلك ، دخلت اليها سعيدة مسرعة ، وعلى وجهها خبر ..

فقالت لها سلمى : « ما أخبارك ياسعيدة »

قالت : « مر بنا سيدى سليم الآن .. واستدعانى ، ثم أعطانى هذا الكتاب ، وأمرنى أن أسلمه اليك يدا بيد »

فلما سمعت سلمى اسم سليم والكتاب ، أخذت فرائصها ترتعد وقلبها يختلج ، فتناولت الكتاب ويداها ترتعشان وقد ازداد وجهها امتقاعا ، فدفعت سعيدة الكتاب اليها وخرجت وأغلقت الباب وراءها ..

أما سلمى فأخذت الكتاب ، ولم تعرف كيف تفضه لشدة الاضطراب وزيادة الارتعاش ، وأخيرا فضته وللهفتها لم تعرف كيف تقرأه .. على أنها ما أن أخذت تقرأه حتى صارت تنتفض فى فراشها ، وبردت أطرافها ، وتساقطت دموعها ، وسقطت الورقة التى كانت ملحقة به من يدها الى الأرض

ولا حاجة بنا الى شرح حالها عند قراءة ذلك الكتاب ، مع ما هى فيه من الضعف .. وأقل ما أصابها ارتجاف وخفقان سريعان حتى خشيت أن تقع فى غيبوبة .. فنادت سعيدة ، وكانت مستعدة للاجابة .. فدخلت اليها ، فاذا هى فى تلك الحالة ، فأتتها بكوب ماء ، ولم تدع والدتها تعلم لانشغالها بضيوفها فى غرفة الاستقبال ، وأخذت سعيدة تخفف عنها وتسليها ، وهى تصيح بصوت عال وتلطم وجهها قائلة : « سليم حبيبى .. وا فضيحتاه ..

وا أسـفاه .. هل هذه خاتمـة صلتى بك ؟ .. ويل للواشين المفسدين .. »

فقـالت سـعيدة : « ويل لهم .. ومن هم ؟.. وماذا فعلوا ياسيدتى ؟.. خفضى صوتك لئلا تسمعنا والدتك »

فانتبهت سلمى لذلك وجعلت تسكن روعها ، وسمعت وقع أقدام أمام الغرفة فأمسكت نفسها ، ولكن من أين لها ذلك وقد فاضت عواطفها ، وطار عقلها ، واشتد حزنها ، لما نسب اليها من الخيانة فى ذلك الكتاب ، واستولى عليها اليأس وأخذت تلطم صدرها وتصفع وجهها وهى تقـول : « ويل للمفسدين الذين لا يخافون الله ، فانهم خدعوه وأقنعوه بالحيلة والمكر ، ولـكن سامحه الله كيف صدقهم ، وكذبنى أنا التى وقفت نفسى لأجله .. انى أحبه حبا أثبت من الجبال ، ولم أعرف حبيبا قبله ، ولن أعرف أحدا بعده . حبيبى سليم . حبيبى سليم . آه ياحبيبى .. هل أنت مريض مثلى .. لعل المفسدين قد دخلوا بيتنا حتى يميتونا نحن الاثنين فى وقت واحد .. آه ما أحلى الموت الى جانبك وعيناى تتطلعان اليك .. ويل للمفسدين .. آه من الحب ، ما أمره »

كل ذلك وسعيدة واقفة الى السرير تهون عليها ، وقد انفطر قلبها عليها على الرغم من دهائها ومكرها .. ولاسيما حين تذكرت أنها هى التى سعت مع داود حتى ألقياها فى تلك الورطة، فبكتتها ضميرها .. ولكن نزعة اللؤم والخسة غلبت عليها .. فتذكـرت نجاح مشروعها ، وأنها ستعود الى سيدتها ظافرة .. فارتاح بالها

– ٢٥ –

اتفاق غريب

أما الضيوف ، فقد قلنا انهم أسرة الخواجة سعيد ، ومعهم ادما التى ما برحت فى ارتباك لأنها شاهدت حبيبا مسافرا ، وهى لا تعلم سببا لسفره ، وقد أخذت تغار عليه من سلمى .. وانما جاءت فى ذلك اليوم لعلها تستطلع عنه شيئا

ولأن والدها كان معهم ، لم يدخلوا غرفة سلمى .. ولكنهم دخلوا غرفة الاستقبال وأخذوا بأطراف الحديث ، فسألت والدة ادما عن صحة سلمى ..

فقال : « انها لا تزال منحرفة المزاج » ..

فسألتها عن سليم ، اذا كان قد جاءهم فى ذلك اليوم ..

فقالت : « انه لم يأت منذ ثلاثة أيام ولا ندرى السر فى عدم مجيئه ، ولعله سافر الى احدى القـرى فى الريف للمرافعة فى قضية .. »

وبعد الحديث مدة ، نهضت ادما تريد الدخول الى سلمى ، فطرقت باب غرفتها مستأذنة وكانت سـلمى فى أشـد حالات الاضطراب ، وكتاب سليم فى يدها ، فأخفته ومسحت عينيها .. ولاضطرابها لم تتنبه للورقة التى كانت فيه ، ثم فتحت سعيدة الباب فدخلت ادما وقد عجبت لفرط ما شاهدت على وجه سلمى من التغيير .. وفى عينيها من أثر البكاء ، فعلمت أنها لابد أن



« وأخذت تلطم صدرها وتصفع وجهها ، وهي تقــول : ويل للمفســدين الذين لايخافون الله، فانهم خدعوه واقنعوه بالحيلة والمكر، ولكن سامحه الله كيف يصدقهم »

تكون مريضة حبا ، وفى نفسها شىء تخفيه .. ولكنها تجاهلت ، وسألتها عن صحتها ، فأجابتها الجواب المعتاد فى مثل ذلك .. فتناولت ادما مقعدا ، وجلست الى السرير بجانب سلمى ، وقد خرجت سعيدة وأغلقت الباب وراءها ..

وأخذت ادما تعزيها وتخفف عنها أوجاعها بلطيف حديثها ، وهى لايضحك لها فم ولا تجف لها عبرة ، وقد أحست بارتجاف وقشعريرة فتوسدت وجعلت اللحاف عليها حتى رأسها

وكانت ادما جالسة الى جانبها تتأمل فى حالها ، وتنظر الى الأرض ، فوقع نظرها على ورقة خفق قلبها عند مشاهدتها ،فمدت يدها بخفة وتناولتها .. ونظرت اليها بسرعة ، فاذا هى الورقة التى بعثت بها الى حبيب ، فأخفتها فى جيبها ويدها ترتجف ، وقد خالج فكرها ألف ظن .. وحسبت لوجودها هناك ألف حساب ، وبعد التفكير برهة تحقق لديها أن حبيبا لاشك يحب سلمى وأنه قد جاء بتلك الورقة اليها ليهزأ بها أمام حبيبته ، ولما تصورت ذلك هبت نار الغيرة فى قلبها ، ولعنت الساعة التى كتبت فيها تلك الورقة ، ولم تتمالك عن البكاء رغما عنها .. فلاحظت سلمى بكاءها ، فظنتها تبكى رثاء لحالها .. فازداد هيامها وهاجت أحزانها ، فعادت الى البكاء وهى تقول : « لماذا تبكين ياحبيبتى. لا .. لايجب أن تبكى .. أما اذا كان بكاؤك حزنا على ، فابكى لأن حالتى تستوجب البكاء ، أما أنت فهنيئا لك » . فلم يزدها هذا القول الا اضطرابا وغيرة ، لأنها ظنتها تحسدها على حبيب

أو تشير اليه فى شىء

وأرادت أن تستفهم منهـا عما تقصد .. فسمعت قـرع باب الدار ، فذق قلبها لأنها أصبحت لشدة هواجسها تتأثر لأقـل الأصوات ، ولاسيما فى تلك الساعة ، لانها كانت شديدة الارتباك ، فوقفت وأطلت من باب الغـرفة لترى القادم ، فاذا هو حبيب وعلى وجهه أمارات الارتباك ، فحالما رأته علا وجههـا الاحمرار وارتعشت ركبتاها وبردت أطرافها حتى لم تعد تستطيع الوقوف فأسندت نفسها الى الباب تنظر الى حبيب .. وقد عجبت لارتباكه ، وظنته ارتبك عند مشاهدتها بغتة

***

أما هو فحالما رآها بغت ، لأنه لم يكن ينتظر أن يقابلها هناك ، فدنا منها مسلما وعلى وجهه مظاهر الانقبـاض ، فمدت يدها فأمسك بها .. فاذا هى باردة كالثلج ، فهزها ولم يعرف لارتباكه كيف يسلم عليها ، وأطل الى سرير سلمى فاذا هى راقدة فحياها وسألها عن حالها .. أما هى ، فحالما رأته تذكرت حبيبها سليما ، فهاجت عواطفها وأخذت فى البكاء ، وكانت عينا ادما عليها لترى ماذا يبدو منها ومن حبيب عند تلك المقابلة لتتحقق من ظنها .. فاذا به سلم عليها بغاية اللطف ، وهى حالما رأته ترقرقت الدموع فى عينيها فازدادت ادما غـيرة وازدادت ارتعاشا .. وخرجت الى غرفة الاستقبال لكى لاتشاهد منظرا آخر يزيد اضطرابها ، وقد تحققت ان كل آمالها ذهبت أدراج الرياح ، ولم تكتسب من كل سعيها الا

الفضيحة واليأس ، فجلست فى أحد أركان الغرفة وأسندت رأسها الى يدها على الوسادة وغرقت فى بحار الهواجس

فاذا بحبيب قد دخل الغرفة ، ونادى والدة سلمى فتبعته ،فخلا بها فى غرفتها مدة يتكلمان سرا .. ثم عاد الاثنان وعلى وجهيهما مظاهر القلق ، فلم يزدها كل ذلك الا تمكنا من اعتقادها بخيانة حبيب ، وان كل مادار بينه وبين والدة سلمى انما كان بشأنها ، فلم تعد تستطيع البقاء فى هذا البيت .. فأرادت أن تعتذر وتعود الى بيتها ، فاذا بحبيب قد ودع الجميع ولم يمكث .. وخرج ولم يودعها ، فلبثت ريثما خرج ونهضت متظاهرة بانحراف شعرت به ، واستأذنت والديها وربة المنزل فى الخروج ، فأذنوا لها فخرجت والدمع ملء عينيها .. وما أن وصلت البيت حتى دخلت غرفتها وأخذت فى البكاء والنحيب ، وقد غلب عليها الندم لكتابة تلك الأسطر أكثر مما غلبت عليها الغيرة من سلمى ، ولم تعد تعرف ماذا تندب ، ولا ماذا تبكى .. وقد ضاقت الدنيا فى عينيها ونقمت على الساعة التى كتبت فيها تلك الورقة ، وأخذت ترثى حظها وتلوم الدهر الذى قادها الى تلك الحال ، وما كان أغناها عن المجاهرة بالحب،فقد كانت محتفظة بكرامتها ، قانعة بما قسم الله لها ، فلما أفصحت عما فى نفسها وقعت فى تلك المصائب

أما سبب مجىء حبيب الى بيت الخواجة سليمان فى ذلك اليوم فهو أنه عاد الى القاهرة مع والدة سليم ليلا ، فوصل العاصمة فى صباح ذلك اليوم باكرا .. فسار توا الى محطة حلوان لعلمه أن

سليما هناك ، فوصل بيته فاذا بسليم ليس فيه ، فسأل والدته عنه فقالت : « لا أدرى .. لقد خرج فى عصر الأمس للنزهة فى حديقة حلوان ، ولم يعد » فانشـغل باله وبال والدته عليه ، وأخذوا يبحثون عنه فى حلوان ويسألون الجيران ، ولكن بغير جدوى .. فازداد انشغال بالهم ، وأما والدته فانها لفرط تشوقها الى رؤيته ظنت أن سوء حظها قد حمل ولدها على الانتحار ، فازداد بلبالها وأخذت تندبه وهم يخففون عنها ، ويلطفون اضطرابها ..

***

فثارت الحمية فى رأس حبيب حتى أصـبح أكثر من والدته قلقا عليه ، فقال لها : « هأنذا ذاهب للتفتيش عنه فى مصر لعـله ذهب اليها ، فركب القطار الى القاهرة .. وسار الى منزل سليم ، فاذا بالغرفة خالية ، فسأل أهل المنزل ، فقال له الخادم : « انه بات هنا فى الأمس وخرج فى هذا الصباح » فسأل عنه فى مكتبه فقيل له : « انه لم يأت »

فقال فى نفسه : « لعله ذهب الى بيت سلمى » فسار الى هناك وقد بلغ منه الاضطراب مبلغا عظيما ، فدخل البيت فى الحالة التى قدمناها ، وخلا بوالدة سلمى يسألها عنه فأخبرته أنه لم يزرهم منذ ثلاثة أيام ، وانشغل بالها عليه .. فسألته عن سبب التفتيش عنه فقال : « اننى محتاج اليه فى مهمة خاصة » .. ولم يخبرها بحقيقة الحال لئلا يزداد قلقها

وخرج من ذلك البيت ، ولم يفطن لشدة قلقه أن يسـلم على

ادما ، وقد لاحظ عليها فتورا عن ذى قبل .. فخطرت له أمور كثيرة ، ولكنه من جهة لم يكن متعلقا بها لدرجة تخول له نسيان نفسه من أجلها ، ومن جهة أخرى كان منشغل البال على صديقه خوفا عليه من الانتحار ، لعلمه بما هو فيه من اليأس ..

***

وسار يبحث عنه فى كل مكان اعتاد أن يراه فيه .. فلم يقف له على أثر .. وما زال فى ذلك ، وهو لم يذق طعاما ولم ينم منذ مساء الأمس الى الظهر .. فلما أعيته الحيلة ، وخارت قواه من البحث عاد الى حلوان لعل سليما يكون قد جاء الى هناك ، فاذا بوالدته ووالدة سليم ينتظران قدومه على المحطـــة ، فلما رأته والدة سليم وحده جعلت تلطم وجهها وتصيح : « ياويلاه .. أين ذهب سليم ؟.. ولدى سليم أين أنت .. آه يا ولداه » وأخذت فى العويل والبكاء حتى عجب الذين فى المحطة لحالها ، ورثوا لها ..

فجعل حبيب ووالدته يخففان ما بها ويعللانها بقرب مجيئه ، وهى لا شىء يعزيها أو يسليها ، فالتفتت الى حبيب قائلة : « لماذا أتيت بى الى هذه الديار ؟ .. أين ولدى سليم ؟ هل جئت بى لتزيد آلامى عليه ؟ هل أصابه سوء وأنت تخفيه عنى ؟ أرنى اياه ولو ميتا .. آه ياولداه ياحبيبى .. لعلى أنا التى سببت موتك ياكبدى .. تعسا لى وتبا ليوم ولدت فيه حتى أكون سببا لشقائك وضياعك .. لعلى كنت مخطئة بنصحك وقد عظمت عليك المصيبة فقتلت نفسك .. لا كانت البنات ، ولا كان الزواج .. تعـــال

ياولدى وتزوج أية فتاة تشاء ، وأنا أقوم بخدمتك وخدمتها بقية حياتى » ..

وما زالت فى ذلك حتى أبكت الجميع ، وعلا الصياح ، كأنهم فى مأتم يبكون ميتا ..

فوقف حبيب ، وهمّ بيد والدة سلمى وقبلها قائلا : « بالله عليك خففى عنك .. ولا يحسن بك التشاؤم ، فان البكاء لايليق بنا الآن ، والأفضل لنا أن نفتش عنه فى أنحاء المدينة أو نبعث البرقيات الى جهات أخرى نسأل عنه ولا يجدر بنا الجلوس والبكاء » ..

***

قال ذلك وهو يعلم أنه قد بذل جهده فى التفتيش عنه فى كل مكان ، وأما البرقيات فلا يدرى الى أين يبعث بها .. ولكنه قال لهم : « ها انى ذاهب الى القاهرة ثانية ، لعله يكون قد جاء الى غرفته ، وعسى أن لا أعود حتى أجده »

فقالت والدة سليم : « اذهب ياولدى ، وفق الله مسعاك ، واذا وجدته .. أخبرنا ببرقية .. حفظك الله لوالدتك » .. قالت ذلك وبكت ..

فسار الى المحطة وركب القطار حتى وصل القاهرة ، وأخذ يفتش عن صديقه وهو لا يزال بغير طعام

- ٢٦ -

سليم فى الاسكندرية

فلنترك حبيبا جائعا يفتش عن صديقه ، ولنعـد الى سليم وما جرى له فى الاسكندرية .. فقد تركناه راكبا القطار اليهـا فى الصباح ، وهو يخشى أن تعاوده الحمى قبل وصوله اليهـا ، وما انفك أثناء الطريق مفكرا فيما تم له فى تلك الايام القليلة ، وأخذ يتصور سلمى فى حالات مختلفة بين اليأس والكدر والجزع والحنق ، وهى تقرأ الكتاب .. وحين يخطر له أنها أصيبت بسوء بسبب كتابه يحنّ اليها ويختلج قلبه فى صدره وجلا ، لأن قلبه لا يزال مسكنا لها رغما عما أراده صاحبه من العنف والجفاء ، فان الحب المؤسس على الطهارة لا ينتزع من القلب بسهولة ، ولو انتزع فان الحبيب يبقى زمنا يحن الى حبيبه القديم بحكم العادة.. ولكن سليما كان يود أن ينسى صورة سلمى . وقد حاول ذلك بطرق مختلفة ، وهذا ما حمله على مغـادرة القاهرة .. ولكن صورتها ظلت ماثلة أمام عينيه فى هيئة محزنة ترتعد لها فرائصه حنوا ، ولعله ندم على كتابة ذلك الكتاب .. على أنه حينما كان يتذكر الأحاديث التى سمعها عنها ، وما ظهر له منها من دلائل الخيانة ، يرى أنه فعل الصواب .. ولكنه رغم ذلك كله ، كان يشعر بقلق .. ويود نسيان تلك الحوادث جملة ..

فوصل القطار محطة الاسكندرية وهو فى غفلة ، ولم ينتبه الا عند سماعه صوت جرس المحطة ، فنظر من نافذة العربة فاذا هو فى محطة الاسكندرية ، فتحول وخرج الى موقف المركبات ، وركب واحدة منها وأمر السائق أن يسير به الى شارع المسلة ، فسارت المركبة .. وعندما وصل الشارع أخذ قلبه فى الخفقان لشدة الضعف ، لاسيما حين تذكر والدته ، وكيف تكون مقابلتها له ، على غير انتظار منها ، وأيقن أنها سيصيبها اغماء لدهشتها وفرحها به ..

فوصلت العربة ووقفت بقرب باب البيت ، فتحول منها ووقف عند الباب يتردد فى قرعه ويداه ترتجفان وركبتاه ترتعشان ، وأخيرا قرع الباب ففتحه خادم لا يعرفه ، فسأله عن الخواجة فؤاد فقال : « انه فى مهمة خارج الدار .. »

قال : « وزوجته ؟ » ..

قال : « هى هنا » فدخل واذا بزوجة أخيه قادمة ، ولم تعرفه لأول وهلة لما هو فيه من الضعف ، ولكنها حالما أمعنت نظرها فيه عرفته وقالت : « سليم ؟ »

قال : « نعم أين والدتى ؟ »

قالت : « هى فى القاهرة .. وما الذى جاء بك ؟ »

فلما سمع أنها فى القاهرة ، تملكته الدهشة ولم يصدق ، وقال : « ماذا تقولين ؟ »

قالت : « نعم قد سافرت اليها مساء أمس مع صديقك حبيب

لعلك لم تشاهدها ؟ » ..

قال : « لا .. ولا علم لى بذهابها » ولكنه أخذ يفكر فى سبب مجيء حبيب وذهابه بوالدته وهو لا يهتدى الى حل

فقالت له زوجة أخيه : « مالى أراك نحيلا .. ما الذى حدث لك ؟ » ..

قال : « كنت منحرف الصحة وجئت لتغيير الهواء ، ثم دخل قاعة الاستقبال وقد أنهكه التعب والضعف .. فطلبت اليه زوجة أخيه أن يغسل وجهه ويبدل ثيابه ، ففعل وهو لا يستطيع اخفاء ما داخله من الشك فى سبب مجيء حبيب الى والدته »

وبعد أن غسل وجهه وبدل ثيابه جلس كى يستريح .. واذا بأخيه قادم من عمله لتناول الغداء ، فعجب لمجيئه .. فأخبره أنه آت لتغيير الهواء بسبب صحته .. ولما حان وقت الغداء قاموا الى المائدة ، ولم يترك سليم المائدة الا وقد عاودته الحمى فأجلسوه فى الفراش ، وقاموا بخدمته وجعلوا يتحدثون فى شؤون شتى . أما هو فأخذ يبحث عن سبب مجيء حبيب فقالوا له : « انه جاء فى مثل الوقت الذى جئت فيه ، وقضى عندنا بعد الظهر وهو يحادث والدتك فى شأنك .. وفى الساعة العاشرة من مساء أمس ذهبا معا الى القاهرة .. ومن العجب أنك لا تعلم بذلك »

فقال : « انى لم أكن أعلم به قط » ثم انشغل عن تلك الهواجس باشتداد الحمى

فقالوا : « هل نستدعى لك طبيبا ؟ »

قال : « لا بأس من استدعائه »

فقالوا : « ان لاحدى السيدات من صديقات والدتك طبيبا ماهرا ، سندعوه لك »

فبعثوا الخادم فعاد بالطبيب ، وبعد هنيهة جاءت السيدة وردة وابنتها ، وهما فيما اعتادا عليه من التبرج والبذخ فى الملابس ، ولم يكن هو يعرفهما الا معرفة عابرة

فدخلت الست وردة الى غرفته .. وهمَّت اليه وقبَّلته بحرارة قائلة : « أهلا بك يا ولدى .. ما الذى حدث لك ياحبيبى ؟ .. وا حرقتاه على قلب والدتك ، فانها حين علمت بمرضك أسرعت اليك على جناح السرعة فأين هى ؟ »

قال : « انى لم أرها ياسيدتى » .. وقد عجب لاحتفائها به

أما الفتاة فانها حيَّته وقد علا وجهها الاحمرار ، وجلست الى مقعد أمام السرير .. وأظهرت كل ما استطاعته من مظاهر الأسف لمرضه ..

وكان سليم لا يزال يعجب لاحتفاء هذه السيدة به ، وكيف انهـا سلمت عليه سـلام الوالدة لولدها ، ثم قالت للطبيب : « أتوسل اليك يا دكتور أن تبذل قصارى جهدك فى علاج السيد لأنه فى معزة ابنتى هذه (وأشارت الى ميليا) ولذلك رأيتنى عندما سمعت بمرضه قدمت مسرعة ، ولا سيما لأن عزيزتى والدته غائبة .. ويجب على أن أقوم بخدمته أثناء غيابها »

فازداد سليم تعجبا لذلك الحنو الغريب ، وشعر باحترامه

لتلك السيدة ، وكان كلما نظر الى ميليا يتذكر سلمى فينقبض ، ثم تشغله آلامه عن التمادى فى الأفكار

فوصف له الطبيب دواء ، وقال : « لا بد له من تغيير الهواء ، وأفضل مكان له الرمل لنقاء هوائه وصفاء جوه » فوقفت الست وردة عند سماعها ذلك قائلة : « انه أمر سهل جدا وهذا بيتى فى الرمل المطل على شاطىء البحر ، معد لاستقباله .. وفيه من الآنية والأثاث ما يكفى أو يزيد عن الحاجة ، وأنا أذهب للقيام بخدمته هناك ريثما تحضر والدته لأن هذه السيدة (وأشارت الى زوجة أخيه) لا تستطيع أن تفارق بيتها وأولادها وأن تذهب الى هناك »

فاستأنس سليم بلطف تلك السيدة كثيرا ، وشعر بعظم فضلها عليه .. ونظرا لتعوده مشاعر الحب ، أحسَّ بارتياح الى مشاهدة ميليا . أما وردة فانها بعثت فى الحال بعضا من خدمها ليعدوا منزلها فى الرمل ، ويستحضروا ما يحتاجون اليه من الطعام وغيره ، وقالت لسليم : « أرى أن خير البر عاجله ، وبما أن الطبيب قد أشار عليك بالسكنى فى الرمل .. فلنذهب اليه حالا »

فقال : « انى أصبحت غريقا فى أفضالك أيتها السيدة ، ولا أعرف كيف أفصح لك عن امتنانى »

فقطعت عليه الكلام قائلة : « انى لا أنتظر منك هذه العبارات التى يعمد الناس اليها فى مجال المجاملات ، فليس بيننا مثل ذلك .. لأن والدتك أعز من شقيقتى ، وأنت فى معزة ابنتى هذه ، وهذا

فرض واجب على لأن ما بينى وبين عزيزتى أم فؤاد من المحبة ما لا يعلمه الا الله ، فكن مطمئنا ولا تخاطبنى الا آمرا بكل ما تريده كما تخاطب والدتك ، لأنى وحياة عزيزتى ميليا (وأشارت الى ابنتها) التى تركت الدنيا من أجلها ليس لدى أعز منك ، فثق بذلك وارفع التكلف فى الكلام ، وكن مرتاح البال ، ولا تهتم بشىء ، ومتى حضرت عزيزتى أم فؤاد بالسلامة تخبرك عما بيننا من المحبة القديمة .. فانعقد لسانه عن الاجابة لأنها سدّت عليه كل أبواب الكلام بزخرف حديثها ورقة عباراتها المشفوعة بالعمل ، ولكنه قال لها : « ان ما بينك وبين والدتى يشفع لكل ما سيبدو من ثقلى عليك .. ولا غرو اذا أحبتك والدتى فان لطفك وحسن ذوقك ورقيق حديثك مما يسلب العقول قبل القلوب . وأرى انى لا أستطيع الانتقال الآن الى الرمل لما أنا فيه من الحمى ، وربما نتج عن انتقالى ضرر يصعب تلافيه .. فالأفضل أن ننتظر الى الصباح ريثما تخف وطأة الحمى عنى ، فأنتقل الى حيث تشائين »

فقالت : « نحن نسأل الطبيب ، فاذا عارض فى ذهابك أطعناه» وكان الطبيب لا يزال حاضرا فقال : « اذا احتجب عن الهواء جيدا لا بأس عليه من الانتقال »

فقالت : « ونحن نذهب به من هنا ، راكبا فى المركبة الى المحطة ، ومن هناك نغلق نوافذ العربة فى القطار ، ومنزلنا قريب من المحطة فى الرمل لا يبعد عنها بضع خطوات ، فاذا ذهبنا الليلة

فانه يبيت فى الرمل على شاطىء البحر حيث الهواء جيد نقى .. ينعش النفس ويزيل الحمى »

وما زالت حتى أقنعته بالذهاب حالا ، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر .. فأعدّوا المركبة فركب فيها هو وشقيقه وركبت الست وردة عربة أخرى، وبصحبتها ميليا وزوجة أخيه .. وساروا الى المحطة ومنها فى قطار الرمل الى المنزل ، فدخلوه فاذا هو واقع على مرتفع مشرف على البحر المتوسط فى أجمل ما يكون من البناء ، وأتقن ما يكون من الرياش

فأدخلوا سليما الى غرفة لها نافذة مطلة على البحر ، وبعد الجلوس هنيهة استأذن أخوه وزوجته فى الذهاب ، وبقيت السيدة وردة وابنتها ، وهذه ذهبت الى المطبخ لتساعد الخدم فى اعداد بعض الطعام لسليم ، وتبعتها ميليا .. وبقى هو وحده ، فأسند رأسه الى وسادة بجانب النافذة المطلة على البحر ، وأخذ ينظر الى الأفق فأحس بنشاط رغما عما كان يتقد فيه من الحمى ، فجعل يتأمل ذلك البحر الواسع ويرسل نظره الى أطرافه الشاسعة ، وهو فى لونه الأزرق العقيقى الصافى ، تحده من بعد دائرة الأفق ، ينتهى من جهة البر بمدينة الاسكندرية ، وكانت قد استعادت رونقها نوعا بعد حريقها الأخير أثناء الثورة العرابية ، وفيها القصور الشامخة متراكمة متزاحمة ، وكان يسمع صوت الأمواج على الشاطىء أسفل ذلك البناء ، والشمس قد مالت الى المغيب .. فتزين الأفق بهالات بديعة الألوان من الشفق ،

فهاجت فيه هواجسه وتذكر ما تم له مع حبيبته سلمى ، وما كان من عاقبة حبه ، فثارت فيه أشجانه ، واشتد به الهيام حتى ترقرقت الدموع فى عينيه .. وود لو كانت سلمى الى جانبه ، مع ما كان بينهما من المحبة الطاهرة .. يتجاذبان أطراف الحديث ، ويتشاكيان لواعج الحب ، فانقبضت نفسه وتلاعبت فيه أشجانه وازداد فى البكاء ..

وفيما هو فى تلك الهواجس ، دخلت السيدة وردة تحمل اليه قدحا فيه جرعة من الدواء الذى وصفه الطبيب قائلة : « ما الذى يدعوك الى البكاء يا ولدى .. وأنت الآن كأنك فى حجر والدتك ، وهى عما قليل تكون هنا .. وقد قلت للسيد شقيقك أن يكتب اليها للحضور برفقة صديقك حبيب »

فلما سمع اسم صديقه خفق قلبه واضطربت جوارحه غيرة .. اذ تذكر حاله معه ومع سلمى ، ولكنه هم بالقدح فتناوله من يدها وقد أحس بالخجل من لطف تلك السيدة ، وقال لها : « لقد غمرتنى بفضلك وأورثتنى الخجل بهذا التنازل »

فابتدرته قائلة : « قد قلت لك ان ذلك التكلف ليس بيننا ، ولم أعد أقبل أن أسمع منك هذا الكلام قط »

فسكت وتناول الدواء وقد توردت وجنتاه من الحمى ، فتناولت هى مروحة وجعلت تروّح له بها تلطيفا للحرارة ، فأراد أن يمنعها فأبت ..

ثم دخلت ميليا وتناولت المروحة من والدتها ، وأخذت تروح

له بها وقد أتقنت الصنعة فى التظاهر باللطف والأدب

ولا يخفى أن قلب الفتى اذا عانى الحب مرة يصبح مستعدا للوقوع فيه مرة ثانية بسرعة ، وقد آنس من لطف تلك المرأة وابنتها ما حمله على شدة الميل اليهما وخاصة الى الفتاة ، ولكن حاله من المرض كانت تشغل عواطفه عن مثل ذلك

وأراد منع ميليا من الترويح ، فقالت له والدتها : « لا تمنعها ياولدى ولا تخجل من ذلك لأنها مثل شقيقتك ، ويجب عليها خدمتك » ..

فسكت ووقع نظره على معصمها وهى تحركه روحة وجيئة ، فاذا هو أبيض ناصع تزينه الأساور المرصعة ، ونظر الى وجهها خلسة فاذا بعينيها تبرقان .. وقد علا وجهها الاحمرار وهى تروح له مطرقة خجلا ..

فازداد ارتياحا الى رؤيتها واستئناسا بقربها ، ولكن صورة سلمى كانت لا تفارق ذهنه قط ، واذا شعر بميل أو شبه ميل لميليا فانما هو لنوع من الشبه ، آنسه بينهما .. أقله مشابهة الجنس ، ولكن حاله من المرض والغضب كانت تشغله عن حديثها وملاطفتها . وأخيرا تناول المروحة من يدها بعد الاستئذان ، وأخذ يروح لنفسه .. فتركته وجلست الى المقعد لاتتكلم ، ولكنها كانت تنظر الى الأرض تارة والى البحر تارة أخرى ، لا ترفع نظرها اليه ، فحمل ذلك منها محمل الحياء والتأدب . فصارت لها فى قلبه مكانة خاصة ، ولكنه ضغط على عواطفه خوفا عليها من

الانطلاق لئلا يتورط فى حب تلك الفتاة ، وهو فى حال المرض ، وربما لا يكون لائقا بها ، لما هى فيه من الغنى والبذخ ، فحوّل نظره نحو البحر وجلس الاثنان لايتكلمان الى الغروب ، فجاءت الوالدة وأمرت الخادم فأضاء الغرفة ، ثم جاءته ببعض الحساء وبعض الطعام فتناوله ، وخرجت من الغرفة لبعض المهام ، وبقيت ميليا ..

أما هو فكان يفضل الاستلقاء طلبا للراحة ، ولكن الحياء منعه من ذلك بحضور فتاة غريبة فاذا بها تقول له ، وهى أول مرة خاطبته فيها : « يظهر أنك فى حاجة الى الراحة ، وأظن أن وجودى الآن قد ثقل عليك ومنعك عن الاستلقاء ، فها أنا خارجة فاستلق واسترح .. »

فأجابها متأدبا : « حاشا يا سيدتي أن تكونى ثقلا على أو على سواى ، فانى أصبحت غارقا فى لطفك ولطف والدتك ، وما أنا فى حاجة الى الاستلقاء الآن .. على أنى لو كنت فى حاجة اليه ما منعت نفسى منه ، لأن لطفك يشجعنى على أكثر من ذلك » ..

قالت : « وهذا أملى ، فاننى أرجو أن تأخذ حريتك فى كل ما ترى فيه راحتك ، مهما كان نوعه .. ولا تقيد نفسك بالعادات والتقاليد » ..

فاستحسن سليم منها هذا الجواب ، واستلقى على ظهره .. وقد ذبلت عيناه..فأدركت ميليا أنه يرغب فى النوم ، فغادرت الغرفة.. فلما خلا بنفسه غلب عليه الضعف والنوم ، فنام ولم يستيقظ الا

فى الصباح باكرا ، وقد زالت الحمى .. وفتح عينيه ، فاذا بميليا واقفة بجواره تروح له ، وليس فى الغرفة سواها فمد يده وأمسك يدها يريد منعها ، فأمسكت هى يده وقد علا وجهها الاحمرار وضغطت على يده ضغطا خفيفا ، فأحس بقشعريرة سرت فى عروقه مثل شعوره عندما يمسك يد سلمى ، فتذكر ما وقع فيه بسبب ذلك الحب .. وخشى أن يتخلص من شر فيقع فى شر أعظم، فجذب يده بلطف فاشتد احمرار وجهها وظهرت عليها ملامح الكدر والخجل معا ، وأحجمت عن السرير ، فأثر ذلك فى نفسه .. وأسف لما فرط منه مما كدر تلك الفتاة .. فأراد اصلاح خطئه ، فمد يده وأمسك يدها ، وجذبها اليه ، وضغط عليها ويده ترجف من شدة الضعف ، فاذا بتلك اليد باردة كالثلج تذوب فى يده

أما هى فسلمته يدها قائلة بصوت مختنق وطرف مطرق : « ماذا تريد من يدى وقد رفضتها ؟ »

فقال : «حاشا أن أرفض يدك .. لا عاش من يرفض هذه اليد ، وكنت أخشى أن لا أكون أهلا للمسها فضلا عن الظفر بها .. »

قال ذلك مجاملة ، كى يخفف كدرها ، لأنه كان يشعر بعظم فضل والدتها عليه ، فازدادت وجنتاها توردا ودمعت عيناها وذبل جفناها ، وقد أخذ منها الهيام مأخذا عظيما ، وتظاهرت بالخجل لما تنطوى عليه عبارته من المعانى المؤثرة ، وقالت فى نفسها : « قد آن وضع الشراك »

فقالت له : « وما الذى أخافك من لمس يدى والظفر بها ؟ »

قال وهو يتردد فى جوابه : « قصـــورى العظيم .. وقصورك العظيمة » ..

فأدركت أنه يعنى ما هى فيه من الثروة ..

فقالت : « أما قصورك فهو فى ، وأما قصورى فهى لك .. هذا اذا لم ترفضها كما رفضت يدى وجذبت يدك منها »

فعلم أنه قد أوشك أن يقع فى شراك الحب ثانية مع فتاة لم يرها الا دقائق متفرقة ، ولم يعرف عنها شـــيئا .. فأمسك عن الجواب متظاهرا بألم فى رأسه ، وغير موضوع الكلام متجاهلا عن المراد من كلامها ..

فسكتت هى مكتفية بما دار بينهما ، وقد أجلت اتمام المكيدة لفرصة أخرى ..

ثم دخلت والدتها ، وأخذت تخاطب سليما فى شؤون مختلفة .. تطرقت منها الى حب والدته له الى أن قالت : « وفى علمى أنها بعثت تستقدمك الى الاســكندرية ، وكتبت كتابا اليك فى ذلك يوم مجىء صديقك حبيب ، ثم لما جاء وأخبرها بانحراف صحتك لم تتمالك عن الذهاب اليك بنفسها ، فالظاهر أن كتابها وصلك قبل وصولها هى .. فأتيت وهى لا تعلم .. »

فقال سليم : « لم يصلنى خطابها لأنى كنت فى حلوان قبل يوم سفرى ، وقد طلبت الى ادارة البريد أن تحفظ رسائلى حتى أحضر بنفسى لاستلامها ، ولا بد أن يكون ذلك الكتاب محفوظا هناك ، وقد ذكرتنى الآن بضرورة الكتابة الى مكتب البريد فى

القاهرة لكى تبعث بما يرد من الرسائل باسمى الى هنا »
قال ذلك ، وطلب ورقا وقلما ، وكتب الى ادارة البريد فى مصر أن تبعث بما لديها من المراسلات باسمه الى الرمل فى محطة (...) فى منزل (...) وبعث الكتاب الى ادارة البريد ولبث ينتظر النتيجة
وفى الساعة الثانية بعد الظهر ، جاء أحد الخدم مهرولا وهو يقول : « ان السيدة أم فؤاد قد حضرت »
فخفق قلب سليم ، وارتعدت فرائصه ، لهول ما ينتظره عندما تصل اليه والدته ، لعلمه بشدة شغفها به وحزنها عليه . وما كاد يفكر فى ذلك حتى سمع وقع أقدام مسرعة فى الدار ، واذا بوالدته قد دخلت مسرعة وألقت بنفسها عليه صارخة : « ولدى سليم .. ولدى ومهجة كبدى .. قد شغلت قلبى يا ولداه عليك ولم أصدق أن عينى تراك بعد .. ولدى حبيبى ومهجة كبدى »
قالت ذلك وهمت اليه وعانقته وضمته الى صدرها ودموعها تتساقط عليه ، وقد أغمى عليها من شدة الفرح فأدركوها بالماء فرشوها حتى أفاقت ، وهى تقول : « وا ولداه .. حبيبى سليم ، قد شغلت قلبى عليك ياحبيبى »
ولم تتمالك عن البكاء والشهيق ، فبكى سليم وقبّل يدها ، ولم يبق أحد من الحاضرين حتى بكى لبكائهما لهول ذلك الموقف
فجاءوها بمقعد جلست عليه بجانب السرير ، ويداها لم تفارق ولدها وهى تناديه ولا تصدق أنها تراه لفرط ماقاست من لوعة فراقه ، والاشتياق اليه

ثم نهضت وضمته الى صدرها قائلة : « كيف أنت ياولدى ؟..
أحمد الله على سلامتك .. لماذا فعلت بنا هكذا ياحبيبى ؟ .. كيف
تركت حلوان ولم تخبر أحدا حتى شغلت بالنا وبال صـــديقك
الحنون حبيب ، فقد بحثنا عنك فى مدينتى مصر وحلوان .. بيتا
بيتا فلم نجدك ، ولو لم يصلنى كتاب أخيك مساء أمس لقضيت
نحبى من شدة الحزن ، أحمد الله على سلامتك يا ولدى ، كيف
أنت الآن ؟.. »

قال : « انى أشعر بتحسن فى صحتى منذ قدمت الى الرمل
بفضل هذه السيدة » وأشار الى السيدة وردة .. فهمّت والدته
اليها وقبّلتها وشكرتها على صنيعها ، وتقدمت ميليا وقبلت يد
والدة سليم بكل خشوع وأدب . وجلس الجميع يتجاذبون أطراف
الحديث ، ويحمدون الله على اجتماع الشمل ..

وكان أكثر الجميع فرحا بعد الوالدة ميليا ، لأنها توسمت فيما
دار بينها وبين سليم خيرا ..

أما سليم ، فكان ذلك اللقاء لديه سببا لاثارة أشجانه ، اذ
تذكر ما دار بينه وبين أمه من الجدال ، وكيف انه كدر عيشها
باصراره على عزمه بالزواج بسلمى ، وكيف انه كان مخدوعا ، وقد
انطلت عليه الحيلة ، فلبث مدة تتقاذفه تلك الهواجس وهو يهم
ليقبّل يدى والدته ، ويستغفرها عما صــدر منه فى حقها تعزية
لأحزانها ، ولكنه آثر أن ينتهز فرصة يخلو بها على انفراد .. ولم
يتمكن من تلك الفرصة الا فى الصباح التالى ، اذ جلست الى

سريره باكرا وودة وابنتها نائمتان ، وكانت الحمى قد فارقته منذ الأمس ، فنام نوما هادئا ، ففتح الحديث قائلا : « كم أنا نادم على ما فرط منى يا أماه حتى كدرت خاطرك وأتعبت قلبك لجهلى وحماقتى » ..

فقالت : « لابأس ياولدى ، انما يهمنى الآن استعادة صحتك ، وافعل ما بدا لك .. فان اعتراضى عليك كان من الجهالة أيضا ، ولكننى لم أكن أظن أنك متعلق بحب تلك الفتاة الى هذا الحد . وانما كنت أحسب أنك مخدوع بها ، أو ان نزوة طارئة دفعتك للتفكير فى الزواج منها ، ولكن حين أخبرنى حبيب بما بينكما ، وأنك قد مرضت بسبب اصرارى على منعك ، ذهبت الى القاهرة بنفسى لأخبرك أنى راضية عن أية فتاة تختارها »

فلما سمع سليم كلامها ، تأكد من خيـانة حبيب وسلمى ، وتواطؤهما عليه ، لأن اعتراض والدته على زواجه بسلمى لم يطلع عليه أحد غير سلمى وحدها ، فكيف عرفه حبيب .. فتحقق لديه أن سلمى باحت له بأمرها ، وطلبت منـه أن يسـاعدها فى اقناع والدته ، فجاء الى الاسكندرية تحقيقا لأغراض سلمى . ولما تصور ذلك ازداد حنقا على حبيب ، وحدثته نفســه أن يبوح بحقيقة الأمر لوالدته .. ولكنه أمسك عنه رعاية لحرمة الحب القديم ، وخوفا من سخرية والدته منه لانطلاء تلك الحيل عليه .. ولكنه قال لها : « أن أمر تلك الفتاة قد أصبح فى خبر كان ، ولم يعد لى مأرب فيها ، ولن أحقق الا ما تريدينه أنت .. وسأبقى بين

يديك طوع ارادتك ، فافعلى بى ما تشائين الا الرجوع الى سلمى ، فانك اذا التمست ذلك منى فلن أوافقك عليه .. »

فعجبت والدته لذلك الانقلاب الغريب ، ولم تصدق أنه يخاطبها باخلاص

فقالت له : « قلت لك انى لا أخالفك ولا أعارضك فى شىء فاختر الفتاة التى تريدها ، وأنا أكون لها خادمة بقية حياتى اكراما لك » ..

فقال : « حاشا لله يا أماه .. فانى انما سعيت وأسعى حتى أكون أنا والتى سأتزوجها خادمين لك ، أما كفاك ما قاسيته فى طفولتى .. فالآن أنا طوع ارادتك ، أنقاد الى أوامرك انقياد الأعمى ، الا فى سلمى .. فانى قد وطدت العزم على تركها »

قالت : « وهذا أمر لا داعى للعجلة فيه الآن ، وأنت لم تتخلص من المرض تماما .. وسنتكلم بشأنه فى فرصة أخرى ، ويجب عليك الآن قبل كل شىء أن تعتنى بصحتك .. ومتى شفيت ننظر فى ذلك الأمر» وكانت الشمس قد أشرقت ، ونهضت وردة وابنتها من النوم فجاءنا للسؤال عن صحة سليم ، فطمأنتهما والدته بقرب شفائه ، وأثنت على ما أبدتاه من المرءوة فى خدمته

فقالت وردة : «ذلك واجب علينا .. وسرورنا بشفائه ليس أقل من سرورك » وقضوا بقية ذلك اليوم يتكلمون فى موضوعات متنوعة ، وميليا تنتهز فرصة للاختلاء بسليم لتحقيق هدفها وتوطيد المحبة ، فلم تتمكن لأن والدته لم تفارق سريره لحظة

وعند الظهر أحضر الغداء فتناولوه .. وذهب كل منهم الى غرفته ، لأنهم كانوا قد تعبوا وأصبحوا فى حاجة الى الراحة

- ٢٧ -

الحقيقة تظهر !

أما سليم فبقى فى سريره لايستطيع نوما ، لما يجول فى خاطره من أمر حبيب وسلمى ، وقد شعر بميل قليل الى ميليا . وبينما هو مستلق فى سريره جاءه الخادم ببعض الكتب والرسائل الواردة اليه فى بريد الصباح من القاهرة ، فتناولها واذا هى تزيد على العشرة لأن ادارة البريد فى مصر كانت تحفظ له كل ما يرد اليها باسمه من الكتب والرسائل .. ولما طلب اليها أن ترسلها اليه فى الرمل ، أرسلتها دفعة واحدة

فأخذ سليم يقرأ عناوينها ، فوقعت عينه على كتاب بخط سلمى ، فخفق قلبه وانقبضت نفسه وفضه وأخذ يقرأ ، فاذا فيه :

أبعين مفتقر اليه نظرتنى فأهنتنى وقذفتنى من حالق
لست الملوم أنا الملوم لأننى أنزلت آمالى بغير الخالق

كتبت الىّ كتابا قرأته بدموع اليأس ، وأنا حزينة باكية لا أدرى كيف أفسر ما جاء فيه ، مما قد جعلتنى به مرذولة خائنة ، وأنا بريئة مما نسبته الى ولم أفهم المراد به ، ولعلك كتبت كتابة مبهمة عن قصد منك التباسا واخفاء لحقيقة مرادك . ولبثت

ساعات ، بل أياما أندب وأبكى .. وما بكائى الا أسفا على ماكان لى من الآمال فى حبك واخلاصك ، وغيرة على شرفى الذى لم يمسَّه دنس .. وقد خدشته برجمك واتهاماتك .. وأنا أقسم لك بحرمة الحب أنّى بريئة من كل مايشين العذارى الطاهرات .. طاهرة نقية ، مخلصة ، لا عيب لى غير انى سليمة القلب ، آخذ الأشياء بمظاهرها ، لا أعرف المكر ، ولا ألتجىء الى حيلة ، ولا أعير أذنى ، ولا قلبى لأحد .. آه من هذا القلب الذى قد عصانى فى حبك ، وأغضبنى فى سبيل مرضاتك ..

« ولكن سقيا لساعة جاءت فيها تلك العجوز الى دارنا .. وقد توسمت فيها الخير منذ رأيتها ، وهى التى حملتها تلك الرسالة الىَّ ، ثم سرت فى مركبتك لا ندرى الى أين تسير .. فهى التى أنبأتنى بمكنونات قلبك وأخبرتنى انك دفعت اليها ذلك الكتاب لا تبالى بما يخلفه من أثر على قلب هذه المسكينة التى مرت عليها أيام لا تعرف النوم .. وما ذنبها الا انها أرادت تحمل المشقة بدلا منك ، فحلت العقد الذى ربطته ، وخافت من بقائه مربوطا .. حلته شفقة عليك ورفقا بعواطفك ، وقنعت من آمالها بأن يبقى سليم مطمئنـا فى وفاق مع والدته ، ورضيت بالشقاء والصبر على فراقك . هـذا هو ذنبى الذى اقترفته ، فبعثت الىَّ بكتابك الذى لم ترع فيه حرمة ، ولا ذكرت فيه محبة طاهرة ، تمكنت من هذا القلب الكئيب .. كتبت الىَّ ذلك الكتاب ، لا تبالى بما يكون له من التأثير على هذه الحزينة التى

لم تسمع مثل تلك الكلمات من أحد على وجه البسيطة

« ولكننى احمد الله كثيرا لأنى قد كشفت السر .. وفهمت المراد من تلك العبارات المبهمة التى انما اردت بها التخلص من عهودك جاعلا الحق علىّ أنا .. فعلت ذلك لتتخلص منى وتذهب الى الاسكندرية ولا أدرى مالك فى الاسكندرية .. لعل لك فيها حبيبة تريد الجنوح اليها ، وقد نبذت سلمى من قلبك نبــذ النواة .. نبذا قبيحا لتحل مكانها فتاة الاسكندرية على الرحب والسعة .. هنّاك الله بما تريد ، ولتتمتع تلك الفتاة بحبك .. ولا أذاقها الله ما أذاقنى . وأرجو أن أعرف قبل الممات انك بلغت مرادك ووطّنت نفسك وسكن روعك . وأما أنا فقد كفانى ما قاسيته من شقاء هذا العالم ، واذا بقيت لسوء الحظ على قيد الحياة فانى لا أقيم بين الناس ، وما أفضل أن ألوذ بدير منفرد ، أو صومعة فى قمة جبل لا أرى فيها أحدا ، فقد كرهت مخالطة أهل هذا العالم الغارق فى الدهاء والخيانة والغدر .. ويكفينى شاهدا ما قاسيته بنفسى ممن كنت أحسبه أعز من نفسى ووهبته قلبى وملّكته كل جوارحى ، وركزت كل آمالى فيه ، وخياله لا يبارح ناظرى ... جلست أو نهضت ليلا أو نهارا .. اذا مشى تبعه نظرى .. واذا جاء خفق له قلبى .. واذا تكلم رقصت له جوارحى .. واذا أشار فكلى اصغاء واذعان لا أرتاح الا فى رضاه ، ولا أحنّ الا الى ذكراه .. واذا رقدت آنسنى طيفه ، واذا استيقظت شاقنى اسمه .. ذاك هو سليم حبيبى القديم الذى

هو أول من طرق باب هذا القلب . ففتح له فتربع فيه .. فاذا كان هذا الذى أعنيه ، قد نبذنى ظهريا غير مبال بعواطفى ولا مشفق على حياتى ، فممن أرجو المواساة وعلى من ألقى حملى وفيمن أضع آمالى . فما لى الا أن أقول على الدنيا ومن فيها السلام..

« ولم أكتب هذا اليك الا لأنبئك ان حيلتك لم تنطل علىّ ، ليس ذلك لسوء ظنى فيك .. حاشا لله .. ولكن شخصا جاءنى عفوا ، وأطلعنى على حقيقة الحال .. فها قد بلغتك عتابى فعش معافى وليطمئن ضميرك حتى تعيش سعيدا .. أما أنا فانى لولا عتبى عليك وحزنى على فراقك ، لعشت سعيدة لخلو ضميرى من كل شائبة ، ولكن الأحوال هكذا قضت ولكل نفس أجل فاهنأ بما تعمل ، ولا تبال بصريعة حبك »

« سلمى »

ولم يفرغ من القراءة ، حتى تناثر الدمع من عينيه .. وهاجت به عواطفه وأخذ يردد فى ذهنه ويتذكر حالته الماضية ، وكيف كان فى حبه مع سلمى طاهرا نقيا خاليا من كل خداع ، وكيف آل الى هذه النهاية وأخذ يتذكر الأحاديث التى سمعها عنها . وما شاهده بنفسه منها ، لعله يرى نقصا فى اختباره واجحافا فى حكمه عليها ، فرأى ان كل ما رآه وسمعه انما هو مؤسس على حكاية ذلك الرجل القبيح الوجه ، وتذكر انه طالما كان يرى ما بين سلمى وحبيب من الالفة ولا يبالى لاخلاصه وثقته .. ولكن منذ أن سمع حكاية داود تبلبل خاطره وأساء الظن ، وصار

كلما شاهد منها حركة يحسب لها حسابا .. فخامر ذهنه شك فى سلامة حكمه ، ثم تذكر الورقة التى وجدها فى كتاب حبيب فقال فى نفسه : « وما هذه الورقة ؟ أليست بخط يدها ؟ وما الداعى لكتابتها اليه لولا المحبة الشديدة ؟ »

ثم انتبه من هواجسه وأخذ كتابا آخر من تلك الكتب ، فاذا هو بخط يشبه الخط الذى كان يرد اليه من والدته ، فتذكر ان الست وردة أخبرته بأن والدته كتبت اليه كتابا قبل يوم مجيئه تستقدمه فيه الى الاسكندرية ، فظنه هو ففتحه .. وحالما وقع نظره على أول سطر منه تعجب لأن الخطاب موجه فيه لغيره وليس من والدته . فأخذ يقرأ فاذا فيه :

« عزيزى الأجل الماجد الخواجة داود

« بعد سؤالى عنك أعرفك انك كتبت الينا يوم وصولك القاهرة انك قابلت الشخص المعلوم ، ودبرت له حيلة لطيفة ليتخلص من تلك الفتاة وقلت انه لما سمع حكايتك عنها صدقها ، وظهر لك على وجهه امارات الغيظ ، وقلت اذ ذاك انك تنتظر أن يقع الخلاف بينهما فى تلك الليلة ، ثم أخبرتنا عن لسان سعيدة انه لايزال يتردد على البيت ويجالس الابنة كالعادة ، ولكن سعيدة عافاها الله عمدت الى حيلة لطيفة لسرقة ذلك الكتاب من جيبه ..

« وكنا ننتظر أن يكون هذان الأمران كافيين لاتمام مانريد ، وها اننا الى الآن لم نتسلم منه كتابا الى والدته .. لا سلبا ولا

ايجابا ، رغما عما قلتموه من كتابة كتابها اليه ، فأخشى أن تكونوا انما تكتبون الينا لأجل تطمين بالنا ، فاذا لم يكن لكم أمل فى نجاح مشروعنا أفيـدونا حتى تتخلص من أثقال والدته هنا ، ونقطع الأمل ، وقد كفانا ما قدمناه لها من الهدايا وما أظهرناه من التقرب نحوها . وانت لايفوتك ان اتمام هذا الأمر يربحك جانبا من المال . وصدقنى ياخواجة داود اننى لولا ما أشاهده فى ميليا من الميل الى هذا الشاب ما كنت أهتم بهذا الأمر الى هذا الحد ..

« والآن لم نر بدا من مجيئه هنا ، فأغريت والدته ان تكتب اليه كتابا تستقدمه ، وقلت فى نفسى : انه متى حضر الى هنا وبعد عن ذلك البيت يسهل علينا اقناعه ، وقد أتيت أنا بنفسى وكتبت الكتابين وبعثهما فى بريد واحد .. فما عليك الا أن تراقب ما يحدث بعـد وصول الكتاب اليه ، فاذا لم يحضر أفدنى ماذا أعمل .. وفى الختام أدعو لك بالتوفيق .. بارك الله فى همتك وحفظك لمحبتك »

« وردة »

وكان سليم يقرأ ذلك الكتاب ، ويعجب لذلك الاتفاق الذى دفعه اليه لتتكشف له تلك الدسيسة التى أفسدت ما بينه وبين أحب الناس اليه ، وبقى برهة صامتا مبغوتا حتى ظن نفسه فى حلم ، وصار ضميره يبكته .. وتذكر ما اقترفه فى حق سلمى ظلما وعدوانا ، فانفطر قلبه واشتد حنقه على تلك الخائنة وذلك

الرجل اللئيم ، وود لو يراه حتى يذهب بحياته ويخنقه بيده . غير ان تلك الاحساسات كان يتخللها فرح بزوال تلك السحابة من أمام عينيه ، وهاجت أشجانه ، وازداد هيـامه بسلمى .. فتناول كتابها وجعل يقرأه ويحزن على ما سببه لها من الشقاء بتسرعه فى الحكم عليها ، وهى بريئة من كل عيب .. ولم يتمالك أن قبل ذلك الكتاب اكراما لخاطر التى كتبته ...

وأحس كأنه أبعد عن كاهله حملا ثقيلا .. وقد عادت الى قلبه عواطفه السابقة وميله الشديد الى سلمى .. وتضاعف حبه لها واشتد حنقه على وردة وداود ، وحدثته نفسه ان يناديها ويوبخها أو يمسك بعنقها ويخنقها ، ولكنه أمسك نفسه واقتنع بنجاته ونجاة تلك الفتاة البريئة من التهم الدنيئة

ولبث برهة يتردد بين الحنق والسرور ، فاذا بوالدته قـد دخلت عليه ، فلما رآها تذكر كتابها اليه فقال لها : « اغلقى الباب وتعالى » ففعلت وقد عجبت لذلك ، فلما دنت منه أجلسها الى جانبه وأخذ يتلو عليها كتاب وردة ، فأحست كأنها كانت فى غفلة وأفاقت منها ، وأطلعها على كتاب سلمى ، وقصَّ لها الحكاية من أولها الى آخرها

فبهتت وقد أخذت الدهشة منها مأخذا عظيما ، وقالت : « نجنا يارب من القوم المفسدين ، كيف استطاعت هذه المرأة أن تخدعنى كل هذه المدة .. أواه ماذا فعلت أنا ، وكيف سببت لك ولتلك الفتاة الشقاء والبلاء .. »

قال : « وليس ذلك ذنبك ، وانما هو ذنب هــذه الفاجرة اللئيمة .. قبح الله الأشرار .. انى لم أكن أصدق عن سلمى شيئا قبيحا لأنها والله ملاك طاهر .. والآن ماذا أفعل بهؤلاء الأنذال ؟ هل نطلعهم على خيانتهم ونوبخهم ؟.. ماذا نفعل ؟ .. »

قالت : « لا تجاز الشرير بأعماله ياولدى ، وانما يجب علينا أن تتخلص من هذا البيت بالتى هى أحسن .. بحيث لا يعلمون بانكشاف أمرهم .. ومتى خلونا بأنفسنا نفعل ما نشاء ، والله يقتص من القوم الظالمين ، فلنعمــل من الآن على تدبير حيــلة لخروجنا من هذا البيت فى أقرب وقت ».

قال : « انى والله يا أماه منشغل البال على سلمى ، ولا أدرى ماذا تم لها بعد كتابة هذا الكتاب ، لأنها كتبته بدموعها ، وانى شديد الحزن عليها » وترقرقت الدموع فى عينيه فانفطر قلب والدته لذلك وقالت : « لا تحزن يا ولدى .. بل اشكر الله على نجاتك من هذه الورطة ، وأرجو أن تلاقى خطيبتك وهى بخير ، وتعيش معها فى هناء وتنسى هذه المتاعب ، وتكون هذه الحكاية هاديا لك فى مستقبــل حياتك .. أما هؤلاء ، فعلمهم بفشــل مسعاهم كاف لحسرتهم وشقائهم »

قال : « سأتظاهر الآن بوصــول كتاب الىّ من القــاهرة يستدعى سرعة الذهاب اليها ، وها أنا بحمد الله قد شفيت من المرض ، فأستأذن فى الذهاب .. ومتى نزلنا فى بيتنا بالاسكندرية أكتب الى صديقى حبيب ــ حفظه الله ــ أن يذهب الى سلمى

ويبلغهـا كلمتـين عن لسانى حتى تكف عن اليأس وتأمل فى عودتى . وبعد يوم أو يومين ، نذهب معا الى القاهرة .. وهناك نلتقى بحبيبة القلب ونعزيها .. واذا ساعدتنى الظروف فاننى سأعوض عليها تلك المتاعب بسعادة دائمة ، فننسى هذه المشاكل»

قالت : «حسنا ما تفعل» وصمما على ذلك وقد هدأ بالهما

- ٢٨ -

حبيب وادما

فلنرجع الآن الى القاهرة ، ونرى ماذا تم لسلمى بعد كتابة ذلك الكتاب ، فانها لم تكتبه الا بعد أن أقنعتها سعيدة بسوء نية سليم بذهابه الى الاسكندرية . وكانت قد علمت بذهابه اليها من داود الذى ما انفك يراقب حركاته حتى علم بذهابه من كتاب ورد اليه من صديقته وردة .. فأخبر سعيدة ، وهـذه تحايلت على سلمى حتى أغرتها بالنفور من سليم .. ظنا منها ان هذه الفتاة متى علمت بخيانة حبيبها تقطع الأمل منه ، وربما كتبت اليه بما يزيد نفوره منها.. فيتحقق لداود ماجاء من أجله ، فكتبت الكتاب وبعثته مع سعيدة الى مكتب البريد ، ووصل الى سليم كما قدمنا .. وقد أحست من تلك الساعة ، انها قطعت كل أمل فى حبيبها فازداد حزنها .. ولكن غلبت عليهـا الغيرة والحنق ، وهاجت فيها الرغبة فى الانتقام .. وكان الضعف يقعدها عن كل حركة ، على انها افتقدت الورقة التى كانت على كتابه ، فلم تجدها .. وكانت تحب أن تعيد النظر اليها ، لعلها تعلم كيف كتبت .. ومن كتبها ، لعلمها انها لم تكتبها هى .. ففتشت عنها فى كل مكان ظنتها فيه ، فلم تعثر عليها فازداد بلبالها ، ولكن ضعفها ويأسها غلبا عليها وشغلاها عن التفتيش عن الورقة ..

أما ادما فد تركناها فى غرفتها ، تندب سوء حظها ، وضياع آمالها ، واخلاف حبيبها .. وقد هاجت فيها الغيرة حتى أدمت فؤادها ، وظلت دموعها تتساقط على خديها وهى فى غرفتها .. والغرفة مغلقة عليها وتلك الورقة فى يدها تعيـــد النظر اليها ، وتعض على نواجذها ندما لكتابتها ، وبعد قليل جاءت والدتها ووالدها ، فلما سمعت صوت صعودهما على السلم أخفت الورقة وهمت الى الحمام ، فغسلت عينيها اخفاء لبكائها .. وتظاهرت بانحراف صحتها ، ورقدت فى السرير .. وقد أخذ اليأس منها مأخذا عظيما جدا ، وكم نقمت على الشبان وضعف طبيعتهم ، وودت لو بقيت كاتمة ما فى قلبها حتى يوافيها أجلها ولا يعلم بها أحد ..

وأخذت تفكر فى طريقة مناسبة تتوصل بها الى تحقيق ظنها .. وكانت تود أن تلتقى بحبيب لكى توبخه وتعاتبه ، لكنه لم يأت اليها ولا هى تستطيع الذهاب اليه .. وحتى اذا توصلت للالتقاء به ، فانها سوف تشـــعر نحوه بنفور وكراهيـــة بسبب الغيرة واليأس ، وخشيت اذا خاطبته أن تسمع منه ما يغضبها أو يجرح كرامتها ، فبقيت تتردد بين ظنونها حتى المســـاء ، وقد أقنعت والديها انها تشعر بقشعريرة ، ولذلك فضلت البقاء فى السرير فصدقاها ، بينما كانا فى غفلة عن أمرها

وفى اليوم التالى ، فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، بينما هى مستلقية على سريرها ووالدتها تعمل فى بعض مهام البيت ،

ووالدها غائب .. سمعت طرق الباب ، فخفق قلبهـا لتذكرها انتظارها طرقة من حبيبها فى الأسبوع الماضى ، وكم كانت ترتجف لسماع صوت المركبات ، أو الصعود على السلم ، وكم كانت تطل على الشارع تشاهد المارين ، وأحست بمقدار ما ارتكبته بذلك من الخفة التى كانت تنفر منها ، فهاجت أشجانها وترقرقت الدموع فى عينيها

ثم سمعت الباب قد فتح وصوت شفيقة ووالدتها داخل الدار، فازداد خفقان قلبها وتعاظم ارتعاشها ، وحسبت لمجيئهما ألف حساب . وبينما هى فى ذلك سمعت قرع باب غرفتها ثم دخلت عليهـا شفيقة شقيقة حبيب ، فحالما رأتها ادما لم تتمالك عن البكاء ، وقد ثارت فيها عوامل الاشجان فحيتها شفيقة وهمت بها فقبلتها وسألتها عن سبب نومها ..

فقالت : « انهـا أحست بالأمس ببرد ، ففضلت البقاء فى الفراش خوفا من شدة المرض »

فأخذت شفيقة تخفف عنها وتعزّيها بعبارات تدل على اخلاص ومحبة لما يتجلى فى وجهها من ملامح الطهارة والبساطة ، وهى لا تبرح مبتسمة مشرقة الوجه ، فتصورت ادما سذاجة شفيقة وبساطة قلبها وتحررها من لواعج الحب ، فهاجت أشجانها ، ولكنها أمسكت نفسها عن البكاء خوفا من الفضيحة واليأس ، وقالت لشفيقة :

ـ أهلا بك ياعزيزتى .. ماذا جرى حتى خطرنا على بالك

وأتيت لزيارتنا ...

قالت ذلك وتذكرت ما كتبته لحبيب ، فتناثرت دموع الندم من عينيها ..

فأجابت شفيقة بوجه باسم قائلة : « لا غنى لنا عن زيارتك ياعزيزتى ادما .. ولكننا كنا فى شاغل هام جدا هذين اليومين بسبب مرض الخواجة سليم »

قالت ادما : « ومما كان يشكو ؟ .. »

قالت شفيقة : « أصيب بحمى شديدة فدعوناه للاقامة عندنا فى حلوان ، وكان أخى حبيب ملازما له أكثر الأوقات ، لأنه كما تعلمين صديقه العزيز ، وقد سافر الى الاسكندرية أول أمس ليأتى له بوالدته ، فجاءت أمس ، وكان سليم قد غافلنا وخرج من حلوان وسافر الى الاسكندرية ونحن لا نعلم .. فلما جاءت والدته مع أخى بالأمس لم نجده ، فانشغل بالنا عليه كثيرا ، فاضطر أخى حبيب أن يسافر الى القاهرة للبحث عنه .. وبتنا أمس على أحر من الجمر حتى أتانا كتاب منه من الاسكندرية يخبرنا فيه انه توجه اليها ، فسافرت والدته اليه ، فارتاح بالنا عليه ــ شفاه الله ــ فاغتنمنا هذه الفرصة وجئنا لزيارتكم »

فارتاح بال ادما نوعا لمعرفتها سبب غياب حبيبها هذه المدة ، ولكنها تعجبت لعدم مجيئه مع أخته لزيارتها فى ذلك اليوم ، وأرادت أن تسأل شفيقة عن ذلك فمنعها الحياء ، ولكنها قالت لها : « انى آسفة لمرض سليم .. ولكن هل علم هو بمرض

سلمى ؟ أم انها مريضة بسبب مرضه لمشاركتها له فى شعوره »

فضحكت شفيقة بسذاجتها المعهودة ، وقالت : « وما الداعى لمرضها اذا مرض هو ؟ .. »

قالت ادما : « سامحك الله .. ألا تعلمين انها مخطوبة له وهى تحبه حبا شديدا ، وخطبتها لا تزال فى طى الكتمان .. »

قالت شفيقة : « نعم .. أعرف ذلك ، ولكننى لا أرى سببا لمرضها بسبب مرضه »

فحسدتها ادما على سذاجتها وخلو ذهنها من مرارة الحب .. وتنهدت ..

فتقدمت اليها شفيقة ، وضمتها الى صدرها وقبلتها بلهفة ، وأخذت فى الضحك .. فعجبت ادما لضحكها بغير سبب ظاهر ..

فقالت لها : « ما بالك تضحكين يا شفيقة ؟ .. »

فازدادت شفيقة فى الضحك وقبلتها مرة ثانية ، فازداد عجبها

فقالت شفيقة : ما بالك لا تسألين عن أخى حبيب وعن عدم مجيئه معى ؟ .. »

فلما سمعت ادما ذكر اسم حبيب ، ظهر على وجهها الاحمرار.. وخفق قلبها وخشيت انكشاف أمرها ، ولكنها تذكرت ان شفيقة لا تلحظ ذلك عليها لعدم معرفتها الحب وجهلها ظواهره ، فردت عليها قائلة : « لم أسأل عنه لأنى ظننته مشغولا .. ومشاغل الرجال كثيرة .. »

فأمسكت شفيقة بيدها قائلة : « كلا .. لم يكن مشغولا ..

وقد تركته فى البيت وحده »

قالت ادما : « وما الداعى لمجيئه ؟.. هل من الضرورى أن يسير معك حيث تتوجهين ؟ »

قالت شفيقة : « لست أريد أن يســير معى حيث أتوجه ، ولكن أريده أن يسير معى اذا كنت سآتى هنا .. »

فقالت ادما ولم تفهم مرادها : « مالى أراك تخاطبيننى بالألغاز والرموز يا شفيقة .. »

***

فضحكت شفيقة حتى استلقت على ظهرها ، ثم قالت : « هل تعلمين لماذا جاءت والدتى اليكم الآن ؟ »

قالت ادما : « أتت لزيارتنا .. »

قالت شفيقة : « ولماذا أيضا ؟ »

قالت ادما : « لا أعلم .. هل أنا نبية يا شفيقة .. ما بالك تكثرين من هذه الأسئلة ؟ »

قالت شفيقة : « قولى ان كنت على شىء من الذكاء .. »

قالت ادما : « لست على شىء من الذكاء .. والحمد لله »

قالت شفيقة : « ولكنهم يعيّروننى بمهارتك وذكائك .. والآن ظهرت لى سذاجتك »

قالت ادما : « وهل لى أن أعلم الغيب ؟ » ..

قالت شفيقة : « أتينا لأمر يهمك .. »

قالت ادما ، وقد فهمت المراد ، ولكنها تجاهلت : « اذن قد

أتيتما للسؤال عن صحتى لأنكما علمتما بمرضى .. »

قالت شفيقة : « ومن الذى أخبرنا بمرضك ؟.. كلا اننا لم نأت لذلك » ..

فقالت ادما نافرة : « اذن أتيت لتعذيبى ياعزيزتى شفيقة ! .. دعينا من هذه الأسئلة التافهة .. »

قالت شفيقة : « صدقينى يا ادما انها ليست تافهة أبدا ، واذا أخبرتك عن سبب مجيئنا تعلمين أنها أسئلة هامة .. »

قالت ادما : « أخبرينى ما هى أهميتها ياشفيقة .. »

فضحكت شفيقة وقهقهت ، ثم قالت : « قد جئتك ببشارة سارة لك ، ولكنها تسرنى أكثر مما تسرك »

قالت ادما : « أخبرينى ياحبيبتى .. لقد نفد صبرى »

قالت شفيقة : « أتينا لخطبتك لأخى .. فما قولك ؟ »

فلما سمعت ادما ذلك ، غلبها الحياء مع ما خالج قلبها من شدة السرور ، ولكنها أنكرت ذلك قائلة : « دعينا من هذا المزاح ياشفيقة ــ بالله عليك ــ لأنه مزاح مستهجن ولاسيما بين البنات»

قالت شفيقة : « أراك لا تصدقين قولى .. »

قالت ادما : « حقيقة انى لا أصدقه .. ولكن دعينا من هذا الحديث وأخبرينى عن هذا الثوب .. من أين ابتعت قماشه ؟ »

قالت شفيقة : « لا تضيعى علىَّ متعة الحديث .. ان والدتى الآن فى خلوة مع والدتك تتحادثان فى هذا الشأن ، ولهذا السبب لم يأت أخى معنا . وأنا قد علمت ذلك من والدتى قبل مجيئنا

اليكم .. فسررت لذلك سرورا لا مزيد عليه ، لأنى أحبك مثل حبى لنفسى ، وأعد هذا الأمر من أعظم أسباب السعادة لى ، واحفظى هذا الكلام فى سرك حتى تعلمينه من والديك ، ولكنك أصبحت من هذه الساعة قريبة لى .. »

قالت ذلك ، وهمَّت اليها وضمتها الى صدرها وقبلتها..فقبلتها ادما وقد أبرقت أسرَّتها ولمعت عيناها ، وزالت عنها أشجانها واطمأن بالها ونسيت ما مرَّ بها من الشقاء ، ولامت نفسها لأنها اتهمت حبيبا بالفتور وهو برىء منه .. وزادت اعجابا بشهامته لما أظهره من الغيرة على مصلحة صديقه ، ولكنها مابرحت متعجبة لسبب وصول ورقتها الى بيت سلمى ، فتركت ذلك لتسأل حبيبا عنه متى تم أمر الخطبة

أما والدة حبيب فكانت حقيقة منفردة بوالدة ادما ، تخبرها عن رغبتها فى خطبة ادما لحبيب ، فقالت هذه : « أنت تعلمين يا عزيزتى انى أحب حبيبا ، وأعتبره ولدا لى فى معزة ادما .. وسواء تم أمر الخطبة ، أو لم يتم .. فهو ولدنا وأكثر من ذلك »

فقالت والدة حبيب : « بورك فيك ياعزيزتى ، وهذا ما نعلمه علم اليقين .. ولا يخفى عليك أننا لولا سابق الود بيننا ، وما تعلمينه من حبى لك وحب ابنتى شفيقة لادما ، وارتياح حبيب لها ، واعجابه بلطفها وتهذيبها مع علمه بمحبة الخواجه سعيد له ، ما تجرأنا على هذا الطلب .. فهل تظنين الخواجه سعيد يرفض ذلك ؟ » ..

قالت والدة ادما : « لا أظنه يرفض ، ولاسيما لما ذكرت من حبه للسيد حبيب ، لأن حبيبا من الشبان المهذبين الساهرين على مستقبلهم ، المكبين على الدراسة والاستفادة .. فأنا واثقة من موافقته ايانا على هذا الأمر ، ولكن يجب علينا أن نتبع الأصول مراعاة لمقامه ، فأنا أفاتحه هذه الليلة بهذا الحديث ، وأخبرك بما يتم .. »

قالت والدة حبيب : « حسنا .. ولا يغيب عن ذهنك أن تسألى ادما أيضا .. اذ ربما ترى مانعا فى ذلك .. »

قالت والدة ادما : « العفو يا سيدتى .. انها تتشرف بكم ، ونحن نتشرف بذلك أيضا »

ثم نهضت والدة حبيب ، ودخلت غرفة ادما ، وهمّت اليها تحييها وضمتها الى صدرها وقبّلتها قبلة قوية ، وسألتها عن صحتها ، فقالت : « ليس هناك ما يوجب القلق ، وبعد قليل سأنهض من الفراش باذن الله »

قالت : « سلامتك ياعزيزتى .. شفاك الله وعافاك » وجلست الى جانبها تلاطفها وتحادثها .. وبعد أن شربا القهوة وقضيا مدة نهضت شفيقة ووالدتها واستأذنتا .. وقبّلتا ادما ، وودعتا والدتها ، وخرجتا ..

- ٢٩ -

عوامل الغيرة

ولنعد الآن الى حبيب الذى تركناه يبحث عن صديقه سليم ، وقد علمنا أنه علم بوجوده فى الاسكندرية من كتاب فؤاد وبعث اليه بوالدته ، ولما ارتاح باله عليه عاد الى أمره مع ادما ، وفى مساء ذلك اليوم جلست والدته اليه وذكرته بما دار بينهما بشأنها ، فرأت منه البقاء على عزمه فى خطبتها .. واتفقا على أن تذهب والدته لاستطلاع رأى والدتها سرا .. فاذا آنست منها الموافقة تأتى بحبيب ويعقدوا الخطبة رسميا بحضور والدها ..

فذهبت والدته وشقيقته ــ كما قدمنا ــ ودار بينها وبين والدتها ما دار ، فعادت اليه وهو فى انتظارها بفارغ الصبر ، فأخبرته بما حدث ، ففرح .. ولكنه أحس بحمل ثقيل يلقى على كاهله ، وظهرت على وجهه علامات الانقباض ، وهو لا يعلم لذلك سببا ..

فلاحظت والدته عليه ذلك ، فسألته عن سبب انقباضه فأنكره عليها ..

فقالت له : « ولكنى أراك منقبض الوجه ، وأظنك شعرت بثقل المسئولية ، وما يقتضيه الزواج من مهام »

قال حبيب : « لا أعلم .. وربما كان ذلك السبب .. »

قالت والدته : « ولكن متى تريد عقد الخطبة يا ولدى ؟ »
قال حبيب : « متى أردت أنت يا والدتى .. وخير البر عاجله »
قالت والدته : « صدقت يا بنى .. ولكنى فارقت ادما نائمة فى الفراش .. ولعلها كانت متوعكة المزاج .. فالأولى بنا الانتظار ريثما تسترد صحتها »

فانشغل بال حبيب عليها ، وسألها عن سبب مرضها ، فقالت : « لم أسألها عن ذلك يا ولدى حياء ، ولكن أظنها منحرفة الصحة انحرافا يسيرا ، فلتصبر قليلا .. »

فقال حبيب : « انى أوافقك على ذلك ، لاسيما وان صديقى سليما يكون قد جاء فنعقد الخطبة بحضوره ، ولكن سليما مسكين كم قاسى من الأهوال فى خطبته ، وما ظنك بوالدته بعد الذى حدث ؟ »

قالت : « أظنها توافقه لأن قلب الوالدة رحيم ياحبيب ، فاذا تحققت من سبب متاعبه حاولت أن تزيله بأية وسيلة كانت .. ولكن سلمى مسكينة أيضا لأنها قاست متاعب جمة من جراء ذلك ، حتى أثر ذلك على صحتها »

فقال : « ولكن متى علمت بانتهاء الأزمة ، استعادت صحتها على ما أظن »

قالت : « هذا هو الأرجح »

وسكتا برهة لا يتكلمان ، ثم قال حبيب : « وهل تظنين انى أستطيع زيارة ادما هذين اليومين يا أماه ؟ »

قالت : « أرى أن لا تزورها .. اذ ان العادة جرت أن يمسك الشاب عن زيارة الشابة فى الفترة بين الحديث عن الخطبةوعقدها، وهى مدة قصيرة .. ومتى عقدت عليها تستطيع أن تزورها كل يوم اذا شئت ، ولو لم يكن هناك كلام بشأنها ما كان ثمة مانع من زيارتها » ..

فغضب لذلك .. ولكنه انصاع لمشورة والدته .. وقبل أن ينقطع عن الزيارة مؤقتا ، بالرغم من شدة ميله لزيارتها ..

وباتوا تلك الليلة ، وأصبح فى اليوم التالى وسار الى عمله كالعادة وهو يفكر فى أمره وأمر ادما وسليم وسلمى ، وفى اليوم التالى ورد اليه كتاب من سليم ، يقول له فيه :

« أخى الحبيب وصديقى الحميم حبيب ..

« لى كلام طويل أقوله لك عند الاجتماع بك قريبا باذن الله ، وانما أكتب اليك هذا راجيا أن تذهب الى سلمى وتقول لها هاتين الكلمتين سرا ، بحيث لا يسمعكما أحد ، وهما :

« ان سليما بخير وسلام وخجل .. وهو يسلم عليك سلاما زكيا ، ويطلب اليك أن تكونى فى سلام واطمئنان ، وأن تعدى نفسك للعفو عما ارتكبه فى حقك » ..

« وبعد أن تقول لهــا هذا تجتهد فى تسليتها واقناعها بانتهاء المتاعب .. وسأكون عندكم قريبا ، وأقص عليكم قصة من أعجب القصص التى طرقت آذانكم ، ولى من كل منكما عفو ألتمسه مقدما .. وعندما ألتقى بكما تنجلى لكما الحقيقة ..

« وأخيرا أختم هذا بالتحية والتقدير .. ودم سالما لصديقك الودود »

« سليم »

فلما تلا الكتاب ، عجب لما جاء فيه من العبارات المبهمة .. ولكنه حمله على ما علمه مما كان من تغير والدته عليه ، وان تلك العقبة قد زالت .. فأحس بارتياح كبير للوقوف على ذلك الخبر.. وسّر لزوال الأزمة عن صديقه وسار توا الى والدته ، وبشرها بذلك فشاركته فى سروره

ولكنه أخذ يفكر فى تبليغ تلك الرسالة ، وكيف يبلغها سرا بينه وبين سلمى .. وربما لا يتأتى له ذلك ، ولكنه أسّر بعزمه الى والدته وقال لها : « لابد لك من أن تساعدينى فى هذا الأمر لأن الاذعان الى اشارة صديقى سليم أمر واجب ، وقد خدمته جهد طاقتى حتى الآن ، فيجب أن أتمم الخدمة .. وهذا أهم ما أقوم به نحوه .. فما رأيك ؟ »

قالت : « ذلك أمر هين .. فى صباح الغد ، نسير مع شقيقتك شفيقة لزيارة بيت الخواجه سليمان ، وفيما نحن فى قاعة الاستقبال تدخل أنت وشقيقتك لزيارة سلمى اذا كانت لا تزال مريضة ، حتى اذا جلستما قليلا ، أدعو أنا شفيقة فأشغلها فى شىء .. فتخلو بسلمى وتقص عليها ما تريده »

فاستحسن الرأى .. وفى الصباح التالى ، احتال للغياب عن عمله ، وتأهبوا جميعا للذهاب ، فركبوا القطار من حلوان الى

القاهرة ، وساروا الى بيت الخواجه سليمان .. ولم يكن الخواجه فى البيت ، فاستقبلتهم الوالدة وهى لا تزال منقبضة الوجه لازدياد مرض ابنتها .. فدخلوا قاعة الاستقبال وهم يسألونها عنها ، وهى تشكو لهم حالها وضعفها ، وبعد أن جلسوا هنيهة قالت والدة حبيب لابنتها : « انهضى وادخلى غرفة سلمى للسؤال عنها وتسليتها ياحبيبتى »

فقال حبيب موجها الحديث لوالدة سلمى : « وهل أستطيع أن أراها أنا يا سيدتى ؟ »

فقالت : « نعم يا ولدى وما المانع من رؤيتها ، وأنت أعز من أخيها وأشد غيرة عليها من الأخ »

فنهض حبيب وشفيقة ، ودخلا غرفة سلمى بعد الاستئذان ، فاذا هى فى الفراش وقد هزل جسمها وامتقع لونها وغارت عيناها ، فلما رآها حبيب أشفق عليها وتأثر لحالها حتى ترقرقت الدموع فى عينيه

أما هى فحالما رأته لم تتمالك عن البكاء لتذكرها حبيبها سليما ، وما دار بينها وبينه .. ولكنها أرادت أن تتجلد ، فلم تستطع لضعفها ، فغلب عليها البكاء ، فمسحت دموعها بمنديلها وحيتهما فتقدمت اليها شفيقة والدموع ملء عينيها وقبّلتها وسألتها عن حالها ، فأجابتها انها فى حالة شديدة من الضعف لا ترجو معها النهوض من الفراش . فبكت شفيقة وحزن حبيب، ولكنه تذكر أنه جاءها بخبر يسرها ويشرح صدرها .. فاشتد

ميله الى الاختلاء بها حتى يخبرها به ، وجلس ينتظر أن تخرج شفيقة كما وعدته والدته بالأمس ، فسمع والدته تناديهـا .. فخرجت شفيقة الى والدتها تسألها عما تريد فقالت لها : « اعطنى كوب ماء » فذهبت لتأتيها به فتذكرت ادما فمالت الى استدعائها من نافذة الجيران لتأتى ، وأرادت بذلك أن تداعبها بمشاهدة حبيب هناك . ولما سمعت والدة سلمى احتياج زائرتها للماء ، خرجت هى بنفسها وجاءتها بقدح منه .. أما شفيقة فذهبت الى بيت الجيران ، ونادت ادما وهى تظن أنها تصنع حسنا معها ومع أخيها ..

فلمـا سمعت ادما نداءها ، جاءت مسرعة وهى ترجو لقـاء حبيبها هناك ، وقلبها يرفص فرحا .. فدخلت البيت محيية وقبّلت شفيقة وسلمت عليها ، فأمسكتها هـذه من يدها وهى تضحك كعادتها وقادتها الى غرفة سلمى ، ودخلت بغير استئذان قائلة لها سرا : « تعالى حتى أريك شخصا تحبينه » فدخلت ادما واذا بحبيب جالس على الكرسى الى جانب سرير سلمى ممسكا بيدها وهما يبكيان وفى يد حبيب ورقة

فلما رآها حبيب بغت ، وعلا وجهه الاحمرار ، وظهرت عليه علامات البغتة ، وهمَّ الى منديل يمسح به عينيه ، وقد ارتبك فى أمره لا يدرى كيف يخفى حاله ، ولا كيف يبرر سبب وجوده منفردا مع سلمى فى تلك الحال .. وأسرع الى الورقة ووضعها فى جيبه بسرعة ..

فلما رأته ادما فى هذه الحال ، غلبت عليها الغيرة وانقلب سرورها الى كدر ، وودت العودة حالا والاختفاء . وندمت على مجيئها ولكنها تجلدت ودخلت محيية ، وسألت عن صحة سلمى .. فوقف لها حبيب مسلما وهو يرتجف ، وقد امتقع لونه وظهرت عليه مظاهر البغتة والارتباك ، فلما لمس يدها أحس بها باردة كالثلج وهى ترتعش ، وآنس فى كلامها خشونة واعراضا .. فانقبضت نفسه وأعرض عنها ، فازدادت انقباضا وتحولت من الغرفة وخرجت ، فتبعتها شفيقة ، وهى لا تزال تمازحها ، ولم تنتبه لما تخاطب به قلبا حبيب وادما ..

فقالت لادما : « مالى أراك خارجة .. لعلك لم تسرى بمشاهدة حبيب »

فازدادت انقباضا ، وسارت الى باب الدار تريد الخروج ، فحاولت استبقاءها فلم تقبل .. وحاولت الاعتذار ، فألحت عليها بالبقاء فنفرت منها وخرجت رغما عنها ، وقد أخذت الغيرة منها مأخذا عظيما جدا ، فتركتها وعادت وهى لا تعرف ما هو سبب انقباضها وغضبها ، ودخلت غرفة سلمى .. فلما رآها أخوها وبخها لدخولها مع ادما بغير استئذان .. وسألها عنها فقالت : « انها خرجت غاضبة ولم ترد البقاء »

فقال لها : « وما سبب غضبها ؟ »

قالت : « لا أعلم .. وربما غضبت من سلامك الفاتر عليها »

فازداد غضبه وقال لها : « وماذا تنتظر منى ؟.. لعلها تنتظر

أن أسجد لها » ..

وقد أراد بذلك أن يتظاهر أمام سلمى ، بأن ليس بينه وبين ادما ما يوجب كثرة الاهتمام ، وعاد فقال لشفيقة : « كم قلت لك أن تتركى هذه البلاهة وتتعقلى ، أخرجى من هنا » فخرجت شفيقة غاضبة من كلام أخيها ، فحدثتها نفسها أن تسير الى ادما وتعنفها لأنها كانت هى السبب فى غضب أخيها عليها ، فخرجت وهى تبكى ، وسارت الى بيت ادما .. فاذا هى فى غرفتها منقبضة الوجه يائسة ووالدتها فى شاغل بشؤون المطبخ

فقالت لها : « جزاك الله خيرا يا ادما ، هـذا هو أخى قـد أهاننى من أجلك ، ووبخنى لأنى دخلت بك عليه بغير استئذان »

وكانت ادما فى غاية الغيظ ، وقد اشتدت فيها الغيرة وتحقق ظنها من حبيب ، واعتقدت ان والدته وشقيقته جاءتا لطلب يدها بغير ارادته ، فلم يأت لزيارتها بعد ذلك ، ثم رأته فى تلك الحال مع سلمى باكيين .. فلم يعد عندها شك فى حبه لسلمى ، واشتد بها الغيظ واليأس والندم على ابتذالها نفسها ، ولم تعد تعلم ماذا تقول ..

فلما سمعت تعنيف شفيقة لها انتهرتها قائلة : « وما ذنبى فى دخولى .. فانى لم أكن أعرف باختلائه مع سلمى ، ولم يخطر على بالى أن شابا مثله يجالس فتـاة وهى فى سريرها ، وليس أحد غيرهما فى الغرفة ، واذا كنت أنت تعرفين ذلك ، فلماذا أدخلتنى ياعزيزتى ؟ » ..

فغضبت شفيقة لذلك التعنيف الذى لم تكن تنتظره من ادما لشدة أملها فيها ، ولما عرفته من أنها ستكون زوجة لأخيها ، فغلب عليها حب الانتقام فقالت غاضبة : « وكيف يكون الحق علىّ يا ادما ، وما المانع من وجود أخى مع سلمى فى الغرفة وهى مريضة ، فما هذا الا من سوء ظنك بأخى .. ويا خسارة الأمل والمحبة » ..

فأغضبها ذلك وقالت لها : « لا أدرى ما المانع من وجوده معها فى خلوة وعيناهما تدمعان ، ولما رأيانى بغتا وأخفيا الورقة التى لا أدرى ما فيها و .... »

فقطعت شفيقة الكلام عليها ، قائلة : « هل تريدين أن تقولى أن أخى يحب سلمى ؟ .. وا أسفاه على الفرح الذى فرحته من أجلك » ..

فصاحت ادما ، وقد غلب عليها البكاء : « ولماذا هذا الفرح ؟.. يجب أن تحزنى علىّ أنا المسكينة التعسة الشقية » وأخذت تشهق من شدة البكاء

فازداد غضب شفيقة غيرة على أخيها وقالت : « جزاك الله خيرا يا ادما ، هذا جزاء المحبة .. أتظنين زواجك بأخى تعاسة وشقاء ، بل هو التعس اذا تزوج بك ، وهل تظنين انه لايستطيع الاستغناء عنك ، وهل يموت من أجلك .. انه فى غنى عن هذه التعاسة ، وهو اذا طلب ابنة أكبر الأغنياء لم يرفض طلبه .. فعلى أى شىء تفتخرين عليه ؟ أبجمالك ، أم بمالك ، أم بشرفك ؟ .. »

فأجابتها ادما ، وقد اشتعلت غيرة وحنقا ويأسا ، قائلة : « كفى عن هذا الكلام ، ولا حاجة الى هذه السخرية .. فنحن لا نزال على البر ، ولم يحدث شيء .. وكل منا فى بيته ، ولا حاجة لمثل هذا القول منك ، ولا تنسى ان أخاك ليس من أصحاب الثروة ، فهو لا يملك الا مرتبه الشهرى ، ولا يأتى عليه آخر الشهر حتى يكون أنفقه وهو مهدد بالطرد بين حين وآخر .. »

فأرادت شفيقة أن ترد عليها ، فاذا بوالدة ادما داخلة ، وقد سمعت مشاحنتهما ، فقالت : « ما بالكما ترفعان صوتكما ؟ »

فصاحت ادما بصوت مرتفع ، وقد غابت عن الصواب : « اتركينى يا أماه انى لا أريد هذا الرجل قط .. والموت أفضل لى من ... »

فأجابتها شفيقة بحنق : « وهو أيضا لا يريدك .. ومن أنت حتى تطمعى فى أن تكونى خادمة عنده .. ابقى فى بيت أبيك » .

وتركتها وخرجت وهى ناقمة عليها ، وقد احمرت عيناها من البكاء وبح صوتها من الصراخ

فوصلت بيت الخواجه سليمان ، فرأت أخاها ووالدتهاخارجين فخرجت معهما وعيناها تتقدان غيظا ، فسألاها عن سبب ذلك ، فأخبرتهما بالقصة .. وبالغت فى قول ادما وسوء ظنها ، الى أن قالت : « وقد عايرتنا بالفقر ، وقالت ان أخى لا يملك شيئا ، وانها لا تريده »

فحمى غضب حبيب ، وتذكر أنها هى التى أحبته أولا ،وكتبت

اليه ذلك الكتاب فاشتد به حب الانتقام ، ولم يعد يتمالك نفسه من شدة الغيظ ، لا سيما وانه لم يكن شديد التعلق بها كثيرا ، فاحتقرها وكرهتها نفسه وقال لوالدته : « لعن الله النساء .. ما أقدرهن على التظاهر بالكمال وهن أفاعى سامة . كيف تتجرأ هذه الدنيئة على مثل هذا القول ، وهى التى عرضت نفسها علىَّ ، وتذللت حتى رق قلبى لها .. ولم أطلب يدها الا شفقة عليها ، لعن الله الساعة التى عرفتها فيها ، ما أشد مكرها وأردأ ظنها .. كم كنت أقول لك يا أماه أنى لا أريد الزواج ، ولم يكن خوفى الا من مثل هذا الأمر الذى تعرضت له الآن .. »

فابتدرته والدته قائلة : « انك لم تتعرض لشىء ما يا ولدى ، فهى فى بيت أبيها ، وأنت فى بيت أبيك ، ونحمد الله على أننا لم نعقد خطبة ولا زواج ، فلنتركها وشأنها ونرى من يقبل عليها .. فان البنات فى هذه الأيام لا يتزوجن الا ببذل أموال والديهن بعد شق الأنفس ، فانزعها من بالك ولا تهتم بها وانظر الى الفرق بينها وبين هذه المسكينة سلمى ، كم قاست من سليم ولا تزال تعطف عليه وتتمنى أن يكون لها .. »

فقالت شفيقة ، وقد فرحت من تحقيق غايتها : « دعونا من هذه الفتاة .. ولك علىَّ يا أخى أن أختار لك فتاة ليس أجمل منها ، ولا أكثر من مالها »

فقال حبيب : « كلا .. انى لن أتزوج قط ، لأنى لا أرى بين الفتيات تفاضلا ، وكل واحدة أشد مكرا من غيرها » . وساروا

وهم فى هذا الحديث وأمثاله حتى وصلوا الى محطة حلوان ، فركبوا القطار اليها ..

أما ادما ، فتركناها ووالدتها قد دخلت عليها ، وسمعت منها أنها لا تريد الزواج بحبيب ، فلما خرجت شفيقة أخذت تسألها عن سبب غضبها ، فلم تسمع منها الا البكاء والنحيب ، وهى تقول : « كلا .. لا أريده ولا أريد أحدا سواه ، لعن الله الرجال، ولعن الله ساعة ولدت فيها فتاة ، دعينى يا أماه فقد ضاق صدرى ونفد صبرى .. »

فتملك الحزن قلب والدتها ، وجعلت تخفف عنها ، وتعيد عليها السؤال قائلة : « ما بالك يا ادما .. لماذا لا تخبريننى بحقيقة الأمر ، ألست والدتك ؟ .. ومن لك فى هذا العالم لكى تطلعيه على سرك أصدق منى .. أخبرينى .. »

فتعلقت ادما بأمها ، والدموع تتساقط من عينيها ، وقبّلتها قائلة : « نعم يا أماه .. أنت عزائى الوحيد فى هذا العالم ، وليس لى سواك ، ولكنى أقول انى لم أعد أريد حبيبا ولا سواه »

قالت الوالدة : « لماذا لا تريدينه وهو يحبك كثيرا وقد بعث يطلب يدك بعد موافقتنا ؟ »

قالت ادما : « كلا .. انه لا يحبنى يا أماه ، بل يحب سواى آه منه ما أقسى قلبه وما أجمد دمه .. »

فدهشت والدتها عند سماع ذلك الكلام ، وقالت : « كيف تقولين ذلك ؟ .. ومن هى التى يحبها سواك ؟ .. »

قالت ادما : « أنا أعرف من يحب .. أنا أعرف .. لا أريده »
فعاودت أمها السؤال وألحت عليها فى مصارحتها ، فقالت :
« انه يحب ... » وتوقفت عن الكلام

قالت الوالدة : « قولى يا ادما ولا ترددى .. قولى ياحبيبتى لا تخفى عنى شيئا ، فلعلك تكونين مخطئة فى ظنك .. »

قالت ادما : « كلا .. أنا لست مخطئة .. انه يحب سلمى .. يحب سلمى .. وقد تأكدت من ذلك حتى لم يعد عندى شكفيه»

قالت الوالدة : « وكيف عرفت ذلك ؟ .. واذا كان يحبها لماذا لم يخطبها منذ زمن مديد وهو يتردد على بيت والدها ، وسلمى بالرغم من ذلك مخطوبة يا ادما ، فاتركى هذا الظن من بالك »

قالت ادما وقد ازدادت غيرتها : « لا أعلم لماذا ، ولكنى أعلم انه يحبها حبا شديدا ولا يهتم بى ، وقد لاحظت منه ذلك قبل الآن ، وكنت أغالط نفسى .. أما الآن فقد تحققت من الأمر حتى لم يعد لدىّ شك فيه قط .. انها يحبها وهى تحبه .. »

فأمسكتها والدتها من يدها ، وأجلستها على انسرير ، وجلست الى جانبها وجعلت تمسح لها عينيها بيدها قائلة : « خففى عنك يا ابنتى وأخبرينى عن قصتك .. »

قالت ادما : « لا أستطيع أن أقصها لك لأن أعصابى ترتعد عندما أتذكر ذلك .. دعينى وشأنى يا أماه »

قالت الوالدة : « لن أتركك حتى تخبرينى بها .. والا فانى سأغضب منك »

فعند ذلك هدأ روع ادما ، وقصت على والدتها القصة من أولها الى آخرها ، ولكنها لم تذكر أمر الورقة التى بعثت بها اليه ولا ما يتعلق بها

وبعد سماع ذلك ، قالت لها والدتها : « لا أراك الا واهمة يا ادما لأنى لم أفهم من هذه القصة انه يحبها ، وانما أفهم أنه يتردد على بيت الخواجة سليمان ، وهو يتردد عليه من زمن بعيد، وهم يحبونه كثيرا ، وهو يحب سلمى محبة الأخ لأخته ، والا لما كان هناك ما يحمله على ارسال والدته لطلب يدك من والديك »

فأرادت ادما أن تخبر والدتها عن الورقة التى بعثت بها اليه ، وانها هى التى حملته على ذلك ، فمنعها الحياء .. فسكتت برهة ، ثم قالت : « لا أدرى ما الذى حمله على ذلك ، وانما أعرف انه يحب سلمى ، ولا يحبنى .. ومهما كان من الأمر فيجب علىَّ أن أقطع كل أمل منه وأعود الى حالتى الأولى »

فوقعت والدتها فى حيرة من ذلك ، ولو كانت على شىء من الذكاء لأدركت أن وراء سكوت ادما شيئا تخفيه ، ولكنها كانت سليمة النية على جانب من السذاجة ، فقالت : « تمهلى يا ابنتى فى حكمك ، ولا تتعجلى فى غضبك .. فان مثل حبيب لا يعامل هذه المعاملة لأنه شاب مهذب مجتهد يندر أمثاله .. ولا يخفى عليك يا ابنتى حال البنات الآن وقلة الطلاب ، فاذا فتح لك باب مثل هذا يجب عليك التأنى والصبر ، وأخذ الأشياء بالتؤدة حتى تنجلى لك الحقيقة لأن غضبك على هذه الصورة فضلا عن أنه

يفقدك هذا النصيب فانه ربما جلب عليك العار ، وتحدث الناس فيه . فالصبر أولى يا ابنتى ، اذ يغلب على ظنى أن حبيبا برىء من هذه التهم ، ولم يسبق أن تحدث عنه أحد مثل هذا الكلام ولنفرض أنه يحب سلمى .. فانه متى تم النصيب وصار زوجا لك لا يعود اليها ، ولن يفكر فى سواك .. »

فخجلت ادما عند سماع كلمة الزواج ، وعلا وجهها الاحمرار وبعد السكوت برهة قالت : « كيف أتعلق به وهو يحب غيرى ؟ هذا شىء لا أستطيعه ، ولو كنت أنت فى مركزى لفعلت مثلى »

فأجابتها والدتها : « أنا لا ألومك على غيرتك وانهيار آمالك ، ولكن كما قلت لك يا ابنتى ، ان البنات الآن يتخذن كل وسيلة حتى يستطعن اغراء الشبان اليهن ، واذا شعرت الفتاة منهن أن شابا يحبها أو يميل اليها تبذل قصارى جهدها فى ارضائه ، وتتغاضى عن كل ما تراه فيه من مثل هذه الأمور .. علما منها أنها متى وصلت الى غايتها وتزوج بها يصير مضطرا لارضائها ، ويصبح كل أحد سواها غريبا . وأنا أعرف أنك بعيدة عن كل دنيئة ولا أرضى لك بالتزلف الى أحد قط ، ولم أذكر لك ذلك الا على سبيل المثال لكى لا تكبر عليك مصيبتك وتسببى ما يغضب هذا الشاب ، وهو يحبك ونحن لم تتحقق شيئا مما ظننته به .. فهل يليق بنا أن نزيد غضبه حتى ينفر منك .. »

أما اذا تحققنا أنه لايريد الزواج بك ، فليفعل ما يشاء ، وأنت عند ذلك يصح لك النفور منه ، ولكنه الآن قد بعث الينا

مع والدته وطلب يدك ، فلنصبر حتى تتم الخطبة ، وعند ذلك اذا شاهدنا منه ما يثبت ظنك ، نؤنبه أولا .. وعند ذلك يضطر اما الى فسخ الخطبة أو الى ترك تلك التى يحبها . واذ ذاك لايكون فسخ خطبتك سهلا لارتباطه بعقود وعهود رسمية، واذا بقيت الأمور هادئة حتى يتم الزواج لا يكون هناك ما يخيف »

فسكتت ادما ، ولم تجب .. وكانت تائهة فى بحار الهواجس ، وقد أحست بتسرعها فى الحكم .. وخشيت عواقب ذلك لأنها ارتكبت بكتابة تلك الورقة اليه عملا يفتح بابا للكلام فيما يشينها ، فكظمت غيظها وفضلت موافقة والدتها فى أخذ الأمر بالتأنى حتى تتم الخطبة

أما والدتها فتركتها وذهبت الى بعض المهام فى بيتها ، فنادتها ادما وسألتها أن تكتم الأمر عن والدها .. فوعدتها بذلك ، وذهبت وهى تفكر فيه وتتذكر ماقيل عن حب حبيب لسلمى ، فيخطر لها أن سلمى مخطوبة لسليم .. وهذا اذا علم بحبها لغيره يتركها ، فطرق ذهنها بغتة أن سليما اذا ترك سلمى ربما يميل للزواج بادما ، وهو عندها أفضل من حبيب لأنه صاحب صناعة شريفة ، كثيرة الربح حسنة المستقبل ، وأما حبيب فلا صناعة فى يده ، واذا ترك الوظيفة يصبح صفر اليدين .. ولاسيما أن موظفى الحكومة معرضون للطرد كل ساعة .. وأرادت أن تعود الى ادما وتخبرها بما خطر لها ، ولكنها خشيت أن تمهد بذلك سبيلا لزيادة نفورها من حبيب وتعلقها بسليم ، فأبقت الأمر فى سرها ..

- ٣٠ -

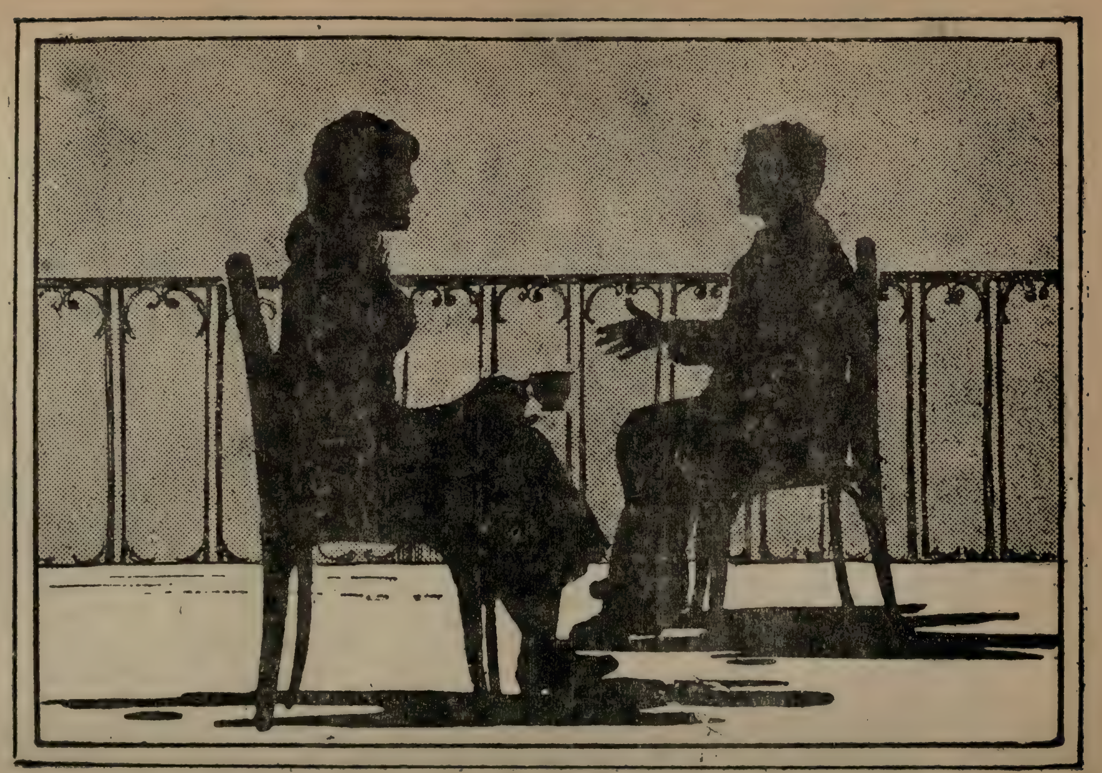
التخلص من الشراك

أما سليم فقد تركناه فى الاسكندرية يدبر وسيلة للخروج من بيت السيدة وردة ، وكانت هذه قد وطنت نفسها على اتمام الحيلة على سليم لأن ابنتها أخبرتها بما ظهر لها منه وما دار بينهما .. فأوصتها أن تواصل مداعبته حتى يقع بلسانه ، ويربط معها عهدا ، وتواطأت معها على أن تخرج ووالدة سليم للنزهة خارج المنزل .. فيخلو لها الجو بسليم ، وتظل تستدرجه حتى يعدها بأن يتزوج بها ..

فلما كان الظهر تناولوا الغداء ، وكل يفكر فى حيلته .. هذا يدبر طريقة للخروج من البيت والتخلص من الشراك ، والآخر يدبر الشراك ويعد الحبائل كى يقتنص الفريسة ..

وفى أثناء الطعام قال سليم : « أشعر اليوم بتحسن كبير فى صحتى لأن الحمى قد فارقتنى من الأمس ، وأرى الأنسب أن أبادر الى اجابة طلب وكيل مكتبى فى القاهرة ، وأسرع فى الذهاب اليه » ..

فقالت وردة : « الحمد لله على سلامتك ياعزيزى وهذا ما نتمناه يا ولدى ، ولكن ما الداعى لسرعة ذهابك ، أفلا ترى الأنسب أن تبقى هنا ريثما تستعيد نشاطك ، تفاديا لعودة المرض .. »



« وفى أثناء الطعام قال سليم أشعر اليوم بتحسن كبير فى صحتى ، لان الحمى قد فارقتنى من الالسن وارى الانسب ان أبادر الى طلب وكيل مكتبى فى القاهرة.. وأسرع فى الذهاب اليـه .. »

قال : « ياحبذا ياسيدتى .. فان ذلك غاية ما أتمناه ، ولكنى مرتبط بمشاغل كثيرة فى القاهرة ، وقد تركت بعض القضايا معلقة .. وعدم مباشرتى لها واتمام الاجراءات الخاصة بها يسبب لى ولأصحابها خسارة عظيمة ، فضلا عن أنه يسىء الى سمعتى . لقد كنت أتمنى من كل قلبى أن أبقى هنا لولا ذلك ، واما صحتى فانى أشعر بتحسن واضح فيها بفضل حسن رعايتك .. »

فلما سمعت ميليا ذلك منه ، لم تتمالك عن الانقباض ، وغلب عليها اليأس ، فترقرقت الدموع فى عينيها ، وكانت تظن أن تلك الدموع تحمل سليما على الميل اليها والعدول عن السفر ، ولم تكن قد علمت بما كشفه عنها وعن دهاء والدتها ، وعللت نفسها أن وجودها معه على انفراد بعد ظهر ذلك اليوم يمكّنها من اقناعه

أما والدتها فقالت : « ولكن لاتتعجل ياعزيزى فى السفر خوفا على صحتك من الانتكاس ، وبين اليوم والغد وقت قصير »

فقالت ميليا ، وهى تقطع الخبز وتتناول منه شيئا وعيناها تتكلمان وحاجباها يشيران : « لا تلحى عليه ياوالدتى ، لأنه قد مل الاقامة بيننا على ما يظهر ، فلا يجب أن نضغط على ارادته »

قالت ذلك وهى تنظر الى ما بين يديها من الطعام كأنها تستحى أن ترفع نظرها الى ذلك الشاب

فابتدرتها والدة سليم بالكلام قائلة : « ان السكنى معكم يا ابنتى لا يمل منها ، ويا حبذا لو سكنا معكم الدهر كله ولكن .. »

فقطعت وردة الكلام عليها قائلة : « لو كان الأمر كما تدعين لما تركت العزيز سليما يسرع فى سفره الى هـذا الحد ، ولكن لا بأس فالمحبة لا تكون قهرا »

فتلطف سليم فى الحديث ، وقال : « العفو ياмولاتى ، انك قد ظلمتنا بهذا التلميح ، واذا لم يكن ثمة موجب للمحبـة الا ما تفضلت به على من الأفضال وما أظهرت فى مرضى هذا من الغيرة لكفى به موجبا للمحبة ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات .. »

ثم نهضوا عن الطعام الى غرفة سليم لأنه كان يشعر بضـعف على أثر ما قاساه ففضل الجلوس على السرير

ودخل الجميع الى غرفته وجلسوا يتجاذبون أطراف الحديث وكل يحاول تحقيق حيلتـه ، وفى السـاعة الثالثة نهضت السيدة وردة الى نافذة الغرفة وأطلت على البحر وقالت : « ما أجمـل هذا اليوم ، كم هو صاف مشرق ، وما أجمل التنزه على شاطىء هذا البحر ، وياحبذا لو نزلنا للتريض هناك ، ولكن سليما أظنه لا يستطيع ذلك »

فقال سليم : « أرى الأنسب أن أستبقى قواى لتحملنى الى الاسكندرية ثم الى القاهرة »

فأعجبها جوابه لظنها أنه يحقق هدفها ، فقالت : « ولكن الا تذهبين معى ياست أم فؤاد فى هذه النزهة برهة »

قالت : « ياحبذا يا أختى ، ولكننى أفضل البقاء بجانب سليم اذ ربما يحتاج الى شىء »

فقالت : « تترك ميليا عنده ، وهى تقوم بخدمتــه فى كل ما يريد » وقد ظنت أن ذلك مما يوجب امتنان سليم ووالدته ، وما درت انه زاد والدة سليم شكا فيها وايمانا بسوء قصدها ..

فقالت والدة سليم : « وليس بقائى لخدمة سليم فقط ، ولكننى أريد الاستعداد للسفر بعد ســاعة قبل أن تميــل الشمس نحو الغروب ويبرد الهواء »

فلما تحققت من عزمها على السفر لا محالة ، قالت لها : « ونحن نسافر معكم أيضا ، اذ لا هدف لنا من بقائنا هنا بعد سفركم »

قالت ذلك ، وأخذت تتأهب للسفر ..

ولم يكن هناك ما يستدعى تأخرهم ، فتأهبوا وركبوا القطار قبل الغروب فوصلوا الاسكندرية فى العشــاء ونزلوا فى بيت الخواجة فؤاد ، مع أن السيدة وردة ألحت عليهم بالذهاب الى بيتها فى محرم بك ، فلم يقبلوا .. فتركتهم فى بيت الخواجة فؤاد وذهبت وابنتهــا الى البيت ، وهى فى هاجس من قبيل ذلك ، ولكنها جعلت تعمل الفكر حتى تنتفع من وجودهما هنــاك ، فكتبت الى داود تخبره بالأمر وتحثه على اتمام المرغوب

وفى الصباح التالى ، بكرت الى بيت الخواجة فؤاد .. فاذا بهما يتأهبان للسفر .. فودعتهما وأظهرت كل ما اســتطاعت من التأسف على فراقهما ..

- ٣١ -

اجتماع الشمل

أما سليم ووالدته فلم يباليا بشىء .. وفى الساعة التاسعة غادرا الاسكندرية وبعثا برقية الى حبيب يخبرانه بمجيئهما ، فجاء لاستقبالهما فى المحطة فاذا بسليم قد نقه من المرض ، ولكن لا يزال عليه أثر الضعف .. فقبله وسار الجميع الى منزل سليم فى الفندق ، ولم يتمالك سليم عند مقابلة صديقه عن ذرف الدموع خجلا وندما على مافرط منه فى حقه .. وعند وصولهم الى الغرفة ، قال له : « والله انى لا أستطيع مكافأتك على جميلك أيها الصديق ، ولا أحد يعلم مقدار شكرى لك الا هذه الوالدة . ولكن أخبرنى بالله كيف عرفت ما كان دائرا بينى وبين والدتى من المكاتبات بشأن سلمى ، مع انى كنت أكتمه عن كل انسان »

فتبسم حبيب وقال : « قد عرفت ذلك بطريق الاتفاق » وقص عليه حكاية الجزيرة فخجل سليم لانكشاف أمره ، وكان يظن أنه فعل ذلك ولا يعلم به أحد ، فأخذ حبيب يهون عليه وقال : « لا بأس يا صديقى ، لأنى لو لم أعلم ذلك ما استطعت القيام بخدمتك ، والحمد لله على نهاية الأمر بالسلامة »

فقال سليم : « ولا يزال لدى أمر واحد أسألك عنه ، وهو يهمنى كثيرا ، فهل تصدقنى فى الاجابة عنه »

قال : « نعم .. »

قال : « عثرت على ورقة مكتوبة بخط يشبه خط سلمى فى كتاب أعطتنى اياه شقيقتك للمطالعة ، يوم كنت عندكم فى البيت فمن أين أتتك هذه الورقة »

فتذكر حبيب حكاية ادما وغلب عليه الحياء .. وتذكر مادار بينه وبينها بالأمس فعلا وجهه الاحمرار وظهر عليه الارتباك

فابتدره سليم قائلا : « أصدقنى الخبر ، فانى قلق لذلك ، ولا تخف من غضبى لأنى مؤمن بسلامة نيتك ايمانا راسخا »

فقال : « ليس هناك ما يوجب الخوف لأن الورقة ليست بخط سلمى ياعزيزى ، وانما هى بخط فتاة غيرها .. لا علاقة لها بسلمى قط .. وسأقص عليك قصتها فى فرصة أخرى على انفراد ، ولكن أخبرنى الآن عن سبب رجوعك من الاسكندرية بغتة »

فتنهد سليم وقال : « آه ياحبيب ان حكايتى غريبة كل الغرابة ، ولو لم تسعدنى الظروف ويقع بيدى كتاب مرسل الى سواى ، ودفع الىَّ بطريق الخطأ ، لوقعت فى هوة لا نجاة لى منها .. ولكن الله أنقذنى رفقا بهذه الوالدة ودفعا للشبهة عنك »

فاشتغل بال حبيب لذلك ، وألح عليه فى أن يصارحه بالحقيقة ، فقص عليه القصة من أولها الى آخرها ، وكشف له سره وما كان يضمره من ناحيته ، وما نواه له ..

فلما سمع حبيب ذلك اشتعل غيظا من ذلك الرجل المفسد وقال : « تبا لهذا الشقى القبيح الخلق والخلق ، والله أنه يستحق القتل .. ولن أتركه حتى أوقعه فى شر أعظم مما أراد

ايقاعك فيه .. »

فقال سليم : « وهل كنت تعرفه ياحبيب ؟ » ..

قال : « كنت أعرفه معرفة بسيطة ولكنى كنت أكره منظره ، وكنت أقرأ أخلاقه على وجهه ، ولذلك لم أكن أعيره اهتماما ولا أخاطبه .. وكان يتردد أحيانا على بيت الخواجة سليمان ، وسلمى لا تستطيع مشاهدته . وأما حكاية خطبته والدراهم فلا أصل لها البتة ، وهى دسيسة كما قد علمت ــ لعنه الله ــ وكم سبب لك ولذلك الملاك الطاهر من المتاعب .. انك والله قد أسأت اليها ياسليم ، ولم أكن أعلم ان فى قلبك عليها غلاً غير ما كنت علمته عن عدم رضى والدتك عنها .. »

فقال سليم : « دعنى ولا توبخنى ، فان لى من ضميرى مايكفى لتوبيخى ، وترانى لا أستطيع مخاطبتها مِن شدة الخجل وبالله تخبرنى كيف هى الآن بعد أن بلّغتها الرسالة » ..

قال : « كانت فى حالة يرثى لها وأما الآن فهى بخير »

قال ذلك وتنهد ، فأحب سليم أن يعرف سبب ذلك التنهد ، فأشار اليه وخاطبه بالفرنسية بأنه سيخبره به فى فرصة أخرى لأن الأمر ذو شأن .. ولا ينبغى اذاعته ، فوافقه ..

ثم نهضت والدة سليم ، وقبلت حبيبا وشكرته على تلك الغيرة التى ليس فوقها ، ولا أشد منها غيرة ، وقالت : « عسى أن نكافئك ياعزيزى على هذه الروح الطيبة والوفاء النادر .. »

فقال حبيب : « والله لم أعمل شيئا بعد ، اذا كنت لا أقتص من

ذلك الخائن الذى ألقى بذور الشقاق فيما بيننا ، وفرّق بين حبيبين ليس أطهر من قلبيهما .. لعن الله الأشرار وجازاهم بسوء أعمالهم »

فقال سليم : « ما لنا وله ياعزيزى .. نشكر الله على نجاتنا من حبائله ، فان حبوط مسعاه يكفى وحده للانتقام منه .. اذ ليس على الخائن أشد وطأة من خيبة مسعاه فهو :

كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

« والآن ما العمل .. أريد أن أذهب الى سلمى وأشاهدها ، ولا أدرى كيف أقابلها وقد ارتكبت ما ارتكبته فى حقها ، ولكن هل علم والداها بشىء مما دار بيننا »

قال : « كلا .. ولكنهما علما أنهـا مريضة وهما يظنان أنك مريض ، وآخر مرة عرفا منى أنك سافرت الى الاسكندرية لتغيير الهواء ، ولابد من أن يكون قد خامر بالهما شىء ، ولكن اشتغال بالهما بمرض سلمى لم يترك لهما فرصة لادراك الحقيقة . ولست أدرى اذا كانت تلك الخادمة العجوز قد دست اليهما شيئا اتماما لمكيدتها » ..

فقال سليم : « فلنذهب بعد ظهر هـذا اليوم الى سلمى مع والدتى ، كى تتعرف احداهما بالأخرى ، وننسى مامضى »

قال : « حسنا .. فاسترح الآن ونم قليلا من وعكة السـفر ، وبعد الغـداء نذهب معا .. وها أنذا ذاهب الى حلوان لأخبر والدتى بحضورك لأنها تحب مشاهدتك ، وهى قلقـة عليك ولا تزال منذ تركت حلوان ، وهى لاتعرف مقرك ، ولولا عزمك على

زيارة سلمى الليلة ما ذهبت الى حلوان بدونك ، وعلى أى حال فانى سأعود اما وحدى واما مع والدتى ونذهب معا الى سلمى »

قال : « حسنا » فودعهما وخرج تاركا سليما ووالدته يثنون على غيرته ، ولكن سليما كان مشتاقا لاستطلاع سبب اضطرابه كما وعده ..

فتناولا الغداء مما تيسر الحصول عليه فى المنزل ، وناما يسيرا ونهض سليم أحسن حالا مما كان .. وفى الساعة الثالثة بعد الظهر جاء حبيب ووالدته ، فلما اجتمعت الوالدتان أخذتا تتشاكيان سرا ، وكل منهما تقص مصائبها على الأخرى ، فباحت والدة حبيب بكل مادار بين ابنها وادما وما انتهت اليه الحكاية . وفى أثناء حديثهما ، كان حبيب يقص على صديقه حكاية ادما وتلك الورقة ، وكيف بعد أن ذهبت والدته لخطبتها غارت عليه من وجوده مع سلمى وكيف وقع النفور بينهما

فقال سليم : « والله يا أخى انى لا ألومها اذا غارت عليك من وجودك مع سلمى ، فانى رجل والرجال عادة أقل غيرة من النساء ، ولما شاهدتك مرة فى قاعة الاستقبال مع سلمى أشتعلت غيظا ولم أتمالك عن النفور منك ، وقد أخبرتك بهذه القصة فلا تلم ادما ولا تظلمها ، انها والله جديرة بمحبتك وتقديرك .. واذا أحببت فلا تتردد ، اذ قد فهمت من سياق حديثك عنها أنك أحببتها بعد أن أحبتك ، وهى التى قادتك الى الحب بكتابتها فلا تتخذ ذلك ذريعة للاستخفاف بها .. بل يجب أن تعتقد اعتقادا

راسخا أنها مع ما أعرفه فيهـا من الرزانة والتهذيب والتعقل لم تكتب اليك تلك الورقة الا لأنها أحبتك محبة شـديدة جدا ، حتى خاطرت بكرامتها وأنزلت نفسها منزلة لا تليق بها من أجلك فلا تكن مترددا فى محبتها ، ولا تغضب لسبب تافه ، لأن ذلك ليس شأن أمثالك .. فأنت شاب أديب النفس ، قويم السيرة ، فلا يليق بك أن تكون سببا فى شقاء فتاة تفانت فى حبك .. وأنت تقول أنك أحببتها ، فهل من أجل غيرتها عليك تتركها بدلا من أن تزداد حبا لها وشغفا بها ، لأن الغيرة تزداد بازدياد المحبة .. ولك فىَّ وفى سلمى أقوى دليل ، وعندى انها لو لم تتملكها الغيرة عليك لاستوجبت نفورك منها وفتورك فى محبتها

« ولكن يظهر أنها قد وضعت كل آمالها فيك .. وصارت لا يهنأ لها عيش الا برضاك ، وهى من أجل ذلك تغار عليك من كل انسان ، وهذه فضيلة تمدح من أجلها ، فأنا لو اتفق لى أن أكون فى مثـل ما كنت أنت مع سلمى — يوم دخلت عليكما ادما — ودخلت سلمى ، ولم تغر على لاستبردت محبتها .. ولا أخفى عليك أنى أخاطبـك بكل اخلاص ، وأومن بسـلامة نيتـك فى جلوسك مع سلمى ، لأنى أنا الذى كلفتك بالذهاب اليها ، ولكننى حينما أتصور وجودك معها تخاطبها على انفراد أشعر بغيرة داخلية قوية ، أدفعها بحسن اعتقادى فيك .. فبناء عليه ، اعذرنى اذا قلت لك أنك لم تختبر الحب ولا عرفت عواطف المحبين ، ولذلك فأنت كمن يهرف بما لا يعرف ، فارجع الى عزمك فى خطبة ادما ، وأنا فى

هذه الحال يجب على أن أكون واسطة فى اعادة روابط المحبة بينكما ، لأنك كنت أنت واسطة اعادة الروابط بينى وبين سلمى الا اذا كنت تغار عليها منى » وضحك

وكان حبيب أثناء ذلك الحديث مصغيا وكله آذان يسمع ، وتحركت فيه عاطفة الشهامة والحب معا ، ولا سيما عندما سمع قوله أنه سيكون سببا فى شقائها بدلا من سعادتها ، لأنها أحبته وعرّضت اسمها وشرفها للخطر من أجله ..

فلما أتم سليم كلامه ، همّ حبيب به وقبّله قائلا : « بارك الله فيك وفى غيرتك أيها الصديق . ان كلامك هذا قد وقع من نفسى موقعا ليس أحسن منه .. وقد شعرت بشفقة وحنان نحو تلك الفتاة ، ولم أعد أستطيع البقاء الى الغد دون مشاهدتها والتخفيف عنها .. انها فى الحقيقة ملاك طاهر ، لعن الله الحدة والغضب وسرعة الانفعال .. ما أضرها »

فقال سليم : « وما الذى أدى بى الى هذه الحال وأوقعنى فى هذه الشرور غير الحدة والتسرع ، والقضية كلها من أولها الى آخرها سوء تفاهم وقع بيننا فلم تتمهل فى الحكم ، وأسرعت فى الغضب فحدث ما حدث ، ولقد صدق من قال : « ان سوء التفاهم أصل التخاصم »

فقال حبيب : « قد وطنت نفسى الآن على ازالة سوء التفاهم الذى وقع بينى وبين ادما .. ولكن لابد أن أقتص من ذينك الخائنين داود وسعيدة ، لعنهما الله .. واذا أنت لم توافقنى تمسكا

بالفضيلة وكرم الأخلاق.. فانى لا أستطيع الا الاقتصاص منهما بحيلة من نوع حيلتهما .. ولا تجادلنى فى الأمر ، فما أنا بمقتنع منك مهما أتيتنى به من البراهين .. وقد آن وقت الذهاب الى سلمى ، هيا بنا »

وكانت الوالدتان فى مثل ذلك الحديث فى غرفة أخرى فنادياهما وساروا جميعا قاصدين بيت سلمى

أما سليم فكان مختلج القلب خجلا وشوقا . يفكر كيف يقابل سلمى بعد أن كتب اليها ما كتب .. وأخذ يعد عبارات يقولها معتذرا عن ذنبه ، وكان كلما اقترب من بيتها يزداد خفقان قلبه حتى دخلوا شارع شبرا ، وأشرفوا على البيت .. فازداد اضطرابه ، وهاجت أشجانه ، وترقرقت الدموع فى عينيه

أما حبيب فكانت أفكاره تائهة فى ادما .. وما أن بلغ ذلك الشارع ، وأشرف على بيتها ، حتى أخذ يتطلع اليه وهو يتوقع أن يشاهدها فى الشرفة .. فيشير اليها مسلما ، تخفيفا لما بها وتطمينا لقلبها ..

وكانت ادما قد قضت الليل الغابر لم تذق نوما ، وقد وقعت فى وهدة اليأس لا تعرف كيف تعزى نفسها ، وكانت قد خرجت فى عصر ذلك اليوم الى الشرفة لتفريج كربتها بمشاهدة المارين ، وهى لا ترى أحدا لفرط اضطرابها

فلما رأت حبيبا بغتت ، وازداد خفقان قلبها ، وأخذت ركبتاها ترتجفان ، وقد تذكرت مصيبتها فيه فأرادت الانزواء فى الغرفة ،

فاذا به قد أشار اليها برأسه مسلما ، وأومأ بيـده أن تأتى بيت الخواجة سليمان .. وشاهدت سليما معه ، فعجبت لذلك ، غير أن تلك الاشارة من حبيبها كانت كافيـة لتخفيف كربها وزوال اضطرابها ، فأحست بانفراج كربتها .. ونسيت كل ما قاسته فى ذلك الليل ، ولكنها ما انفكت فى ريب من تلك الدعوة الى بيت سلمى ، فلما عرج الجماعة للدخول الى بيت الخواجة سليمان دخلت ادما ، وعلى وجهها أمارات السرور .. وأخبرت والدتهـا بما حدث ..

فقالت : « لعله رجع الى عقله ، وعاد الى صوابه ، فندم على ما فرط منه .. وهذا ما كنت أتوقعه »

فقالت : « وهل أذهب الى بيت سلمى يا أماه ؟ »

قالت ذلك وهى تخشى أن لا تأذن لها ، لأنها كانت شديدة الميل الى الذهاب

فقالت : « الأفضل أن تذهبى ، ولكن أرى أن أذهب أنا برفقتك خوفا من كلام الناس » وأخذتا تتأهبان للذهاب ..

أما سليم فلما وصل الى باب البيت ، لم يعد يستطيع الوقوف من الارتجاف بسبب ماهو فيه من الضعف والخفقان ، فوقف برهة عند أسفل السلم ، وهو يفكر فى سلمى ، ويقول فى نفسه : « اذا كنت أنا فى هذه الحال ، فكيف تكون هى عند مشاهدتى »

فنادى والدته وحبيبا وقال : « أرى الأنسب أن لا أدخل اليها بغتة ، ولكن تذهب أولا الست أم حبيب مع والدتى وتعرفها

اليها ، ثم أدخل أنا » فوافقوه

أما سلمى فقد تركناها فى الغرفة مع حبيب ، وقد قصَّ عليها ماجاء اليها من أجله ، وهى تسمع ولا تصدق حتى أكد لها الأمر ووعدها بقرب مجيئه فبكت لشدة الفرح ، وبكى هو لبكائها وأمسك بيدها ليخفف عنها .. ودخلت اذ ذاك ادما ، وكان من أمرها ماكان ..

فلما ذهب حبيب من عندها عادت تفكر فى حالها ، وتتذكر ماوقع لها مع سليم ، وتعجب لما حمله على هذا التغيير السريع ، وباتت تلك الليلة ، وقد عادت اليها آمالها .. غير أنها مابرحت تخشى معاندة الدهر .. وأصبحت لفرط ماقاسته لاتعتمد على شىء ، فما صدقت أن طلع الفجر ثم أشرقت الشمس حتى أخذت تعلل نفسها وتعد الساعات وتشغل عواطفها تارة بالقراءة وطورا بالأحاديث ، ونادت سعيدة بازاء السرير تعزيها وتسليها .. وقد ارتابت مما رأته بالأمس من اختلاء حبيب بها ومارأت من تحسن حال سلمى على أثر ذلك ، وأرادت أن تستطلع سبب ذلك منها ، فقالت : « أراك أحسن حالا من ذى قبل ياسيدتى »

قالت : « انى أشعر بتحسن فى صحتى والحمد لله »

قالت : « وأنا أؤكد لك متى تركت تلك الحكاية من ذهنك لايعود ثمة مايكدرك لأن الشبان لايشفقون على البنات ولا يرثون لعواطفهن ، ولا أظن السيد سليما الآن الا فى رغد وهناء مع فتاة الاسكندرية التى أخبرتك عنها بالأمس .. »

فلما سمعت منها ذلك اختلج قلبها فى صــدرها ، ولكنها تبسمت وعلت وجهها امارات السرور ، وقالت : « ولكن ياسعيدة يظهر اننا قد تخلصنا من تلك الفتاة »

قالت : « وكيف ذلك ياسيدتى ؟ »

قالت سلمى : « ألم ترى حبيبا حين جاءنى بالأمس ؟ »

قالت : « نعم رأيته وهو صديق حميم للسيد سليم »

قالت سلمى : « نعم .. وقد أخبرنى بقرب مجىء سليم »

فبغتت العجوز لذلك الكلام ، وخشيت أن يكون مسعاها قد فشل ، فقالت : « وكيف يأتى ؟.. لعله فعل بتلك الفتاة مثل ما فعل بك ؟ »

فأحست سلمى بانقباض عند سماعها ذلك ، وقالت : « لا .. لا أظنه فعل شيئا من مثل ذلك ، ولكنى لا أعلم الحقيقة »

قالت : « وكيف اذن ؟.. لابد من أن يكون قد هزأ بهــا وتركها ، وعسى أن يبقى عليك هــذه المرة ، ويعلم أنك أهل لمحبته .. وهو لن يجد مثلك أينما ذهب »

قالت سلمى : « متى حضر نعرف الحقيقة ، وسأطلعك على الخبر بعد ذلك »

- ٣٢ -

البغى مصرعه وخيم

فسكتت سعيدة وخرجت من الغرفة ، وسارت توا الى بيت داود ، وأخبرته بما دار بينها وبين سلمى ..

فلما سمع ذلك تحير كيف يعلل حدوثه ، على أنه عاد فتذكر أمر الكتاب الذى جاءه معنونا باسمه وهو من الداخل باسم سليم ، فهب من مقعده وقال لسعيدة : « ها قد وقع ماكنت أخشاه وأخبرتك عنه .. لعن الله سيدتك ما أحمقها »

فتعجبت سعيدة لذلك الكلام وقالت : « مابالك تلعن سيدتى بغير سبب ؟ »

قال : « اخرسى لعنك الله ولعنها ، انها هى السبب فى فشل مسعاها ، وقد جنت على نفسها .. اذ لايهمنى تزوجت ابنتها أم لم تتزوج »

فأرادت العجوز أن تعارضه ، فصفعها على وجهها ، وأخذ يشتم ويلعن وينقم على وردة ويقول : « تبا لها من حمقاء جاهلة فانها قد فضحت نفسها وفضحتنا »

فتكدرت سعيدة من سماع ذلك وصاحت : « لماذا تضربنى ألعلك أنت سيدى ؟.. ألا تعلم من هى سيدتى التى تلعنها ؟.. وكيف تنكر نعمتها ؟.. ألعلك نسيت فضلها ، ولكن رحم الله

تعويضات الاسكندرية .. »

فلما سمع ذلك منها اشتد غيظه عليها فصفعها صفعة قوية ، فسقطت على الأرض وجعل يدوس فوقها برجليه ، وهى تصيح وتولول ، حتى اجتمع عليها الجيران .. وهو لايكف عن ضربها بقدمه ، وهى تصيح قائلة : « تبا لك ياخائن ياانذل الرجال »

فاشتد حنقه حتى ضربها ضربة قوية .. فغارت قدمه فى أحشائها ، فصاحت صيحة قوية وصارت تختلج وتنتفض ، فخاف الحاضرون أن تموت فصاحوا برجال الشرطة ، فجاء اثنان منهم .. واذا بالعجوز فى حال النزع ، والرجل واقف يرغى ويزبد ، فقبضوا عليه وقادوه مهانا الى مركز الشرطة ، والرعاع حوله يهزأون به .. وحملوا العجوز أيضا على أخشاب الى طبيب الشرطة ، فأودعوا داود السجن وجاءوا بالطبيب الى العجوز ، فأعطاها بعض المنعشات حتى استعادت قواها ، وعادت الى الندب والصياح قائلة : « امسكوه .. لقد قتلنى لأننى قلت انه يسرق الحكومة فى تعويضات الاسكندرية ، انه سارق لص .. امسكوه قد قتلنى .. قتله الله »

فأمر المعاون بتدوين كلامها فى تقرير خاص ، يقدمونه عند المحاكمة ، وأمر بأخذ أقوال داود ..

فلنتركهم فى لغطهم وجلبتهم وتقاريرهم ، ولنعد الى لقاء المحبين ..

- ٣٣ -

لقاء المحبَين

تركنا سليما خافق القلب صاعدا الى منزل حبيبته ، وهو يفكر فى حاله وحالها عند اللقاء .. وقد غلب عليه الخجل مما أتاه فى حقها من التهم ، فصعدوا السلالم حتى أتوا باب الدار ، وقرعوه ففتح لهم واستقبلتهم والدة سلمى ، وقد دهشت عند مشاهدة سليم بغتة .. فهمَّت اليه مسلمة فحياها ، وجاءت والدته وسلمت عليها ، فتقــدمت والدة حبيب وعرفتهما احداهما بالأخرى ، فرحبت بوالدة سليم وقادتهـا بيدها أمام الجميـع الى غرفة الاستقبال ، يتبعهما الباقون .. وآخر الجميع سليم ، وكانت عيناه متجهتين نحو غرفة سلمى لعله يلمح جانب السرير فيستأنس به . ولكن الباب كان مغلقا ، فســار مع الجميع الى القاعة .. وحبيب الى جانبه يحدثه كى يخفف من حدة اضطرابه ، لأنه كان يقرأ آيات الوجل على وجهه ..

فدخل الجميع الى غرفة الاستقبال ووالدة سلمى ترحب بهم ، ولم تكن الخادمة هناك لخروجها بعد الظهر بغير علمها ، ولم ترجع للسبب الذى قدمناه .. فاضطرت أن تقوم بخدمتهم هى وحدها ، فتناولت معطفى الوالدتين وطوتهما ووضعتهما فى مكان معد لذلك .. وقدمت لفافات التبغ لسليم وحبيب ، وهى تارة تخاطب والدة سليم وترحب بها ، وطورا تسأل سليما عن صحته ، وأخرى

تخاطب حبيبا ووالدته ، والجميع مستأنس بها الا سليما فانه كان يزداد اضطرابا ، خوفا من هول موقفه مع سلمى .. ولكنه مع ذلك كان ينتظر قدومها بفارغ الصبر ..

أما سلمى فكانت عندما علمت وهى فى سريرها ، أنهم سيحضرون ، قد أرهفت أذناها لسماع كل طرق على الباب .. فلما سمعت طرقتهم أصغت لصوت القادمين فاذا بوالدتها تخاطب سليما وترحب به ، فحالما سمعت اسمه أخذ قلبها يخفق .. ثم سمعت صوته يكلم والدتها فرن ذلك الصوت فى أذنها رنة أذابت حشاشتها .. ولكنها أنعشتها وذكرتها بأيام الصفاء التى قضتها بقربه يوم لم يوسوس الشيطان بينهما ، فكادت تطير من الفرح وازداد خفقان قلبها وبردت أطرافها ، وكان على المنضدة الى جنبها زجاجة عطر وصفها الطبيب لها أثناء اشتداد نوبات الضيق عليها ، فتناولت الزجاجة واستنشقت رائحتها خوفا من تسلط الانفعالات على قلبها ، ولما مشت والدتها بسليم ووالدته .. كانت تراقب حركة أقدامه وتميزها من سائر الخطوات بمجرد السمع وتتوقع أن تراه يقترب من غرفتها ، ولكنها عرفت أنه سار مع الجماعة الى غرفة الاستقبال . وودت لو أن الباب مفتوح لكى تلمح طرف ثوبه اذا لم تستطع مشاهدته ، ولكنها تعللت بقرب اللقاء به بناء على وعده

فلبثت فى سريرها وهى على مثل الجمر ، كلما سمعت صوتا تظن سليما قادما فيخفق قلبها وترتعد فرائصها .. حتى كادت

تخور قواها ، وبعد برهة سمعت لغطا ووقع أقدام كثيرة ، فأصاخت بسمعها فاذا بصوت والدتها وصوت والدة حبيب وصوت امرأة غريبة ، وكانت قد علمت بقدوم والدته منذ سلمت والدتها عليها عند دخولها الدار ، فأخذت تهدىء نفسها وتتجلد ، لتستطيع الكلام عند مقابلتها .. ثم سمعت صوت طرق باب غرفتها وفتح واذا بوالدتها والى جانبها امرأة تلوح على وجهها ملامح البساطة وسلامة النية ، متوسطة العمر ، بسيطة الملابس ووراء الاثنين والدة حبيب . وحالما دخلن اضطربت سلمى وعلا وجهها الاحمرار وان بدا عليه الهزال على أثر المرض والحزن .. فأسرعت والدتها وقالت لها : « هذه يا ابنتى السيدة أم فؤاد والدة السيد سليم » وتقدمت تلك السيدة وضمت سلمى الى صدرها وقبلتها ودموعها تتساقط .. أما سلمى ، فقبَّلت يدها وعيناها تذرفان الدموع ، وهى تريد اخفاء مابها ولاتستطيع ..

فقالت والدة سليم : « سلامتك ياحبيبتى .. سلامة هذا الوجه اللطيف من الضعف .. سلامتك » .. وعادت وقبَّلتها ، فشكرتها سلمى على تلك العواطف بملامح وجهها لأنها لم تكن تستطيع أن تتكلم لاختناق صوتها .. فعادت والدة سليم وضمتها وهى تقبلها بشغف لفرط ما أحبتها ، وأخذت تطلب لها الشفاء ، وتقول : « جازى الله الأشرار المفسدين ، سلامتك ياحبيبتى ، سلامة هذا الجسم اللطيف من المرض »

ثم جلست الى المقعد ، وتقدمت والدة حبيب وقبَّلتها .. وقد

تأثرت من كلام أم فؤاد . أما والدة سلمى فلم تعد تتمالك عن البكاء ، ولكنها لم تفهم المراد من قول أم فؤاد : « جازى الله الأشرار المفسدين »

ثم جلسن جميعا يتحدثن ، وكل تمسح دموعها بمنديلها ..

وبعد قليل نهضت والدة حبيب قائلة : « هل تأذنين ياحبيبتى لابنى سليم بمشاهدتك ؟ » وضحكت .. فخجلت سلمى ، ولم تجب .. فخرجت وسلمى تتبعها بنظرها ، وتنتظر سماع وقع قدمى سليم قادما من القاعة ..

ولما سمعت وقع قدميه ، أخذ قلبها يخفق ، وارتعدت فرائصها ، وامتقع لون وجهها ، وبردت أطرافها ، وصارت تنتفض فى سريرها .. ولا تسل عما جرى لسليم أيضا ، لقد مشى نحو الغرفة وقلبه يخفق وهو خائف من هول ذلك اللقاء .. لايدرى كيف يخاطبها اذا رآها . فلما دخل الغرفة هاجت أشجانه عند مشاهدة حبيبته فى تلك الحالة من النحول ، وقد تحوّل بهاء ذلك الوجه الى الامتقاع وورد خديها الى الذبول ، وتعكرت عيناها وتكسرت أهدابها من البكاء .. فود لو أنه منفرد بها حتى يطلق لنفسه عنان البكاء وينادى حبيبته ، ولكن وجود السيدات أمسكه عن ذلك.. على انه تقدم الى السرير، ومدّ يده اليها وأمسك بيدها مسلما ، فأحس ببرودتها وارتجافها .. وأراد أن يسأل عنها ، فلم يستطع أن يتكلم ، اذ اختنق الصوت فى حلقه .. فظل ممسكا يدها ، وهى مطرقة تشغل نفسها بتثنية الملاءة بين أناملها باليد

الأخرى ، وهى لاتستطيع ذلك لشدة الارتعاش ، وبقى الاثنان لحظة صامتين ودموعهما تتساقط ، ثم غلبت على سليم أشجانه ونسى موقفه فصاح قائلا : « حبيبتى سلمى .. حبيبتى .. ماذا جرى لك ؟.. كل ذلك من جهلى وحماقتى .. ألعلى سبب هذا النحول ؟.. آه نعم أنا الجانى عليك .. انى المقترف لهذا الذنب .. أنا الظالم .. آه ياسلمى ، اصفحى عن زلتى ان كان هناك محل للصفح .. أما أنا فلا أستحق الصفح لأنى سببت لك الشقاء بجهالتى ، وقد رميتك بالعظائم زورا وبهتانا » . وأراد اتمام الكلام فمنعه البكاء وازداد فيه حتى صار يشهق ، وهو لايستطيع أن يتحكم فى عواطفه ، لشدة شعوره بالخطأ نحوها

أما هى فلم تجبه الا بالدموع ، وأحست لفرط مابها بضيق صدرها .. واشتد بها ذلك حتى أغمى عليها ، فأسعفوها بالماء والعطر حتى أفاقت ، فعادت الى البكاء والنحيب ، وهى تقول : « لابأس عليك ياسليم .. مهما جاء منك فهو عذب هيِّن ، والله الصافح الذى يغفر الذنوب ، فلتبق سعيدا .. وما أنت ممن يستحقون العقاب لأنك محب صادق »

فعاد هو وجثا أمامها ، والجميع مبهوتون منذهلون ، وقال لها : « ها أنذا يامنية فؤادى بين يديك فافعلى بى ماتشائين .. فاقتلينى فانى والله أستحق القتل .. وبخّينى انى مستوجب التوبيخ .. انبذينى فاننى أستحق أن أنبذ لأنى أنكرت طهرك ، وظننت بك السوء مرارا وأنت ملاك طاهر »

ثم نهضت والدته اليها وقبّلتها ، وهى تبكى وتقول : « الذنب ياحبيبتى ذنبى أنا وليس ذنبكما ، أنا التى انقدت لكلام المرجفين وسمعت عنك كلام المفسدين .. »

فتقدمت عند ذلك والدة حبيب ، فأنهضت سليما وأخذت تخفف عنه .. وجاءت والدة سلمى وأمسكتها ، وجعلت تمسح دموعها ، وتطيّب قلبها وتهنئها على مجىء حبيبها .. وكانت قد سمعت الحكاية فى غرفة الاستقبال ، وعلمت بسبب مرض ابنتها وصارت تجتهد فى التخفيف عن الاثنين ، فتقدمت الى سليم وقبلته وقالت له : « أنت ولدنا ، ولا يصدر منك الا الخير ، جازى الله المفسدين ولابد من أن يقتص الله منهم .. فاهنأ بسلمى ولتهنأ هى بك ، لا فرق الله بينكما » ثم جلس الجميع يتحدثون بما يشغلهم عن تلك الأشجان ، ويخفف كربهم ..

أما حبيب فقد تركناه فى غرفة الاستقبال ، ولم يشأ أن يدخل مع سليم ، لئلا يكون وجوده سببا لخجل سلمى ، فلاتستطيع أن تصرح بما فى قلبها لحبيبها .. فبقى فى غرفة الاستقبال ، وقد سمع وهو بالغرفة صوت سليم ينادى سلمى ويستغفرها ، فانفطر قلبه حتى ترقرقت الدموع فى عينيه .. وبقى منفردا صامتا يفكر تارة فى صديقه ، وطورا فى حبيبته ، فسمع وقع أقدام قريبة من الباب .. واذا بادما داخلة ووالدتها وراءها ، فحالما وقعت عيناه عليها نسى سليما وحاله وهاجت فيه أشجانه ، ووقف لاستقبال حبيبته مطرقا ، وهى أيضا صارت ترتجف من شدة التأثر ،

ولكنها لبثت صامتة تنتظر مايبدو منه ..

فاذا به يتقدم اليها ويمسك بيدها ، ويقول : « ألا تزالين غاضبة ، عاتبة على .. » فغلب عليها الحياء ولم تجبه ، فسلم على والدتها وأمسك بيد الفتاة وأجلسها الى جانبه ، ونظر الى وجهها فرآه يكاد يتقد احمرارا ، وقد لمعت عيناها وأبرقت أسرتها ، ومظاهر الخجل تتجلى بوضوح على محيّاها ، فقال لها : « لاتغضبى منى ، ولا تتعجلى فى حكمك على ، فان المحبة الطاهرة لايجب أن يخامرها شكوك ، فافصحى لى عن سبب كدرك .. هل تغارين من سلمى المسكينة التى يرثى لحالها الصخر؟».. فلما سمعت منه ذلك تذكرت جلسته معها .. ولكنها لم تجب ، فأجاب هو عنها قائلا : « نعم أنت تغارين منها .. ولكن هل تغارين لمجرد وجودى مرة بجانبها أعزيها فى مصائبها ؟».. فلم تجبه ، على أنها حاولت أن تجيب ، فمنعها الحياء ، فأعاد السؤال واستحلفها بوالدتها أن تجيبه ، فقالت وصوتها يكاد يختنق : « الحق كله على ياحبيب .. وأنا الجانية على نفسى »

فأجابها وقد تأثر من كلامها ، وثارت فيه أشجانه قائلا : « دعينا بالله من هذا العتاب .. انى أسألك عن سبب غيرتك .. »

فقالت : « قلت لك ان الحق على لأنى اندفعت فى تيار الطيش ، وما جوزيت به انما هو أقل مما أستحقه .. هذا جزاء التى تعرض نفسها على .. » وشرقت بالدموع

فانفطر قلب حبيب عند سماعه ذلك منها .. وتذكر أمر الورقة ،

وعلم أنها نادمة على كتابتها ، فقال لها : « لاتقولى هـذا .. وما هذا مما أعيرك به ، لأنك انما فعلته لشدة حبك لى .. والمحبة الطاهرة فضيلة من أكبر الفضائل ، ولكنى أنا الجانى لأنى لم أعرف قيمـة تلك المحبـة .. ولا أقول انى بخسـتها حقها أو احتقرتها ، لا سمح الله .. ولكنى لم أعرف حق قدرها

« والآن يا ادما لم أبادئك بشر .. ولم يبـدر منى لوم أو اهمال ، وأعجب لما ظهر منك لشقيقتى من الغيرة »

فقالت : « أما الغيرة ، فلا أستطيع مقاومتها لأنى أغار عليك حتى من خيالك .. أما سبب كدرى ، فأنت تعلمه .. أو أنك تعلمه ، وتتغافل عنه ! »

فقال وقد أعجب بعظم حبها له ، وندم على سوء ظنه بها : « أما وجودى الى جانب سلمى يوم دخلت علينا ، ففى وسعى أن أبرىء نفسى منه بشهادة أهل هذا البيت كافة ، حتى خطيب سلمى نفسه .. ومتى اطلعت على الحقيقة لايبقى عندك مجال للشك .. »

فمدت يدها الى جيبها ، وأخرجت ورقة ودفعتها اليه .. فاذا هى الورقة التى كانت قد كتبتها اليه .. فتنـاولها منها ونظر اليها ، وتبسم قائلا : « من أين وصلت اليك هذه .. ؟ »

قالت : « وجدتها عند سرير سلمى »

فازداد فى الضحك وقال : « وهذه ستعرفين قصتها من سياق حكاية صديقى سليم لأن الاثنين من باب واحد ، وعما قريب أقص عليك القصـة بجملتها فتتحققين صدق نيتى واخلاصى ،

واعلمى يا ادما انى لم أحب أحدا بعدك .. وقد ملكتك قلبى ونفسى .. »

فتنهَّدت هى تنهدا عميقا ، وقالت : « وأنا يعلم الله بحالى .. ولكن احكى لى حكاية صديقك سليم ليطمئن بالى .. فقص عليها القصة بايجاز ، فانكشفت لها كل الأسباب ، وتأكدت من براءة خطيبها .. فاطمأن بالها وسكن روعها ، وللحال أشرق وجهها ..

وبينما هما فى ذلك ، سمعا شخصا ينادى حبيبا .. فنهض الى جهة الصوت فاذا بسليم يناديه ، فدخل فرأى الجميع فى غرفة سلمى وأثر البكاء فى عيونهم مع مايتجلى على وجوههم من علامات السرور ، فلما دخل نهض سليم اليه وقبَّله ، وقال : « وأنت أيها الصديق ، هل صفحت عن ذنوبى وأخطائى فى حقك ؟ »

فقبله وهو يقول : « لا أعلم أنك اقترفت ذنبا نحوى أو نحو أحد سواى .. وأما المذنب الذى يستحق القتل ، فهو ذلك الرجل القبيح الوجه الذى لا أستطيع النوم قبل أن أنتقم منه ، ولولاه لكنا فى رغد ونعيم . ولكن نحمد الله على انكشاف الدسيسة وتوقُّف مساعيه عند هـذا الحد »

فقالت السيدات بصوت واحد : « جازى الله أهل الشرور والفساد »

ثم قال سليم لصديقه همسا : « ها أنذا قد أنهيت مهمتى ، فهل أنهيت مهمتك ؟ »

قال : « نعم وها هى ذى ادما فى غـرفة الاسـتقبال مع

والدتها » فناداهما سليم فجاءتا ، وسلمت ادما على سلمى سلاما حارا كله لهفة واخلاص .. وقبّلتها مرارا ، وجلس الجميع وقد خلا الجو وتصافت قلوبهم وعرف كل منهم صديقه حق المعرفة ، واطلع كل منهم على سرائر الآخر

فقالت والدة سليم لوالدة حبيب : « تتوق نفسى أن نعقد عقد الخطبة لسليم على سلمى وحبيب على ادما فى ليلة واحدة ، نقيم فيها احتفالا شائقا ننسى به ما قاسيناه »

فقال الجميع : « سمعا وطاعة »

أما سلمى وادما فأطرقتا خجلا ، وخرجت ادما من الغرفة اخفاء لخجلها ، أما سلمى فلم تستطع مغادرة السرير ، فحولت وجهها نحو الحائط ..

فقال حبيب : « لن أعقد خطبة قبل أن أنتقم من ذلك الخائن وتلك الخائنة » فأخذوا يحولونه عن قصده فقال : « كلا .. لايمكننى السكوت عن هذا اللئيم ، وأنا أعرف بيته .. وأين خادمتكم ؟ »

فقالوا له : « لقد خرجت من الظهر ، ولم تعد .. »

فقالت سلمى : « يظهر أنها عرفت الخبر وسارت اليه ، لأنها كانت تستوضحنى الأمر .. وأنا فى غفلة عن قصدها »

قال حبيب : « اذن لابد أن تكون عنده ، وأقل شىء أنتقم به منه أن أبعث اليه زمرة من الأشقياء يضربونه ضربا مبرحا ، حتى أشبع غليلى منه .. وها أنذا ذاهب الآن لأتحقق اذا كان

لايزال مقيما فى البيت الذى كان فيه قبلا وهو قريب .. وسوف أعود اليكم بسرعة »

قال ذلك وخرج مسرعا ، ولبثوا هم فى انتظاره .. فمضى ربع ساعة ثم نصف ساعة ، ولم يعد

فانشغل بالهم وقلقت أفكارهم ، وخاصة والدته وادما ، لغيابه لئلا يكون قد تشاجر مع ذلك الرجل ، فأضرَّ به .. فتحفَّز سليم للخروج كى يبحث عنه .. فرأى رجلا دخل البيت فظنوه هو ، واذا به السيد سليمان .. فنهضت اليه زوجته واستقبلته وأدخلته الى غرفة سلمى ، وعرفته الى والدة سليم .. ولما رأى سليما سأله عن صحته وسبب غيابه .. فأخذت زوجتــه تقص عليه الخبر باختصار ..

وبينما هم فى ذلك ، اذ عاد حبيب ووجهه يتهلل فرحا ، فسألوه عن سبب غيابه فقال : « ذهبت الى بيت اللئيم ، فاذا بالناس يتحولون عنه جماعات .. فسألت عن السبب ، فقيل لى : انه ضرب خادمة عجوزا حتى كاد يقتلها ، فقاده رجال الشرطة الى مركز البوليس ، فذهبت اليه هناك .. فاذا بخادمتنا تتألم ألما شديدا .. وقد قررت أنه ضربها لأنها أرادت كشف خيانته لدى الحكومة فيما ناله من تعويضات الاســكندرية زورا وبهتانا ، ولا أظنه يتخلص من هذه المحاكمة الا بالقتل أو بالأشغال الشاقة فى ليمان طرة ، وأما سعيدة فلا أظنها تبقى حية لما فيها من الجراح والرضوض »

فصاح الجميع بصوت واحد : « على الباغى تدور الدوائر »
وحمدوا الله أنهم نالوا بغيتهم عفوا ، ولم يتكلفوا تعبا ..
وقضوا بقية ذلك اليوم يتحدثون أحاديث متنوعة .. وظلوا فى
بيت السيد سليمان حتى تناولوا العشاء معا ، بحضور السيد
سعيد ، وكانت زوجته لم تخبره عن طلب حبيب ليد أدما ،
فأخبرته تلك الليلة ..

ففرح لذلك ، وطرب الجميع لما أتاهم الله من حسن العاقبة ،
وتواعدوا على يوم يعقدون فيه الخطبة رسميا فى وقت واحد .
ثم عقدوا الخطبة فى احتفال شائق حضره كل الأقارب والأصحاب

وكانت والدة سليم لايزال فى قلبها حزازات من الست وردة
لأنها خدعتها واحتالت عليها وأغرتها ، فطلبت من سليم أن يبعث
بطاقة من بطاقات الدعوة الى الست وردة اغاظة لها .. واكتفت
بهذا تشفيا منها .. والحقيقة أن ذلك كان أشد وقعا عليها من
ضرب السيف

وقد تم الزفاف فى احتفال عظيم تحدث به أهل العاصمة
زمنا .. فقد كان احتفالا رائعا ..

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

